موسى بدوى

معركة الأردين

وقصة هبوط الحلفاء فى نورماندى

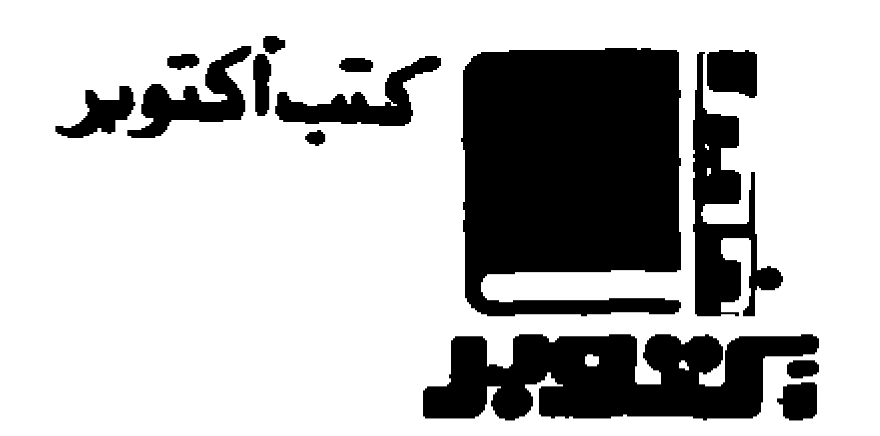


دار المعارف



معركة الأردين

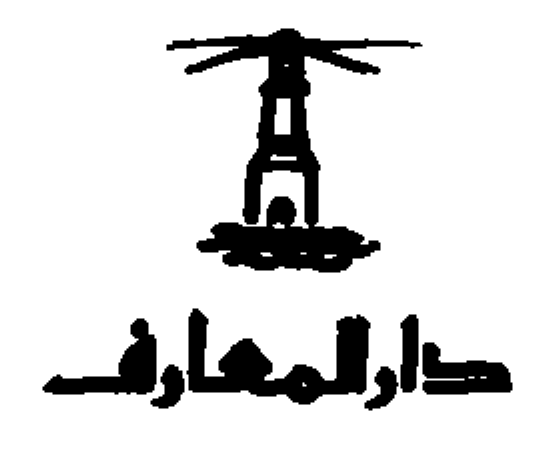
وقصة هبوط حلفاء الغرب فى نورماندى



معركة الأردين

وقصة هبوط حلفاء الغرب في نورماندى

موسى بدوى



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

محتويات الكتاب

القسم الأول

صفحة

مقدمة ٩

الفصل الأول : الأسد والرجل ٢٥

الفصل الثانى : خريطة لحائط الأطلنطى ٤٥

الفصل الثالث : عملية أوفر لورد ٧٣

الفصل الرابع : السر الأعظم الذى يسعى وراءه هتلر ٨٧

الفصل الخامس : الثرثرة طابع مميز للرجل الفرنسى ١٠٠

الفصل السادس : الليالى التى طار فيها النوم من عينى الجنرال باتس ١١٢

الفصل السابع : الحرب الطاحنة بين أجهزة المخابرات ١٢٤

الفصل الثامن : الخلاف يدب بين حلفاء الغرب ١٣٦

الفصل التاسع : لعبة الاستغماية مع العدو الألمانى ١٤٨

الفصل العاشر : أثر المفاجأة فى الانتصار فى الحروب ١٦٠

الفصل الحادى عشر : قلوبنا محطمة فاعزف لنا لحناً حزيناً ١٧٢

الفصل الثانى عشر : صورة طبق الأصل للجنرال مونتجومرى ١٨٣

صفحة

الفصل الثالث عشر : واقتربت أخيراً ساعة تكشف الحقائق ١٩٤
الفصل الرابع عشر : تشرتشل فى حيرة بين الحليف الأمريكى وديجول العنيد ٢٠٥
الفصل الخامس عشر : ثلاثة أبيات من شعر «فيرلين» لا تهز أعصاب القرد العجوز ٢١٦
الفصل السادس عشر : ساعة الصفر تلوح فى الأفق ٢٢٧

القسم الثانى

الفصل السابع عشر : ثلاثة أيام مريرة فى تاريخ فرنسا ٢٤١
الفصل الثامن عشر : المعركة المنسية ٢٦١
الفصل التاسع عشر : جسر بعيد . . بعيد . . بعيد ٢٧٧
الفصل العشرون : معركة الأردين ٣٠٨
الفصل الواحد والعشرون كيف دارت المعركة ؟ ٣٢٠

الإهـداء

أهدى هذا الكتاب

إلى ذلك الذى يشجع على البحث والكتابة والتأليف ، وتقديم كل جديد للقارئ العربى ؛ تغطية لما ينقص المكتبة العربية وإثراء لها .

أهديه إلى أنيس منصور

مقدمة

بقلم عقيد (أ.ح)
محمد فريد حجاج

معركة نورماندى هى الحلقة الأخيرة والفاصلة فى الحرب العالمية الثانية خلال جريانها على المسرح الأوربى .

إنها معركة لم تأت عفو الساعة ، ولم تبدأ من فراغ ، وإنما لها جذور ترجع إلى بداية هذه الحرب التى اندلعت فى شهر سبتمبر ١٩٣٩ عندما فاجأ الألمان العالم بما عرف بعد ذلك بالحرب الخاطفة التى استولوا بها فى سرعة مذهلة على دولة بولندا ، ثم غزوا كلاً من النرويج وهولندا وبلجيكا وأعقبوا ذلك احتلال فرنسا وسقوط الحكم الذى كان قائما فيها ، ثم قيام حكومة فيشى .

ويمكن القول بأن معركة نور ماندى هذه — هى أشهر المعارك التى جرت على الأراضى الفرنسية ؛ إذ كانت البداية الحقيقية لهزيمة ألمانيا ، ومن ثم تحرير أوربا والقضاء على أخطار النازية ، وهى الأخطار التى كانت ستعقب القضاء النهائى على قوات الحلفاء العسكرية فى الغرب .

والواقع أن الخطة التى وضعها أدولف هتلر للقضاء على هذه القوات أوشكت أن تتحقق فى شهر مايو ١٩٤٠ على إثر توسيع وتقوية الممر الألمانى الذى كان قد فتح على امتداد وادى نهر السوم ، حتى ساحل القنال الإنجليزى ، وذلك نتيجة للاستيلاء على (آراس) وعزل (كاليه) ، فترتب على حرمان

الحلفاء من هذا الميناء أن لم يبق من بين جميع موانى القنال الإنجليزى سوى (دنكرك) و (أوستند) مفتوحين كطريقين لهرب الجيوش البلجيكية والبريطانية والفرنسية التى اضطرت إلى الانسحاب صوب البحر.

وبينما كانت القوات البريطانية تستعد لشن هجوم مضاد إذا بها تواجه تهديداً ألمانيا جديداً لم يكن يحتمل معه شطر البلجيكيين وفصلهم عن حلفائهم فحسب ، بل تعدى ذلك إلى تهديد (دنكرك) ، وكذلك (أوستند) التى أوشكت أن تسقط .

وعند ذلك أخذت قوات الحملة البريطانية فى الانسحاب صوب ميناء دنكرك ، وعبر القنال كانت البحرية البريطانية قد بدأت فى تجميع كل سفينة أو قارب ، استعداداً لإجلاء هذه القوات عن القارة ، والعودة بها إلى بريطانيا .

ولقد تصور ونستون تشرتشل رئيس وزراء بريطانيا الذى تولى إدارة دفة الحرب ومستشاروه المقربون — أنه لن يمكن إنقاذ أكثر من عشرين أو ثلاثين ألفاً عن طريق البحر ، إذ كانت هذه السفن وكذلك الشواطئ التى تبحر منها معرضة طول الوقت للهجوم الجوى الألمانى أو للوقوع تحت مرمى نيران المدفعية الألمانية ، بل إنه كان يخشى أن يضطر خلال أسبوع واحد — أن يعلن نبأ أعظم كارثة عسكرية حلت ببريطانيا طوال السنين .

* * *

كانت القيادة العليا للقوات الألمانية تنوى الاندفاع رأسا إلى دنكرك للتعامل مع العدو ، وإلحاق خسائر مدمرة به .

وبينما هذه الخطة على وشك التنفيذ إذا بهتلر يتدخل فى الأمر ، ويصدر توجيهاً بأن غرضه الرئيسى هو هزيمة فرنسا ، وأن الجيش الفرنسى فى نظره هو

المهم ، فإذا تحطم دانت له أوربا ، وأصبح هو سيدها !

وبذلك أوقف تقدم القوات الألمانية التى لم تكن تبعد عن دنكرك إلا خمسة عشر ميلاً ؛ مما أتاح الفرصة لبريطانيا لكى تنقذ . . ٣٣٨. جندى وما معهم من دبابات ، فكانت هذه هى النواة والهيكل اللذين لم يكن فى مقدورها أن تبنى جيوشها المستقبلة إلا بهما .

لهذا كان قرار العدول عن مهاجمة دنكرك فى هذه المناسبة هو أول خطأ عسكرى جسيم لهتلر ؛ إذ كان قراراً أعوزته الحكمة والصواب ، اتصف بقصر النظر على حسب ما أدلى به القادة الألمان بعد ذلك .

وبعد أن أصبح غربى أوربا خاضعاً لهتلر بدأت أنظاره تتجه إلى بريطانيا : فلقد كان رأيه أنه متى احتل هولندا وبلجيكا ، وانتهى من إنزال الهزيمة بفرنسا — تهيأت الظروف الرئيسية للقيام بحرب ناجحة ضد الجزيرة البريطانية ؛ إذ يمكن حينئذ محاصرتها من غرب فرنسا بالقوات الجوية على حين تقوم البحرية الألمانية بما لديها من غواصات بمد مسافة هذا الحصار .

وفى خلال ذلك لا يكون فى مقدور بريطانيا أن تقاتل فى القارة ، على حين تتولى الهجمات اليومية بالقوات الجوية والبحرية تقطيع شرايين الحياة داخلها ، وفى اللحظة التى تنقطع فيها خطوط تموينها — تصبح مضطرة إلى التسليم .

ومن أجل هذا الهدف بدأ هتلر فكرة معركة بريطانيا لتدميرها وإذلالها ، حتى تطلب التسليم .

وقد بدأت هذه المعركة عام ١٩٤٠ بالغارات الجوية المركزة على الجزيرة البريطانية ، وبالحصار البحرى الذى ضرب حولها بغواصات الأميرال دونيتيز ، ثم بصدور توجيهات هتلر فى شهر يوليو من العام نفسه إلى قادته بالاستعداد

للهجوم عليها واحتلالها ، وقد أطلق على عملية الغزو هذه الاسم الكودى (سبع البحر) .

* * *

وأخذت القيادة الألمانية تجهز لهذه العملية ، ولكنها وجدت أن هناك صعاباً كثيرة سوف تواجه عمليات الإنزال البحرى :

كان قد تحدد يوم ١٥ من سبتمبر ١٩٤٠ موعداً لبدء الغزو ، فطلبت القيادة العامة الألمانية ضرورة حصول السلاح الجوى الألمانى على السيطرة الجوية ، وتدمير القوات الجوية البريطانية كشرط لإمكان عملية (سبع البحر) . وقد أذيع فى ذلك الوقت أن المهمة الأساسية للسلاح الجوى الألمانى — هى القضاء على القوات الجوية البريطانية ، سواء كانت تعمل كقوة جوية مقاتلة ، أو رابضة فى منشآتها الأرضية .

وتوقع هتلر أن تخر بريطانيا راكعة خلال الأشهر الستة التالية ، لكى يتحول بعد ذلك لمهاجمة روسيا فى العام التالى ١٩٤١ . غير أن السلاح الجوى الملكى البريطانى استطاع شل سلاح الجو الألمانى ، وحال بذلك دون تحقيقه هدفه .

وكان مما ساعده على ذلك تقدم وسائل الدفاع الجوى ، وعلى وجه الخصوص ظهور الرادار وأثره فى تكبيد السلاح الجوى الألمانى خسائر عالية ، الأمر الذى أدى إلى عدم إنجاز تعليمات هتلر فى إخضاع بريطانيا !

عند ذلك وجه هتلر قواته إلى الشرق : أى إلى الاتحاد السوفيتى الذى كان حليفه بالأمس ، فبدأفى تجهيز قواته لتنفيذ خطة غزوه التى أطلق عليها اسم (بربا روسيا) : أى ذى اللحية الحمراء .

وهاجمت القوات الألمانية يوم ٢٢ من يونية ١٩٤١ أراضى الاتحاد السوفيتى

مكتسحة أمامها القوات الروسية ، وظلت تتقدم حتى وصلت إلى مشارف موسكو ، وظن هتلر يومها أن العدو فى الشرق قد قضى عليه ، ولكن ظنونه هذه لم تكن فى محلها .

ذلك أن الاتحاد السوفيتى استطاع – بعد الهجوم الأوّلى الكاسح الذى قام به الألمان – أن يستعيد توازنه بقيادة ستالين ، وبمساعدة الغرب الذى أمده بالمعدات والسلاح ، فتمكن من وقف تقدم القوات الألمانية أولاً ، ثم بدأ بعد ذلك يقوم بهجمات مضادة .

وهكذا أصبح الميدان الشرقى جحيماً للألمان والروس على السواء . وكانت أولى هزائم الألمان القاسية فى معركة ستالنجراد التى جاءت بدورها نتيجة لتدخل هتلر فى قرارات القيادة . على أن القوات الألمانية ظلت متماسكة ، وما فتئت تشكل خطراً حقيقيا على الجيوش الروسية ؛ كما أن ستالين راح يحث الحلفاء على فتح جبهة جديدة لمحاربة الألمان ؛ مما يخفف من ضغطهم على القوات الروسية .

* * *

وبينما كان ذلك يحدث إذا بالولايات المتحدة الأمريكية تدخل الحرب إلى جانب الحلفاء ، وذلك عقب الهجوم اليابانى على بيرل هاربر ، وفتح ميدان حرب آخر فى آسيا .

لقد أخذت المعارك تجرى بين اليابان التى اجتاحت جنوب شرقى آسيا من ناحية ، وبين بريطانيا والولايات المتحدة من ناحية أخرى . أما القوات الألمانية فإنها احتلت كلا من يوغوسلافيا واليونان ، وأصبحت تسيطر على دول البلقان ، وتقدمت قوات روميل من ليبيا فى اتجاه مصر ، وبدأت تدور على المسرح فى الشرق الأوسط معارك قاسية ، كان أشهرها معركة العلمين التى انحسر بعدها المد الألمانى عن شمالى أفريقيا الذى ظل يتراجع حتى إيطاليا .

وفى صيف عام ١٩٤٢ – كان أربعمائة مليون من سكان أوربا واقعين تحت سلطان الحكم الألمانى ، فكانت إمبراطورية هتلر فى هذه الآونة فى أوج اتساعها ؛ إذ امتدت من البحر المتوسط إلى المنطقة القطبية ، ومن عند القنال الإنجليزى حتى البحر الأسود ، وتكاد تصل إلى بحر قزوين ! ولم يبق بين جبال البرانس فى إسبانيا وسهول المراعى فى أوكرانيا دولة ذات سيادة ، سوى سويسرا . حتى موسولينى دوتشى إيطاليا ، كان قد انكمش ، وأصبح مجرد تابع لألمانيا !

غير أن عام ١٩٤٣ حمل معه إلى الألمان الكثير من الأنباء غير السارة : ففى شهر فبراير كانت معركة ستالنجراد التى كسرت حدة هجوم الألمان فى الميدان الشرقى ، وقبلها فى شهر أكتوبر ١٩٤٢ وقعت معركة العلمين ؛ كما أن نهاية هذا العام شهدت عملية إنزال قوات الحلفاء ، فى شمالى أفريقيا ، ثم استيلاءها على المغرب والجزائر ، ومحاصرة القوات الألمانية فى تونس من الشرق ، وفى ليبيا من الغرب ؛ مما أدى إلى اقتلاع القوات الألمانية من جميع أرجاء شمالىّ أفريقيا وميدان الشرق الأوسط معاً .

* * *

والواقع أن هذه العملية بالذات كانت لها فوائد جمة بالنسبة لحلفاء الغرب : فهى أول تجربة ميدانية للعمليات البرمائية أفادتهم كثيراً فى التحضير لمعركة نورماندى ، إذ كانت تجربة واقعية أوقفتهم على الكثير من الدروس المستفادة ، وأتاحت لهم ابتكار الجديد من المعدات البرمائية التى ساعدتهم فى عمليات الإنزال البحرى التى دارت بعد ذلك على الشاطئ الفرنسى .

وهناك تجربة أخرى استفاد منها حلفاء الغرب للتحضير للهبوط فى نورماندى ، هى الغارة التى قامت بها قواتهم على ميناء (دييب) الفرنسى المطل

على القنال الإنجليزى ، وتم تنفيذها بالقوات الكندية قوامها خمسة آلاف رجل ، فقد منهم ٣٣٦٩ . وبالرغم من ارتفاع عدد الخسائر – كان لهذه الغارة أثر كبير فى التجهيز لمعركة نورماندى ، من حيث إنها شكلت أول احتكاك فعلى مع القوات الألمانية ، ونظراً إلى أنها جرت تحت ظروف جوية وبحرية مماثلة للظروف التى سادت بعد ذلك المعركة القادمة .

أما الاتحاد السوفيتى فقد ظل يطالب بفتح الجبهة الثانية طوال عام ١٩٤٢ ، غير أن ظروف الحلفاء الغربيين لم تمكنهم من ذلك ، فوعدوه بأن يتم فتحها عام ١٩٤٣ ، فلما كان شهر يناير من هذا العام – عقد مؤتمر الدار البيضاء ، واتضح فيه أن الحملة التى يجرى تنفيذها فى تونس لا يحتمل الانتهاء منها قبل شهر مايو التالى ، وأنه ترتيباً على ذلك لايمكن القيام بأى عمليات للغزو انطلاقاً من بريطانيا ، حتى شهر سبتمبر ؛ كما رُئى أن من الضرورى إحراز نصر حقيقى قبل حلول الشتاء ، وأن المسألة لم تعد مجرد القيام بعمل يائس لتخفيف الضغط عن الروس ، ولكنها مشكلة أكبر من ذلك ، هى النزول فى شمالى فرنسا بقوات كافية تمكن جيوش الغزو من تحرير غربى أوربا ، وموالاة الضرب فى قلب ألمانيا .

ولم يستغرق هذا المؤتمر وقتاً طويلاً ، ولكن تقرر فيه أن عملية على هذا النطاق لا يمكن القيام بها قبل ربيع عام ١٩٤٤ ؛ إذ كانت تتطلب حشد مالا يقل عن ٤٠ فرقة فى بريطانيا ، هى التى تلزم بدء الاقتحام ، ثم بعد ذلك استخدام مائة فرقة تباعاً يتعين تدبير الجانب الأكبر منها من الولايات المتحدة .

لقد كانت الشهور الباقية حتى ذلك الموعد مطلوبة جميعها لإتمام تعبئة الموارد الأمريكية ، وتأمين طرق الإمداد والتموين التى تتيح نقل هذه القوات عبر الأطلنطى ، وكسب السيطرة الجوية فوق أوربا . وتمهيداً لذلك رأى رؤساء

الأركان فى جيوش الحلفاء ضرورة الاضطلاع بهجوم عام على الغواصات الألمانية العاملة فى المحيط ، والقيام بسلسلة من القصف الجوى المكثف على المراكز الصناعية فى ألمانيا ؛ لتقليل قدرتها على مواصلة الحرب .

وفى هذه الفترة نفسها كان يتعين دفع عجلة التخطيط التفصيلى والاستعداد لغزو فرنسا ، وهى العملية التى أطلق عليها الاسم الكودى (أوفر لورد)

وطرح بعد ذلك سؤال هام يقول : أين يتعين توجيه المجهود الإستراتيجى الرئيسى فى أثناء عام ١٩٤٣ بعد إتمام غزو تونس ؟

لقد كانت هناك وجهة نظر تقول : إن من اللازم جعل ألمانيا تظل تقاتل بشدة فى منطقة البحر المتوسط ، وذلك طوال الشهور التى ستنقضى قبل أن يتمكن الحلفاء من الهجوم عبر القنال ، وتنفيذاً لذلك رئى اقتراح غزو جزيرة صقلية بمثابة نقطة ارتكاز يمكن الوثوب منها إلى أرض إيطاليا نفسها على أمل أن يكون فى ذلك مايجتذب هتلر إلى القيام بمجهود عظيم فى منطقة البحر المتوسط ، بما فى ذلك من تعزيزه لدفاعاته فى جنوبى أوربا على حساب الغرب .

وقد ساند هذه الفكرة – أن الهجوم على إيطاليا كان فيه احتمال إسقاط موسولينى ، ومعنى ذلك انهيار أحد شركاء المحور ، بما فى ذلك من آثار سياسية خطيرة داخل ألمانيا ، فضلاً عن أنه سوف يتيح للحلفاء إذا هم وضعوا أيديهم على القواعد المقامة فى جنوبى إيطاليا – أن يضربوا المصانع الحربية الألمانية البعيدة عن متناول القاذفات التى تعمل من قواعدها فى بريطانيا .

هذا إلى جانب ضرب حقول البترول الرومانية ، ومحاولة جر تركيا إلى دخول الحرب فى صفوف الحلفاء ؛ مما يؤدى إلى فتح طريق القوافل القصير تجاه روسيا عبر مضيق البوسفور ، وهو الطريق الذى يوفر الرحلات الطويلة الباهظة التكاليف ، أو إلى مورمنسك عبر إيران لإرسال معدات الإعارة والتأجير .

ثم إن تطوير جبهة القتال النشيطة فى البحر المتوسط كان يهيئ فرصة جديدة لإضعاف الجيش الألمانى ، وإجبار هتلر على التوسع فى نشر قواته ، تمهيداً لتوجيه الضربة الحاسمة فى الغرب .

* * *

وطوال عام ١٩٤٣ – جرى تنفيذ هذه الخطة الإستراتيجية بالصورة التى رسمها الحلفاء فى الميدان الأوربى ، كما أن الحرب ازداد اشتعالها فى آسيا بين القوات اليابانية وقوات الحلفاء . وفى نهاية هذا العام – انعقد مؤتمر طهران الذى تعهد فيه تشرشل وروزفلت جديا بفتح الجبهة الثانية فى ربيع عام ١٩٤٤ .

وجاء هذا العام أخيراً ومعه أخذ كل من الجانبين – الألمان من ناحية والحلفاء من الناحية الأخرى – فى الاستعداد للمعركة القادمة ، فراح هتلر يشيد حائط الأطلنطى الشهير ، وراح الحلفاء يحضرون قواتهم لإنزالها على الشاطئ الفرنسى .

ومن أجل هذا التحضير – أعاد الحلفاء تشكيل قيادة أعلى للغزو المرتقب ، وبدأت بينهم وبين الألمان أكبر معارك تدور بين أجهزة المخابرات ، إلى جانب الصراع فى تجهيز القوات ومسرح العمليات .

وقد استماتت الألمان لمعرفة مكان الغزو القادم وموعده ، ولكن الحلفاء تمكنوا من إخفاء هذا السر . بل إنهم أقنعوا الألمان بأن الغزو سيكون فى (كاليه) ، فضللوهم بذلك عن المكان الحقيقى ، وهذا هو الذى أعطاهم الفرصة لتثبيت أقدامهم على الشاطئ الفرنسى ، فانطلقوا منه إلى داخل أوربا وبعدها ألمانيا .

* * *

ويتحدث هذا الكتاب عن كل ذلك بتفصيل وإسهاب ، ويركز بصفة خاصة على فترة الاستعداد والتحضير ، وعلى دور المقاومة الفرنسية السرية فى

مساعدة الحلفاء ، ونجاح عملية الهبوط ، وبعدها معركة تحرير فرنسا .

ومن خلال صفحات الكتاب تبدو لنا بوضوح خبايا هذه المعركة الفاصلة التى ترجع أهميتها إلى أنها هى التى حددت مصير الرايخ الألمانى الثالث ، ومن أجل ذلك اعتبرت بحق من المعارك الرئيسية فى تاريخ الحروب .

لقد كان لهذه المعركة من الدروس المستفادة الكثير من الناحية العسكرية : فهى من أعظم العمليات البرمائية فى العالم ؛ كما أنها تضمنت أعظم خطط التضليل والخداع التى ترسم ببراعة منقطعة النظير التى أمكن الفكر العسكرى أن يبتكرها ، وشملت معدات وأسلحة على أكبر قدر من التطور .

ومع أن النصر الذى أحرزه حلفاء الغرب فى هذه المعركة كان نصراً حربيا كبيراً – فإن بعض المفكرين يرون أنه انطوى على هزيمة سياسية أكبر حاقت بهم :

ذلك أنهم أتاحوا للاتحاد السوفيتى خلال عملية سحق ألمانيا النازية وتحرير غربى أوربا – أن يسيطر تماماً على دول شرقى أوربا ، ومنع تطبيق ميثاق الأطلنطى ومبادئه فيها ، وهى المبادئ التى قاتلوا من أجلها فترتب على ذلك أن حل الاتحاد السوفيتى محل هتلر ، لكى يصبح القوة المسيطرة على ذلك الجزء الكبير من العالم .

* * *

ويثير موضوع الكتاب كذلك وقفة قصيرة للتأمل قليلاً فى فنون القتال : ذلك أن معركة نورماندى تشابه معركة أكتوبر المصرية فى نقاط محددة كثيرة ؛ إذ إن كلتا المعركتين كانت عملية برمائية ، فجاء الهجوم فى الأولى عبر بحر المانش ، وكان الاقتحام فى الأخرى مع عبور قناة السويس ، التى تعد من أكبر الموانع المائية فى العالم .

غير أن العمليتين تختلفان من حيث مسرح العمليات الذى دارت كل منهما فيه : فبينما طبيعة الأرض فى الحالة الأولى زراعية – إذا بها فى الحالة الأخرى صحراوية ، لكن ما يوحد بينهما – أن الهجوم فيهما جرى ضد خطين محصنين بدرجة كبيرة : الأول هو حائط الأطلنطى الذى بناه هتلر وسط دعاية صاخبة حوله تقول : بأنه الخط الذى لا يمكن اقتحامه ! والآخر هو خط بارليف الشهير الذى برعت إسرائيل فى الدعاية له ، إذ زعمت أن المصريين سيدفنون فيه إذا هم حاولوا الهجوم عليه !

فكلا الخطين متشابه مع الآخر فى التجهيز الهندسى ، ونظام الدفاع عنه ، وإن كان حائط الأطلنطى لم يستكمل تماماً ، مما ترك فيه نقاط ضعف غير قليلة ، وخاصة فى منطقة نورماندى.أما خط بارليف فقد استكمل بناء نقاطه الحصينة تماماً ، سواء فى المواجهة أو العمق ، فضلاً عن أنه أضيف إليه ساتر ترابى امتد على طول القناة لمسافة ١٦٨ كيلو متر يبدأ على حافة القناة مباشرة ، ويرتفع فى المتوسط من ٢٠ إلى ٢٥ متراً بعمق ٤٥ متراً .

وثمة نقطة مشتركة أخرى بين المعركتين ، هى خطة الخداع التى اتبعت فيهما : ففى معركة نورماندى كان هدف الحلفاء إخفاء مكان وموعد الهجوم عن الألمان ، وقد نجحوا فى ذلك ، أما فى معركة أكتوبر فإنه بالرغم من تقدم وسائل الاستطلاع ، وظهور الأقمار الصناعية ، ووسائل الحرب الإلكترونية ، وقرب المسافة بين القوتين المتحاربتين التى لا تزيد عن مائتى متر – أمكن المصريين إخفاء موعد الهجوم وتوقيته ، وكذا حجم القوات الرئيسية ، برغم ما ادعته إسرائيل من براعة مخابراتها ، الأمر الذى أدى إلى تأخيرها فى استدعاء قوات الاحتياط حتى آخر وقت !

ولقد كان التحضير للمعركتين ، وما بذل فيهما – له كذلك أثر كبير فى الفكر

العسكرى : ذلك أن اختيار اليوم والساعة للهجوم – لم يتم خبط عشواء ، ولكن بناء على دراسة وعلم ، وخاصة أن الأحوال الجوية والمد والجزر كان لها تأثيرها الكبير .

وبالمثل – استخدام المعدات المبتكرة فى عملية العبور ، والتجارب الكثيرة ، والتدريب الشاق للتغلب على المشاكل التى تعترض الهجوم :

ففى معركة نورماندى كانت هناك مشكلة عمق مياه البحر عند الشاطئ الفرنسى ونوعية الأرض ، والموانع التى وضعها الألمان ، والتغلب على كل ذلك لإمكان إنزال الموجات الأولى من قوات الحلفاء بمعداتهم ، وبأقل قدر من الخسائر .

وفى معركة أكتوبر كانت هناك مشاكل رئيسية ، منها : التغلب على الساتر الترابى ، فاخترعت لذلك المدافع المائية .

أما طريقة الهجوم فى المعركتين فقد كانت الفكرة الأساسية فيهما واحدة ، هى الابتعاد عن النقط القوية فى الخطين الحصينين :

ففى معركة نورماندى جرى الهجوم بالقوات الرئيسية على منطقة نورماندى الضعيفة نسبيًّا ، إلى جانب هجوم مخادع فى اتجاه كاليه ، وإسقاط فرقتين من المظليين فى عمق فرنسا لإرباك القوات الألمانية .

وفى معركة أكتوبر كان الهجوم المصرى على خط المواجهة بالكامل ؛ لتشتيت الضربة الرئيسية الإسرائيلية ، وإرباك قيادتها ، ثم التفادى من النقط القوية مع تعيين قوات محددة للتعامل معها ، إلى جانب إبراز قوات فى عمق سيناء لإرباك العدو ، ومنع تقدم احتياطياته .

وعن سير المعركة بعد ذلك : نرى أنه فى معركة نورماندى وبعد نجاح الحلفاء فى إنشاء رءوس الجسور ، والتشبث بالأرض على الساحل الفرنسى –

دارت معارك متتالية بينهم وبين الألمان ؛ أما فى معركة أكتوبر فإن سقوط خط بارليف أنزل ضربة قاصمة بالقيادة الإسرائيلية ؛ مما جعل الهزائم والخسائر تتوالى على القوات الإسرائيلية .

وقد لجأ كل من الألمان والإسرائيليين فى المعركتين إلى شن هجوم مضاد قوى ، كان الغرض الأساسى منه سياسيا من الدرجة الأولى ، هما عمليتا (الأردين) و (الثغرة) :

فقد قام هتلر بآخر هجوم مضاد قوى ومنظم أشاع الاضطراب فى قوات الحلفاء ، وأوقفهم لفترة وكان ذلك ماوقع فى شتاء عام ١٩٤٤ وعرف باسم هجوم الأردين ، وكان هدف هتلر منه شطر التحالف الكبير ، وحث حلفاء الغرب على قبول صلح معتدل ، وتمكنه من إبقاء الروس خارج ألمانيا ، وذلك كما يتضح هدف سياسى .

أما فى معركة أكتوبر فإن إسرائيل قد قامت بعملية الثغرة التى كان هدفها الأول أن يكون وضعها مناسباً فى حالة إيقاف النيران ، وإجراء مفاوضات نظراً إلى أنها خسرت كثيراً فى الأيام الأولى من الحرب . .

أما أشهر صراع فى المعركتين فى الجانبين الألمانى والإسرائيلى فهو ما اصطلح على تسميته بصراع الجنرالات :

فلقد اختلف القادة الألمان قبل المعركة على مكان الهجوم المنتظر ، وأماكن وضع قوات الاحتياط ، وبعد هجوم الحلفاء انتهى الصراع بمؤامرة دبرت لاغتيال هتلر التى اشترك فيها عدد كبير من قادة الرايخ الألمانى ، فأدت إلى حرمان هذه القوات من صفوة من أحسن القادة سواء بالقتل أو الانتحار ، ومن هؤلاء القائد المشهور إروين روميل .

وفى الجانب الإسرائيلى كان الصراع بين الجنرالات عن احتمال وقوع هجوم

مصرى وعدم الاحتمال ، ومتى ؟ وأين ؟ وبعد الهجوم تصارع هؤلاء الجنرالات على القيادة !

فإذا عدنا إلى الكتاب – نراه يتعرض للمعارك التى دارت بعد نجاح الغزو ، واستمرار تقدم قوات الحلفاء فى الأراضى الأوربية قبل دخولها إلى أرض ألمانيا نفسها ، وآخر الانتصارات التى أحرزتها القوات الألمانية وهى تتراجع فى هولندا وبلجيكا قبل أن يطبق الروس من الشرق والحلفاء من الغرب على الرايخ ، فيترنح ثم ينهار فى النهاية التى كانت بدايتها معركة نورماندى . .

القسم الأول

الفصل الأول

الأسد . . . والرجل

الأسد ... والرجل

منذ ما يزيد عن مائة عام بقليل ، وعلى وجه التحديد فى اليوم الثلاثين من شهر نوفمبر عام ١٨٧٤ -- ولد فى (بلينهايم بالاس) طفل أطلقوا عليه اسم ونستون تشرتشل ، هو نفسه ذلك الذى سيصبح فيما بعد واحداً من أبرز الرجال الذين صنعوا العظمة البريطانية .

وحياة هذا الرجل تلخص جانباً من التاريخ البريطانى ، وشخصيته تمثل العزيمة والإصرار وروح تحدى الخطر ، وهى صفات وضحت أشد مايكون الوضوح عندما تصدى للنازية المنتصرة ، وألب عليها كل القوى التى استطاع الاستعانة بها ، حتى هزمها وانتصر عليها .

وإذا أجمع المؤرخون فى العصر الحديث على أن ونستون تشرتشل هو الذى كان المحرك الأول لخلاص أوربا من الاحتلال النازى ، فعادت إليها حريتها وكرامتها -- فإننا نبدأ قصة هبوط قوات الحلفاء فى نورماندى الذى كان الانطلاقة الحقيقية فى معارك تحرير أوربا بإلقاء بعض الأضواء على هذه الشخصية الفذة .

* * *

الزمان هو الساعة العاشرة من مساء اليوم الثامن عشر من شهر فبراير عام ١٩٠١ . والمكان هو قصر وستمنستر ، وعلى وجه التحديد فى تلك القاعة المستطيلة التى شيدت على الطراز القوطى ، حيث تعقد اجتماعات مجلس العموم البريطانى .

وفى صدر هذه القاعة – بدا هيكل رئيس المجلس بشعر رأسه المستعار غارقاً فى ظلال تعكسها عليه القبة التى تعلو مقعد الرئاسة الوثير، وإلى الأمام المائدة المخصصة لرجال الدين تبرق فوقها كتلة من الفضة المذهبة، رمزاً للنظام الملكى.

وعلى الناحيتين اليمنى واليسرى – تواجهت صفوف من المقاعد التى كسيت بالجلد الأخضر، خصصت الصفوف اليمنى منها للأغلبية المشكلة من حزب المحافظين، واليسرى للمعارضة المكونة من أعضاء حزب الأحرار ومن الآيرلنديين.

وفوق هذه المقاعد جلس النواب أو انضعجوا. وقد وضعوا أيديهم فى جيوبهم، والقبعات العالية مائلة على جباههم.

وفى الصف الأول جلس عدد من الوزراء وقد كادوا يتمددون فى أماكنهم، وبسط بعضهم سيقانهم، وأسندوا أقدامهم على مائدة رجال الدين

هذا هو المشهد التقليدى الذى يتبع منذ ردحة طويلة من الزمن، والذى يحترمه الجميع، ويخيم عليه مثل الجو الذى يسود مجالس إدارات الشركات، وفيه تجرى المناقشات التى تتقرر فيها مصاير الإمبراطورية البريطانية.

وفى ذلك المساء وردت إلى المجلس مذكرة تحمل أنباء تدعو إلى الاكتئاب جاء بها عدد أربطة العنق السوداء، والأشرطة السوداء حول الأذرع. أو الأوشحة حول الأعناق.

والواقع أن بريطانيا كانت تعيش فى جو من الحداد: فمنذ ثمانية وعشرين يوما مضت توفيت الملكة فيكتوريا، بعد أن تربعت على العرش فترة استمرت أربعةً وستين عاما. غير أن حكومة «صاحبة الجلالة» يجب أن تشعر بالطمأنينة، ومن هنا فإنه يتعين تطبيق الشعار الذى يقول: ماتت الملكة.. عاش الملك.

وهكذا اعترف المجلس الخاص رسمياً بألبرت إدوارد ، أمير ويلز ، ملكاً باسم إدوارد السابع ، وبعد ذلك سار فى العاصمة جنود معهم عدد من المنادين . فيتوقف الجميع فى تقاطع الطرق ، ليعلنوا على الملأ ارتقاءه العرش ؛ ثم جاء الملك الجديد ؛ ليفتتح جلسات البرلمان الذى جرى انتخابه فى آخر العام الماضى ، واعتلى المنصة الكبرى ، وألقى خطاب العرش .

وبهذا الأسلوب – استأنفت هذه الآلة الدستورية الكبرى عملها ، وراحت تعقد جلستها المسائية فى مجلس العموم الذى دُعى أعضاؤه ؛ ليناقشوا عبارات « الاحترام والخضوع » التى سيتكون منها الرد على ذلك الخطاب .

ولكيلا يحدث أدنى خطأ فى اختيار أى كلمة – كان لابد من إجراء نقاش سياسى ، وهو النقاش الذى اعتاد النواب أن ينتهزوا الفرصة فيه دائماً : إما ليوجهوا النقد إلى الحكومة ، وإما ليعرضوا وجهات نظرهم بالنسبة لموضوعات الساعة .

* * *

وحول حرب البوير الفاشلة والباهظة التكاليف جرى النقاش الذى افتتح بمناسبة الرد على خطاب العرش ، فراح عدد كبير من خطباء حزب الأحرار يهاجمون بقسوة حكومة حزب المحافظين ويتهمونها بالعجز ، وقد استرعى الأنظار من بينهم رجلٌ أسمر قادم من إقليم ويلز ، يدعى لويد جورج ؛ للعنف المرير الذى اتسمت به كلماته .

عند ذلك طلب نائب شاب يجلس فى مقاعد الأغلبية – أن يسمح له بالكلمة ، كان شاباً أحمر شعر الرأس ، حليق الوجه كأنه وجه دمية ، تحيط به ياقة ضخمة ، له قامة متوسطة بدت ضخمة فى ذلك « الردنجوت » الذى ارتداه ، ربما من جراء قلاباته الطويلة المصنوعة من الحرير . ولما نهض واقفاً

سرت فى القاعة همهمة فضول وحب استطلاع .

وفى إحدى المقصورات سألت زائرة قادمة من الريف عمن يكون هذا الشاب ؟ فأجابها جارها المطلع على مجريات الأمور : « إنه نائب جديد فى المجلس ، وهو يلقى اليوم أول خطاب له . وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، لكن الكتب التى ألفها وخاصة مغامراته فى الحرب قد أضفت عليه شيئاً من الشهرة . إنه حفيد أحد الدوقات ، وابن وزير مالية سابق ، ويدعونه ونستون تشرتشل » .

لم يكن أحد فى الأوساط البرلمانية فى ذلك الوقت على الأقل فى حزب المحافظين – يعرف إلا القليل عن الآخرين ، فكان الخطاب الأول الذى يلقيه العضو الجديد حدثاً هاماً ، فمن هذا الخطاب يأخذون فكرة عن الأسلوب الذى سيتصرف به هذا النائب أو ذاك ، ويقدر نجاحه أو فشله تبعاً لما يناله من التصفيق . ولذلك فإن خصوم الحزب الذى ينتمى إليه القادم الجديد يتربصون له ، ويحصون عليه أخطاءه ، على حين يجلس أصدقاؤه وأفراد أسرته فى مقصورات المجلس ينتظرون النتيجة فى قلق .

وعندما راح خطيب هذا المساء يلقى كلماته الأولى تبدى فيها شىء من العصبية ، فخرجت متلعثمة ، غير أنه سرعان ما تمالك ، وفى سهولة ويسر أخذ يلقى عبارات متوازنة مترابطة فى خطاب مرتجل استند على ذاكرة قوية وقدرة على التنسيق ، كان قد حفظه قبل ذلك عن ظهر قلب . كانت الفكرة الرئيسية فى الخطاب – أن على بريطانيا العظمى أن تستخدم كل إمكاناتها ؛ لكى تنهى على وجه السرعة وبنتيجة مظفرة حربها فى (جنوب أفريقيا) ولكن عليها بعد ذلك أن تتفاوض بكرامة وشرف وأعداؤها الذين يستحقون الاحترام !

فلما اختتم خطابه – علت فى القاعة عبارات الاستحسان ، وانطلق التصفيق حتى من مقاعد المعارضة .

وقد لايكون النجاح الذى أحرزه هذا النائب الشاب مماثلاً لما حققه منذ مائه وعشرين عاماً مضت أول خطاب يلقيه وليام بيت ، ومن ثمَّ فإن أحداً لم يتصور فى تلك الليلة أن ونستون تشرتشل سوف يبنى مجداً كالذى بناه وليام بيت ، ومع ذلك فإن الجميع قد اعترفوا بأنه قد نجح فى هذه الجولة .

ومنذ ذلك اليوم ، وونستون تشرتشل برلمانى ثابت القدم ، وقد ظل يجلس فى مجلس العموم خمسة وخمسين عاماً بعد ذلك بغير أن يتغيب عنه إلا عامين اثنين !

* * *

إن صورة ونستون تشرتشل بارزة وخارقة للعادة ، ومن الممكن بالتأكيد ألا يحظى بالحب ، لكن من المستحيل إلا أن ينال الإعجاب .

وأول مايتبدى فى هذا السياسى اللامع – أنه حيوان شرس لايمكن السيطرة عليه ، وأن الحيوية التى يمتع بها لاحد لها ! وهو رجل لاصبر له على الخلود إلى الراحة ، ويشعر دائماً بأنه فى حاجة إلى الحركة ، ولايستطيع أن يتنفس جيداً إلا فى العمل ، وكان لا يتجلى إلا إذا كان يخوض معركة ، سواء كانت معركة سياسية أو حربية .

وليس ذلك ؛ لأنه كان من النوع الذى يوصف بالعدوانى ؛ فقد كان من الحصافة بحيث لايفوته أن أى حرب حديثة لايمكن إلا أن تنشر الخراب والدمار ، للمنهزم والمنتصر على السواء !

غير أن ماكانت حصافته ترفضه – كان مزاجه يميل إليه : فقليلاً ماكان يشعر بالسعادة مثلما يشعر بها عندما يشم رائحة البارود ، سواء عندما كان ضابطاً

صغيراً برتبة الملازم ، أو عندما شاءت الأقدار أن توليه زمام الأمور فى تلك الإمبراطورية الواسعة . وهذه الروح القتالية لم تكن تستبعد فيه حب العلم ، ولا البراعة فى التصرف ، بل ولا الكرم فى العطاء !

ولقد ثبت أن تشرتشل واحد من أوائل الإستراتيجيين فى عصره ؛ إذ كان يفضل المناورة والالتفاف على الهجوم المباشر ، ويميل إلى الحرص على الدماء من أن تسفك كلما كان ذلك ممكناً .

ومن ناحية أخرى – فبرغم أنه لم يكن يوافق قط على إنهاء القتال قبل أن يسقط خصمه على الأرض ، وهو مايقول به القائد العسكرى وليس السياسى – فإنه كثيراً مايبدى الاستعداد لمد يده إلى هذا الخصم ؛ لكى ينهض من سقطته !

لكن الحرب بالنسبة له ظلت أجمل شىء فى الوجود ، وأكثر الرياضات صعوبة ومدعاة لإثارة الأعصاب ، بل وأكثر جمالاً إذا هى قورنت بصعوبة وإثارة اللعبة فى البرلمان ، ولذلك كان للحرب عنده مذاق خاص ، هو مذاق الفنان !

* * *

بيد أن الجانب الفنى فيه لايقل وضوحاً عن شعوره بجمال الحرب وليست مجموعات الصور التى التقطها تشرتشل برغم قيمتها – هى التى تبرز الناحية الفنية لديه ، وليست هى كذلك خطبه أو كتبه التى يتضح فيها أسلوب متأنق يبدو فيه التكلف فى بعض الأحيان ، ولكنه عامر بكل جديد من التعبيرات ؛ وإنما هذا الجانب يتبدى فى السلوك العام للشخصية ذاتها ، وموقفها الفكه تجاه الحياة .

وفنية كذلك المتعة التى يشعر بها عندما يجعل من نفسه شخصاً يسترعى إليه الأنظار بارتدائه للثياب العسكرية ، أو بأن ينفث من سيجاره الضخم طبقات كثيفة من الدخان . وتتسم بالفن طريقته فى ابتداع الحركات الرمزية ، أو التأثير

فى مستمعيه إذ ينتقل بهم من حديث ثائر إلى حديث ودى !

ويتضح الجانب الفنى فيه أيضاً فى مزاجه المتقلب ، والسلوك الطفولى فيه . وحاجته الدائمة إلى مالا يضايقه ، ومن ثم مالا يجعله يضايق الآخرين ، حتى بنظرته الفلسفية للحياة التى حملته يوماً على أن يقول : إننى على استعداد لأخذ كل مايمكن الأرض أن تخرجه !

ولأن هذا الجانب الفنى لايختلف كثيرا ونزعة الممثل فيه — فإن الناحيتين قد اختلطتا معاً ، ولكن كم من عظماء الرجال لم يتعرضوا للوم ، لأنهم لم يبرعوا فى التمثيل ؟ يكفى أن نذكر فى هذا الصدد نابليون . وشاتوبريان . وفيكتور هوجو ، غير أن المهم هو أن تحت قناع التمثيل وجها صادق التعبير له ملامح جلية واضحة .

ومن المقطوع به أن الملامح الجلية الواضحة كانت مسيطرة على وجه ونستون تشرتشل ، ولو أن إلى جانبها نواحى أخرى فيه تبدو غامضة ! ومن ذلك الاتجاه السياسى لديه الذى لم يكن يتسم بهذه الصراحة وهذا الوضوح .

وليس هناك من شك فى أن تشرتشل كانت له رؤى صادقة كثيرة خلال فترة عمله الطويلة ، إلا أنه قد وقع كذلك فى بعض الأخطاء الجسيمة التى قد تعود إلى ذاتية التفكير والقرار : فهو كثير التأمل لذاته والإعجاب بها ، لوثوقه من تفوقه العقلى ، وطاقة الحيوية التى يتميز بها ، الأمر الذى جعله قليل الإصغاء إلى الآخرين ، ومن ثم لا يتأمل الأمور جيداً .

أما موقفه من المشاركة الوجدانية الذى ليس فيه مايعارض طبيعة الإنسان فقد كان أقل من ذلك وضوحاً ، لقد كان لا يحسن التقاط المشاعر ويستخدم فى بعض الأحيان حذقه وبراعته فى غير موقعها ، وينغمس أكثر فى خياله المحتدم عما يعيش فى واقع العالم الخارجى ، ذلك العالم الذى ثأر لنفسه من لا مبالاته

به ، فأصابه بالكثير من خيبات الأمل !

لكن هذه اللامبالاة لم تكن عامة لديه : فهناك على الأقل قطاع من العالم تعلق به تشرتشل بانفعال منقطع النظير ، وهذا القطاع هو إنجلترا ، أو بالأحرى الإمبراطورية البريطانية : ذلك أن كل اهتمامه كان موجهاً إلى هذه الإمبراطورية التي أوقف عليها كل نشاطه العام ، هو سليل خط أرستقراطي كان مؤسسه رجلاً من أفضل العاملين على عظمة بريطانيا .

ولقد يكون تشرتشل قد أخطأ أحياناً في تقديره لهذا الاهتمام ، ولكنه لم يتوقف قط عن أن يشعر إزاءه بقلق خاص .

* * *

إن الفكرة التي كانت لديه عن بريطانيا ، واستغراقه فيها – كانت تتمثل في بضع كلمات لها وقع مقدس ، مثل : الجلالة ، والقوة ، والمجد ، والحكم والسيطرة ، وغير ذلك من الألفاظ التي كان يلجأ إليها تعبيراً عنها ، ويغلفها برقة لامزيد عليها ، كأن يقول : « بريطانيا . . إنها تلك الحلية الراقدة في البحر ، وهي مراعينا الخضراء ، وتلالنا وشطآننا ، وجزيرتنا الحبيبة »

هنا يتركز شعور الحب عند تشرتشل الذي لامكان لأي امرأة في حياته فيما عدا امرأته ؛ أما خليلته ومعشوقته الحقُّ ، فإنها بريطانيا !

ونسوق في هذا المجال لمحة سريعة قد يكون فيها الرد على سؤال طالما طرحه الفرنسيون ، وخاصة عندما كانت بلادهم هي الحليف الوحيد لبريطانيا خلال الأعوام الأولى من الحرب العالمية الثانية ، وهو : هل كان تشرتشل يحب فرنسا ؟

لقد كان من المؤكد أنه يحب الأنبذة الفرنسية ، وكان يعشق الشمس المشرقة عند « الساحل الأزرق » الفرنسي ، والأجواء الصافية في إقليم الباسك

الفرنسى ، وكان يعلن أنه صديق لفرنسا ! ولكن فرنسا هذه لم تكن بالنسبة له من الناحية السياسية إلا وسيلة وأداة ! وإذا كان يأسف لما يعتريها من ضعف فإن ذلك ليس إلا لأن فرنسا القوية – تبدو فى نظره بمثابة الدرع التى لاغنى عنها لبريطانيا .

على أن تشرتشل لم يكن بالرجل الإنجليزى النموذجى الصرف ، إذ لم تكن تتبدى فيه كل مزاياه وكل عيوبه . ولو أننا أوردنا قائمة برؤساء الوزراء البريطانيين لوضعناه فى فئة الدخلاء على هذا المنصب ، إلى جانب كل من دزرائيلى اليهودى وبالمرستون الآيرلندى ، ولويد جورج الذى جاء من إقليم ويلز . . . وليس فى فئة الإنجليز الأصلاء ، مثل وليام بيت ، وجلادستون ، وبالدوين ، وتشمبرلين ، وآتلى ، وإيدن ،

ذلك أنه يجب ألاننسى أن نصف الدماء التى تجرى فى عروقه دماء أمريكية ، وهى دماء فيها بضع نقط من أصل غريب الأطوار . وهنا نعثر على مفتاح بعض الملامح فى طباعه ، والكثير من اندفاعاته ، وكذلك مفتاح ما كان بمثابة خطته السياسية الكبرى ، ألا وهى قيام الوحدة بين الدولتين الإنجلو ساكونيتين الكبريين اللتين كان يعتقد أنهما لو اجتمعا معاً بكل مالديهما من قوة وحكمة – لسيطرتا على بقية العالم ، أو على الأقل على العالم الغربى !

ولاشك لدينا على الإطلاق فى أن فشله النسبى فى تحقيق هذه الخطة ، ثم التفتت الذى أصاب الإمبراطورية البريطانية – هما اللذان كانا بالنسبة لتشرتشل القطرة المرة التى انزلقت إلى كأس المجد الذى صنعه ، فأحالت الشراب الذى يملؤه فى مراره العلقم !

ولئن كانت الولايات المتحدة ترى أنها أصبحت ، ليس فقط فى عام ١٩٤٥ وإنما منذ عام ١٩١٨ – هى أكبر من صنع النصر ، أو إذا هى اتخذت

قرارات رئيسية بغير أن تتشاور مسبقا وبريطانيا ، أو إذا جعلت من نفسها حكماً بين الحكومة البريطانية وبين الآخرين ، أو حتى إذا كانت من حيث الواقع قد احتلت مكاناً فى مصاف الدول الكبرى يسبق مكان بريطانيا — إن ونستون تشرتشل الذى تجرى فى عروقه دماء نصفها أمريكى لم يسلم بذلك قط تماماً كما لم يسلم بقيام جمهورية آيرلندا ، أو باستقلال الهند .

ولقد يكون ذلك منه بمثابة الحنين الطاغى إلى الماضى يشعر به رجل عجوز إلا أنه ينطوى على نوع خاص من الجمال يدفع إليه حب العظمة والمجد ؛ فإن ما يضفى على سيرة الرجل العظيم شرفاً — أن تكون بلاده فى قمة ازدهارها .

* * *

ولقد أكمل ونستون تشرتشل فى عام ١٩٥٤ الثمانين من عمره ، ومع ذلك كان غريباً أنه لم تظهر عليه يومها أى من علامات التعب والإرهاق برغم ما كان معروفاً من أن أطباءه كانوا يلحون عليه لكى يخلد إلى الراحة .

ومن ناحية أخرى — كانت الأغلبية الحكومية ضعيفة فى مجلس العموم ، وكان لحزب المحافظين مصلحة ، استغلالاً للتحسن الذى ربما كان مؤقتاً فى الوضع الاقتصادى ، للعمل على إجراء انتخابات جديدة ، قد يخرج منها أقوى مما هو عليه الآن . ولكن السؤال كان هو الآتى : أفما زالت لدى السير ونستون تشرتشل القدرة اللازمة لتزعم هذه المعركة ؟

كان ذلك أمراً مشكوكاً فيه ، ومن الأفضل له أن يتصرف بحكمة ، وينتهز فرصة التمجيد الذى يعد من أجل نزوله عن زعامة الحزب ، على حين أنه فى أوج عظمته ؛ وكان هذا التمجيد بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده الثمانين الذى يحل يوم الثلاثين من نوفمبر ، ويصادف افتتاح الدورة الجديدة للبرلمان .

وفى الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم — اتخذت الترتيبات لإقامة

الحفل التقليدى الذى يحضره كبار رجال الدولة ، وقد وضعوا على صدورهم الأوسمة الملكية . ثم تجىء الملكة إليزابث الثانية والتاج على رأسها ، فتدلف إلى القاعة مستندة إلى ذراع الدوق أدنبرة .

وعندما اتخذت مجلسها فوق العرش – استدعى الرئيس أعضاء مجلس العموم الذين تجمعوا وقوفاً فى آخر القاعة على حين جلس الرئيس وإلى يمينه تشرتشل ، وإلى يساره آتلى زعيم المعارضة .

وركع الرئيس وهو يناول الملكة نص خطاب العرش الذى وافق مجلس الوزراء على فقراته ، فراحت تقرؤه برصانة ، ثم أعادته إلى الرئيس ، ونهضت خارجة بالطريقة التى دخلت بها نفسها ، وأصبح فى الإمكان أن يبدأ البرلمان أعماله .

ولقد جرت العادة على أن ينعقد البرلمان فى فترة الصباح ، إلاأنه فى هذه المرة ماكاد الموكب الملكى يتوارى ؛حتى أسرع النواب قاصدين إلى قاعة وستمنستر الفسيحة ، وهى (الوحيدة) التى بقيت من القصر الذى شيد فى العصور الوسطى ، وكان مسرحاً لكثير من الأحداث .

كان جميع البرلمانيين هناك ، بما فيهم العمال المتطرفون ، وفى مقدمتهم بيفان ، وذلك عندما دخل سيرونستون مستنداً إلى ذراع زوجته وقد أرتدى ردنجوتاً ذا قلابات من الحرير ، وصنع على الطراز الفيكتورى .

وجلس تشرتشل إلى جانب رئيس مجلس العموم الذى قال : إنه ليس من التقاليد أن يحتفل بمثل هذه الأبهة بعيد ميلاد أحد الوزراء ، ولكن لنا العذر أن نفعل ذلك إذا كان الأمر يتعلق برجل يمكن أن يقارن بأكبر عظماء الماضى !

وتقدم آتلى ، فأعرب فى عدة عبارات عن تهنئة المعارضة وتمنياتها الطيبة ، وبعد ذلك انفرجت ستارتان من القماش الأزرق ؛ لتظهر من خلفها لوحة

ضخمة تمثل تشرتشل أعلن رئيس مجلس العموم أنها هدية يقدمها البرلمان البريطانى إلى رجل الدولة الكبير.

وفى صوت يغلب عليه التأثر – نهض البطل ليقول عبارة شكر :

« إن هذا اليوم هو أجمل أيام حياتى . . لقد قال البعض خلال الحرب : إننى كنت الرجل الذى بعث الروح إلى هذه الأمة ، وليس ذلك صحيحاً تماماً ، فلقد كانت الأمة عاقدة عزمها ، فخورا بنفسها ، لاشىء يهزها ولا يزعزعها . كل ما هناك أنى قد عثرت على الكلمات التى تعبر عن إرادتها ! لقد كنتم أنتم الأسود الحقيقية ، أما أنا فقد اكتفيت بالزئير ! »

* * *

وعندما عاد إلى رقم ١٠ داوننج ستريت – وجد فى انتظار حمولة سيارتى نقل من الزهور ، وستمائة هدية ، وخمسة وعشرين ألف برقية ، وشيكاً بمبلغ مائة وخمسين ألف جنيه إسترليني ، هو مجموع الاكتتاب الذى نظم قبل أسبوع فى طول البلاد وعرضها ، فقال : « إننى أريد أن تستخدم هذه النقود لتحويل منزلى فى (شارتويل) ، إلى أجمل متحف فى المملكة المتحدة ! » .

فهل كان هذا اليوم المجيد آخر عهد تشرتشل بالعمل السياسى ؟ كلا ، لأنه فى ذلك المساء نفسه ، وبينما كان يتأمل الصورة التى أهديت إليه – راح يقول لأنتونى إيدن : « إن هذه الصورة تبدو لرجل قد أحيل إلى المعاش ، وسترون أنها لا تشبهنى على الإطلاق ! »

ولا شك أن إيدن قد شعر ساعتئذ بشىء من خيبة الأمل شاركه فيها كثيرون من شباب النواب المحافظين الذين كانوا يتشككون فى أن هذا الرجل الذى بلغ الثمانين – يمكن أن يقودهم إلى انتصار انتخابى .

واستقر الرأى فى الدوائر البرلمانية على رأى لم يلبث أن ازداد وضوحاً ، هو

أنه ينبغى على (وينى العجوز) أن يستريح !

أما هو فظل متردداً عدة أشهر استمر خلالها يذهب فى إصرار إلى مجلس العموم ، ويلقى فيه الكثير من الكلمات ، لكن قواه بدأت لاتسعفه ، ولم يعد يستطيع أن يعمل سوى ثلاث أو أربع ساعات فى اليوم ، وكان يغفو فترات طويلة خلال اجتماعات مجلس الوزراء !

وفى أوائل شهر مارس ١٩٥٥ نشرت صحيفة « يوركشاير بوست » التى تصدر فى الريف – أن رئيس الوزراء قرر الانسحاب ، وأنه ينوى أن يقيم يوم الرابع من أبريل عشاء وداع تحضره الملكة ، وسرعان مانقلت جميع الصحف عنها هذا النبأ المثير .

ولم يؤيده تشرتشل ولم يكذبه ، بل إنه اكتفى عندما سأله أحد أعضاء حزب العمال عنه بأن قال : « إن النائب المحترم يتعين عليه ألا يتأثر بثرثرة الصحف ! »

وبعد بضعة أيام توقفت هذه الثرثرة ، ولم يكن ذلك تلقائيًّا ، وإنما نتيجة لإضراب قام به عمال الطباعة استمر عدة أسابيع ، وحَرَمَ بريطانيا الصحف .

غير أن النبأ الذى نشرته صحيفة (يوركشاير بوست) كان صحيحاً : ففى اليوم الرابع من أبريل –أقام تشرتشل حفل عشاء تكريماً لصاحبة الجلالة الملكة ودوق أدنبرة ، حضره معها ثمانية وأربعون مدعوًّا ، من بينهم أعضاء أسرته ، وكبار رجال البرلمان ابتداء من إيدن إلى آتلى مروراً بساليسبورى وموريسون .

وعندما جاء دور تقديم أطباق الحلوى – ردت الملكة على النخب الذى شربه ونستون فى صحتها – ببضع كلمات مبهمة ! ولم يُلمح أحد بشىء عن الحدث المرتقب ، ولكن جميع المدعوين كانوا يشعرون كأنهم يحضرون حفلاً جنائزيًّا !

وفى اليوم التالى – ظل الجمهور البريطانى لا يعرف شيئاً نتيجة لاحتجاب

الصحف . فلما كانت الساعة الخامسة مساء إذا بالإذاعة البريطانية تقطع برنامج الموسيقى الخفيفة التى كانت تبثه . لتذيع البيان التالى :

« استقبلت جلالة الملكة بعد ظهر اليوم السير ونستون تشرتشل فى اجتماع خاص . حيث قدم إليها استقالته كرئيس للوزراء . وقد تفضلت جلالتها بقبولها » .

وبينما كان النبأ ينتقل عبر الأثير إلى أرجاء العالم - كان الزعيم الكبير يقضى مع أسرته آخر ليلة له فى مقر رئاسة الوزراء ، فلما كان الصباح التالى - قصد انتونى إيدن إلى قصر باكنجهام ، حيث أدخلوه إلى الملكة إليزابث ، فقبل يديها الملكيتين بوصفه رئيس الوزراء الجديد .

وبعد ذلك ببضع ساعات بدأت جلسة مجلس العموم ، وكان المقعد الذى اعتاد أن يحتله تشرتشل شاغراً ، وتليت الصلاة المعتادة ، وعرضت المسائل الروتينية ، ثم نهض آتلى فألقى بعض الكلمات أشاد فيها برئيس الوزراء المستقيل ؛ ووصفه بأنه « آخر وريث للعصر الفيكتورى » .

وانتقل المجلس إلى جدول الأعمال ، لكن المناقشة فيه جرت بدون اهتمام ؛ إذ كان جميع النواب لايصدقون أنهم لن يروا تشرتشل بعد ذلك جالساً فى مكانه فى الصف الأول .

وفى هذه الفترة كان هو يودع صغار الموظفين فى ١٠ شارع داوننج ستريت ، حتى إذا كانت الساعة تشرف على السادسة مساء - صعد هو وزوجته إلى السيارة الرولز رويس الفسيحة التى اشتراها مؤخراً الواقفة عند الباب ، ووضع على ركبتيه غطاء من الصوف الملون ، وإلى جانبه القفص المذهب الذى يحتفظ فيه بالببغاء (تولى) ، وأشعل سيجاراً ضخماً ، ورد على هتافات الجمهور الذى احتشد لتحيته بعلامة النصر ، ثم قال للسائق : « إلى شارتويل » .

وانطلقت السيارة ، ثم غابت وسط الظلام ، غير أن الجمهور ظل فى مكانه لايريد أن ينصرف على حين راح البعض يهتف قائلاً : مع السلامة ياوينى .

* * *

كان الستار قد هبط ، واستطاع تشرتشل الممثل حتى أطراف أصابعه أن يؤدى مشهد خروجه بنجاح .

وبينما أضواء الرولز رويس القوية تخترق ظلام الليل ، وتمضى فى صمت فى طريقها إلى (شارتويل) — كان شريط طويل يمر بذاكرته ، وهو شريط لن يتخيل أى مخرج ما يضارعه تأثيراً وانفعالاً :

فى الفصل الأول — رأى طفولته المبكرة فى أضواء (بلنهايم) ، ووالده بشاربه الكث ، ووالدته بجمالها الأمريكى ، ومدرسة هارو القابعة وسط الأعشاب الخضراء ، والثوب العسكرى القرمزى لطلبة ساند هورست ، والمجتمع الأرستقراطى فى قمته وأبهته ، وقوام الملكة فيكتوريا الممشوق ، ومباريات البولو فى الهند ، وجولاته على ظهر الجياد فى صحراء السودان ، وفراره من سجن البوير ، وبداية شهرته ككاتب .

وهاهى ذى الآن الاجتماعات العامة الأولى ، ودخوله البرلمان وإلقاء خطابه الأول ، ولويدجورج بما يحيط به من سحر ، وزواجه السعيد ، والمسئوليات الوزارية ، وحملته على اللوردات ، والبحرية ، والحرب العالمية الأولى ، وأنفرس والدردنيل وما جرى فيهما ، والخنادق ، ووزارة الذخائر ، وصعاب مابعد الحرب ، وبريطانيا وهى تغير وجهها ، وفشله فى الانتخابات ، وعمله كرسام ، والمجد الأدبى الذى أحرزه .

ثم فصل آخر : دخوله الحياة السياسية ، ووزارة المالية ، والمشاكل

الاقتصادية التى واجهها ، ومسيرات المتعطلين عن العمل ، والإضراب العام ، والعزلة بين الأحزاب ، وصعود النازية التى ندد بها دون جدوى ، وأزمة الحبشة ، ونزول إدوارد الثامن عن العرش ، وظل هتلر يخيم على أوربا ، ونيفيل تشمبرلين وأوهامه ، وبريطانيا وهى تستيقظ ، والحرب من جديد ، ثم النصر.

وتجيء سنوات البطولة : الفشل فى النرويج ، وكارثة انهيار فرنسا ، وتحطم الدرع الفرنسية ، وبريطانيا المنعزلة ، والدم والعرق والدموع ، ومعركة لندن ، والجزيرة البريطانية المحبوبة التى لن يغزوها أحد ، ولندن تحت القنابل ، وهتلر يجرب حظه فى برارى روسيا ، وأمريكا تدخل المعمعة ، وروزفلت ، والعم جوزيف ستالين ، وديجول المتعب ، والمهانة العسكرية فى سنغافورة ، ونساء بريطانيا يسابقن الرجال فى الوطنية ، ثم هاهو ذا الأمل يغير موقعه ، والانتصارات فى أفريقيا وإيطاليا ، وهبوط قوات الحلفاء فى فرنسا ، والزحف على وادى الراين ، وأوربا وهى تحترق ، وهزيمة ألمانيا.

وهاهى ذى الأوقات الصعبة : الولايات المتحدة تنظر إلى بريطانيا على أنها دولة من الدرجة الثانية ، هل زال الخطر الألمانى ليحل محله الخطر السوفيتى ؟ وأخيراً عقوق الشعب الإنجليزى ، وفريق آتلى الذى يبعث على الضيق ، وتفكك أوصال الإمبراطورية ، والقتال على رأس المعارضة.

ثم الفصل الأخير : العودة إلى السلطة ، والاتهام البغيض بأنه رجل حرب ، وتولى إليزابث الثانية العرش ، وحفلات التتويج ، والعمل الرائع فى داخل البلاد ، وتراجع بريطانيا من الخارج ، وتخليها عن دور القيادة . وهاهى ذى أمريكا يركبها الغرور : فهل يمكن الاعتماد على فرنسا ؟ وهل يمكن إجراء محادثات مع الروس ؟ وهل يستطيع إيدن الذى حل محله فى الحكم أن يملأ مكان رئيس الوزراء ؟

وتوقفت السيارة الرولز رويس أمام حديقة شارتويل مينور ، فخرج تشرتشل من أحلامه . وفى خطوات متثاقلة دلف إلى البيت . .

* * *

لقد كان فى تخلى ونستون تشرتشل عن توجيه دفة الحكم – نهاية للوجود النشيط لذلك الرجل الذى كان خلال هذا الزمن الطويل هو النشاط بعينه .

لكنه ظل قويا ، لاتزال له شهية جيدة ، ويكثر من الشراب برغم نصائح الأطباء ، ويشعل بين الحين والآخر سيجاره العتيد الذى لايفتأ يلوكه فى فمه ؛ ولو أنه فقد الكثير من مرحه وحيويته ، وأصبحت نظرته الوضيئة يغشاها نوع من الإعتام مع الكثير من الخلود إلى الصمت ، ويعتريه شىء من الفتور .

وبغير أن يتوقف اهتمامه بالشئون العامة راح ينظر إليها من علياء .

على أنه لم يهجر مجلس العموم ، وبعد أن أعيد انتخابه بجدارة فى الانتخابات التى جرت فى ربيع عام ١٩٥٥ أخذ يذهب إليه ويجلس فى الصف المجاور للصف المخصص للوزراء ، فيحييه المجلس طويلاً ؛ لكنه لم يعد يطلب الكلمة ؛ كما أنه احتفظ بخطبه العامة القليلة لناخبيه فى دائرة (وودفورد) .

ومع ذلك – فإن زوجته الذكية الوديعة والوفية (كليمنتين) – كانت تعرف تماماً أن هذا النمط من الحياة عسير عليه ، وربما كان يقتله ، ويحز فى قلبه أن يرى نفسه وقد حيل بينه وبين الحياة العامة .

وهكذا فإنها افتنت فى دعوة الوزراء ، ورجال البرلمان ، والدبلوماسيين الأجانب ، ورجال الصحافة ، وفى أن توصيهم سرًّا بأن يعرضوا بعض أفكارهم على الأسد العجوز ، ويطلبوا مشورته .

ويجيب هو عن طيب خاطر : فى عنف أحياناً ، وفى دماثة أحياناً أخرى ، فإذا زمجرت العاصفة سارعت كليمنتين بتهدئة الموقف بكلمة لطيفة ، وعند ذلك

تعود إلى شفتى زوجها ابتسامة الملاك التى اشتهر بها .

هذه اللقاءات كانت تجرى فى العادة فى بيت لندن الذى اشتراه وبنى عام ١٩٤٥ ، ولحبه فى البناء والتشييد - زاد عليه جناحاً . وهذا البيت بجوارحديقة (هايدبارك) ،وقد أقيم بالطوب الأحمر الذى أحاله الضباب والدخان إلى لون داكن ، وله وجهة واحدة طليت إطارات نوافذها بلون أبيض لامع ، تبدو من ورائها ستائر صنعت من نسيج قطنى مطبوع .

وباب هذا البيت له لون أسود زين بطارقتين مطليتين بالفضة ، ولوحة نحاسية تحمل رقم ٢٨ . وفى اختصار هو بيت لا أبهة فيه ، ولكنه صلب راسخ البنيان . له طابع قدم بريطانيا ، وفيه وجوه شبهٍ بذلك البيت الشهير الذى فى ١٠ داوننج ستريت المقر الرسمى لرئيس وزراء صاحب الجلالة البريطانية .

ولتشرتشل هناك - إلى جانب غرفته وغرفة زوجته - مكتبة وقاعة استقبال ، وغرفة للطعام . فضلاً عن عدة مكاتب يشغلها فريق من السكرتيرين الذين يعملون تحت توجيهه لوضع اللمسات الأخيرة فى كتاب [تاريخ الشعوب المتحدثة باللغة الإنجليزية] الذى خرج تباعاً فى أربعة مجلدات .

* * *

وبرغم ذلك - فإن ملاذه الحقيق فى مكان آخر ، هناك فى شارتويل حيث يقيم أكثر الأوقات

لم تعد قواه المتخاذلة تتيح له أن يشيد بيديه تلك الحواجز من الطوب على طول ممرات حديقته ، ولكنه استمر يقطع هذه الممرات بخطوات أثقلتها الأعوام ، ويمعن فى النظر فى حبٍّ إلى الأشجار التى غرسها على حين أنها ماضية فى النمو ؛ كما استمر يقدم بانتظام قطع الخبز إلى الأسماك الحمراء والبجع الأسود الذى يسبح فى بركته الصغيرة .

وقد ظل مفتوناً بذلك « الساحل الأزرق » الفرنسى فى الكوت دازور لما فيه من شمس وضياء ، وأصبح الآن يتردد عليه بين الفينة والأخرى ، حيث يستحم فى مياهه وهو عارى الجسد تماماً ، فيثير رعب المتنزهين الآخرين

ولحبه للشمس – فقد شوهد يحاول أن ينقل بعضاً من أشعتها على بعض (اللوحات) التى يرسمها ، ويقضى فى ذلك أوقاتاً طويلة تؤنس وحدته خلالها ببغاؤه التى أسماها (توبى)

وذات يوم اختفت توبى ، وبرغم عمليات البحث التى أمر بها محافظ المنطقة – لم يعثر لها على أثر ، وظل ونستون أسبوعاً كاملاً لا يكلم أحداً .

ولقد حدث أن هتف الرسام العالمى (بيكاسو) ذات يوم ، وهو يبدى إعجابه بلوحات تشرتشل قائلاً : إن هذا الإنجليزى ذا السيجار الضخم – فى إمكانه أن يكسب كثيراً ، إذا هو احترف الرسم » .

وقد أقامت له الأكاديمية البريطانية بالفعل معرضاً عام ١٩٥٩ ، غير أنه فى هذا الوقت كان قد تخلى نهائيًا عن الفرشاة ، كما أنه قد توقف عن الكتابة ، وهو الذى حصل على جائزة نوبل فى الآداب .

وفى يوم الجمعة ١٥ من يناير ١٩٦٥ أعلن نبأ هز الشعب البريطانى من أعماقه ، هو أن ونستون تشرتشل قد أصيب بجلطة فى المخ ، وأنه راح فى غيبوبة ، وأن وفاته أصبحت مسألة ساعات .

وفى صميم الليل – احتشد تحت الضباب وهبوط الجليد جمهور حزين ملأ حديقة هايد بارك . وعيونهم مركزة على البيت رقم ٢٨ يرقبون فى قلق دخول وخروج اللورد موران طبيبه المفضل . وبدأ الليل ينقضى ، والحشد مازال فى مكانه .

واستمر هذا الانتظار ثمانية أيام – كان تشرتشل خلالها غائبا عن الوعى ،

ولكن حيويته الفذة كانت لاتزال تبعث شيئاً من القوة فى جسده الواهن ، وتجعله يتشبث بالحياة .

فلما كان يوم الأحد ٢٤ من يناير ، وفى الساعات الأولى من ذلك الصباح ، بدا اللورد موران فى الباب ، وأعلن لرجال الصحافة أن المحترم السير ونستون تشرتشل قد لفظ آخر أنفاسه .

ولبست بريطانيا ثوب الحداد ؛ إذ إن آخر بطل فى تاريخها قد رحل عن الوجود ! .

الفصل الثانى

خريطة ... لحائط الأطلنطى

جاءت بداية عام ١٩٤٢ على حين أن الحرب العالمية الثانية دائرة على أعنف ماتكون الحروب ، والآفاق التى تلوح أمام الحلفاء الغربيين سوداء قاتمة !

فلقد كان الجيش الألمانى يقف بجحافله على أبواب موسكو ، وفى آسيا أصيبت بريطانيا بكارثة سنغافورة التى اعتاد ونستون تشرتشل أن يسميها بأكبر نكبة فى تاريخها الطويل : ذلك أن حاميتها التى كان تعدادها سبعين ألف جندى يرابطون فيما كان يسمى بجبل طارق الشرق الأقصى قد استسلمت دون قيد ولاشرط لليابانيين !

وفى ذلك الوقت نفسه تقريبا – كان سلاح الطيران اليابانى يغرق عدداً من السفن الحربية البريطانية ، من بينها (ريبالس) و (برنس أوف ويلز) ؛ كما كانت المدمرتان الألمانيتان (شارنهورست) و (نايزنآو) تدعمها البارجة الثقيلة (الأمير يوجين) تقتحم ممر كاليه البحرى تحت نيران بطاريات مدفعية دوفر .

وخسر الحلفاء كذلك معركة جزيرة كريت ، وبدا أن القائد الألمانى روميل يوشك أن يحقق النصر فى الصحراء الليبية ، وهو نصر كان سيفتح له الطريق المؤدى إلى القاهرة ، باعتبار ذلك مرحلة أولية فى خطة بعيدة المدى يقوم على تنفيذها الفيلق الأفريقى المشهور وصولاً إلى آبار البترول الروسية فى (باكو) ، وبعد ذلك الانطلاق إلى القوقاز للالتقاء بالجيش الألمانى الضخم الذى يحارب فيها .

ولكن عند هذا الحد وقع تحول حاسم فى مجرى الحرب ، وكان تحولاً فى غير

صالح ألمانيا الهتلرية : فمن ناحية توقف الجيش الألمانى أمام موسكو لا يستطيع تقدماً ؛ إذ أصدر هتلر أوامره بأنه يريد الاستيلاء على هذه المدينة سليمة . ومن ناحية أخرى فإن الولايات المتحدة الأمريكية دخلت الحرب فى أعقاب الهجوم اليابانى على بيرل هاربر .

غير أنه كان لا بد من مرور وقت طويل ؛ حتى يتضح أثر هذا الفشل أمام العاصمة السوفيتية ، وتظهر قيمة دخول أمريكا الحرب ، ولم يسجل الحلفاء فى بداية هذا العام أى نجاح فيما عدا غارة خاطفة قاموا بها على الساحل الفرنسى المطل على بحر المانش فى بقعة يقال لها (رأس إنتيفييه) .

* * *

وبينما كان القائد البحرى لويس مونتباتن يتهيأ لتولى قيادة حاملة الطائرات البريطانية (الوستريوس) التى أصيبت بأعطاب جسيمة فى جزيرة مالطة ، ثم أرسلت إلى مصانع بناء السفن فى نورفولك بولاية فيرجينيا لإصلاحها – إذا به يتلقى برقية من ونستون تشرتشل مؤرخة فى العاشر من أكتوبر ١٩٤١ جعلته يقصد على الفور إلى لندن للقيام بمهمة على أكبر جانب من الأهمية .

كانت هذه المهمة أن يخلف لورد (كيز) أميرال الأسطول البريطانى ، فى قيادة الجهاز الذى أطلقوا عليه اسم « العمليات المشتركة » ، والذى يرجع تاريخ إنشائه إلى الرابع من يونية ١٩٤٠ ، وهو اليوم الذى تمت فيه إعادة العناصر الأخيرة فى الحملة البريطانية التى تجمعت فى شواطئ دنكرك إلى أرض الوطن .

وفى ذلك اليوم نفسه راح ونستون تشرتشل يملى على الجنرال إيزمى مدير إدارة السكرتارية العسكرية بوزارة الحرب البريطانية الرسالة التالية :

« لكم يكون رائعاً – أن نجعل الألمان مضطرين للتساؤل : أين ستنزل بهم

الضربة القادمة بدلا من أن نجبر نحن على إحاطة هذه الجزيرة بجدار . ونضع فوقه سقفاً ! » .

وبعد ذلك بيومين – تلقى الجنرال إيزمى المذكرة الجديدة التالية : « إن علينا أن نضع فى رءوسنا – أن جميع موانى الساحل الآخر من القنال أراضٍ معادية ! وعلى ذلك يتعين الإعداد للقيام بعمليات ضد هذه الأراضى بالاستعانة بقوات خاصة مدربة لمحاصرة الفريسة ، وقادرة على نشر الرعب على طول هذا الساحل ؛ من أجل ذلك اعتمد على لجنة رؤساء أركان الحرب ؛ لكى يقترحوا الإجراءات الملائمة للقيام بهجوم جسور يتم بغير إمهال على الشاطئ الذى يحتله الألمان » .

وترتيباً على هذه الدفعة ، وبغير إضاعة أى وقت – جرى تشكيل « العمليات المشتركة » التى استمدت اسمها نتيجة لأن نشاطها كان سيتم تحت قيادة واحدة ، تجمع قوات برية وبحرية وجوية .

لقد أخذ الجنرال إيزمى – لدى قراءة هذه المذكرة – يفرك عينيه دهشة مما فيها : ذلك أن قوات الحملة البريطانية قد اضطرت أن تترك على شواطئ دنكرك دبابتها وعرباتها من كل نوع ، وأصبحت بريطانيا مجردة من أى عتاد ! إلى أنها لم تجد لديها فى هذا الوقت أكثر من أربعين مدفعاً رشاشاً صغيراً من طراز طومسون المعروفة باسم (تومى جن) ، على حين أن البحرية البريطانية لم تعد تمتلك أى قارب من قوارب الإنزال ! على أن ذلك لم يمنع تشرتشل من أن يشن منذ يوم ٢٣ من يونية غارة على السواحل الفرنسية المطلة على بحر المانش ، ولو أنها كانت عملية صغيرة .

وفى شهر يوليو ١٩٤٠ عين تشرتشل أميرال الأسطول روجركيز على رأس جهاز « العمليات المشتركة » ، وكان هذا الأميرال قد اكتسب قبل ذلك

بعشرين عاما – أى ٢٣ من أبريل ١٩١٨ – شهرة حربية ، وذلك عندما عطل العمل فى قنال (زيبروج) البحرى الذى كان الألمان يستخدمونه فى الحرب العالمية الأولى قاعدة لغواصاتهم . غير أن علاقاته برؤساء أركان الحرب الذين كانوا شديدى الحرص على صلاحياتهم – أخذت تتوتر إلى الحد الذى أصبح التعاون بينه وبينهم معها أمراً مستحيلاً ! ويوم سلم الأميرال هذه الرئاسة إلى القائد البحرى الشاب لويس مونتباتن ، قال مشيرا إلى أولئك الضباط : « إنهم أكثر من قابلت نذالة فى العالم ! » .

أما ونستون تشرتشل فقد قال لقائد العمليات المشتركة الجديد : « إننى أريدك أن تحول ساحل بريطانيا الجنوبى الذى هو اليوم قلعة دفاعية إلى قاعدة قوية للهجوم » . وكان ذلك يعنى باختصار أن تشرتشل كان يفكر منذ شهر أكتوبر ١٩٤١ فى القيام بهجوم شامل يحرر به أوربا المحتلة ، ويخلصها من النير النازى ، وقد أدرك مونتباتن ذلك جيدا .

وكانت أول غارة يقوم بها متفقة مع الوسائل البسيطة التى كانت تحت تصرفه : ففى غداة عيد الميلاد – انطلقت قوة مشتركة فى طريقها للهجوم على جزيرتى (فاجسوى) و (مالوى) اللتين إلى الجنوب من النرويج ، وعلى جزر (لوفوتن) التى شمالها . وقد دمرت من السفن مابلغ مجموع حمولتها خمسة عشر ألف طن ، فضلاً عن عدة مصانع لزيت السمك ، ومحطة لتوليد الكهربا ، وعدة مراكز للدفاع الساحلى ؛ كما قتلت مائة وخمسين ألمانيا ، وأسرت ثمانية وتسعين آخرين .

إنها نتيجة لا يستهان بها ترتب عليها أمر لم يكن متوقعا ، هو أن الغارة جعلت هتلر يشعر بالقلق إلى درجة حملته على تعبئة حامية خاصة للنرويج بلغ

قوامها ثلثمائة وسبعين ألف رجل ، وهى قوة كبيرة كان يمكن أن يستفيد بها فى أماكن أخرى .

* * *

كانت شبكة المقاومة الفرنسية المعروفة باسم أشقاء نوتردام قد أبلغت عن وجود منشآت غامضة أقامها الألمان فوق تل مرتفع يشرف على بحر المانش ، على بعد حوالى كيلو مترين جنوب رأس (أنيتفييه) لم يستطع أحد من أعضائها تحديد طبيعته ، إذ كانت محطة للرادار ، وهى طريقة جديدة لتحديد مواقع الطائرات والسفن ، كانت لا تزال مجهولة بالنسبة لهم .

وما كادت لندن تتلقى هذا البلاغ ، حتى بادرت بإرسال إشارتين لاسلكيتين طويلتين ضمنتهما عدة أسئلة تفصيلية عن الوسائل الدفاعية المحيطة بهذه المنشآت إلى رئيس هذه الشبكة الذى تمكن من الرد عليها بفضل صديق له يدعى (روجيه دومون) كان عليه أن يدفع فى مقابل ذلك حياته ، إذ اعتقله الألمان وأعدموه يوم ١٣ من مايو ١٩٤٣ .

ولم يكن رئيس الشبكة يعلم أن هاتين الإشارتين قد صاغهما اللورد مونتباتن بنفسه ، إذ كان يرى فى هذه الغارة فرصة لاختيار طريقة العمل فى العمليات المشتركة التى تقضى بإبراز مجموعة من رجال المظلات فوق شاطئ (برونفال) الصخرى ، ومهمتهم الاستيلاء على قطع أساسية من محطة الرادار الألمانية ، لكى يتاح للعلماء البريطانيين التشويش عليها .

كانت هناك قوات برية تقف أمام هذا الشاطئ الضيق ، وهى على أهبة الاستعداد لتقديم يد العون عند الحاجة إلى تلك المجموعة من رجال المظلات الذين سوف تحملهم عدة قوارب لدى فراغهم من مهمتهم فى حماية وحدات خفيفة من البحرية الملكية البريطانية ، وقد أطلق على هذه العملية التى تتسم

بجزأة اسم (ضربة الخطاف) .

وقد جرى تنفيذ العملية ليلة الثامن والعشرين من فبراير ١٩٤٢ فى دقة متناهية ، وأسفرت عن نجاح أحدث دويا كبيراً فى أرجاء المعسكر الغربى كافة ، ووصل إلى أركان حرب الجيش الألمانى ، فبعث ذلك نسمة من الأمل فى بريطانيا خلال تلك الأيام الحالكة السواد ! وكان من نتائجها على المستوى العملى أن حققت هدفها المرسوم ، وأتاحت التشويش على شاشات الرادار الألمانية حتى نهاية الحرب .

وقد كانت هناك نتيجة أخرى لهذه الغارة قال عنها اللورد مونتباتن : « وعندما أحرزنا هذا النجاح حرصت على أن أتوجه بالشكر إلى الجنرال ديجول ، من أجل قيمة المعلومات التى أمدنا بها جنوده فى الظل ؛ فلقد كان فى الغارة على (برونفال) الدليل على أن المقاومة الفرنسية الداخلية يمكن أن تعاوننا بصورة فعالة فى توجيه ضربات محسوسة إلى العدو المشترك » .

ولقد كانت هذه الغارة أيضاً بعد ذلك بعامين وثلاثة أشهر – تجسيداً لعملية النزول الكبرى لقوات الحلفاء التى جرت يوم السادس من يونية ١٩٤٤ على شواطئ نورماندى .

* * *

وبينما كان هتلر يبدو فى ذروة انتصاراته – إذا به يلتزم جانب الدفاع على الجبهة الغربية : فنى الوقت الذى ألصقت فيه على جدران بريطانيا رسوم تمثل برجاً هائل الحجم له أسنان مخيفة يرمز إلى « القلعة الأوربية » ، كان هو يصدر أوامره إلى مؤسسة (تودت) الشبيهة بالعسكرية التى تأخذ على عاتقها جميع الأعمال الكبرى التى يتطلبها الجيش الألمانى ؛ لكى تشيد سلسلة ضخمة من الحصون تمتد من شمالى النرويج حتى (هنداى) على الحدود الفرنسية

الإسبانية ، تحت اسم « حائط الأطلنطى » .

كان هذا الإجراء يلائم إقامة منطقة ساحلية محظورة لا يحق دخولها إلا للأشخاص الذين منازلهم داخل خط يمتد على الشاطئ ، ويقيمون فيها قبل ذلك بثلاثة أشهر على الأقل ، وكذلك للعاملين المدنيين فى خدمة القوات الألمانية ، وفى مؤسسة (تودت) ومن تستعين بهم . وكان محظوراً بصورة قاطعة تبادل أى اتصال تليفونى أو تلغراف بين هذه المنطقة وبين العالم الخارجى .

ولقد شاءت الأقدار أن يحدث فى الوقت الذى كانت تجرى فيه نفسه الغارة على برونفال أن طائرة من طراز (ليساندر) كانت تنقل من فرنسا إلى بريطانيا رئيس شبكة المقاومة الفرنسية الذى أُعْطِىَ اسماً حركيّاً هو (ريمى) . حيث استدعاه القومندان أندريه ديوافران الملقب باسم (باسى) رئيس الأقسام السرية التابعة لفرنسا الحرة ؛ لكى يناقش معه الترتيبات اللازمة لتوسيع نطاق هذه الشبكة .

فلما عاد بعد شهر من ذلك إلى فرنسا كان يحمل معه تعليمات بإعطاء كل الأفضلية لإبلاغ لندن بالطريقة التى يشيد بها الألمان ذلك « الحائط » ، وبصفة خاصة كل ما يمت بصلة للمنطقة الساحلية الممتدة من شربورج حتى الحدود البلجيكية .

* * *

كان (ريمى) يستقبل فى الأيام الأولى من شهر أبريل ١٩٤٢ فى شقة بشارع (كولانكور) بباريس رجلاً فى الأربعين من عمره له ساق مهيضة يجرها خلفه من أثر جرح لم يبرأ بعد أصيب به فى موقعة دنكرك ، حيث كان يتولى قيادة فصيلة مدفعية . وكان هذا الرجل يدعى مارسيل جيرار ، ويعمل حاليا مندوباً فى (كاين) لشركة الأسمنت الفرنسية .

وما إن جلس حتى بادره (ريمى) قائلاً :

– أعتقد أن الطلبيات لديك كثيرة على الأسمنت هذه الأيام .

فأجاب الرجل :

– لماذا ؟

– ألا يقومون ببناء « الحائط » فى المنطقة الخاصة بك ؟

– نعم ؛ فإن الألمان قد بدءوا فى إخلاء السكان القريبين من الشاطئ .

فقال (ريمى) :

– لابد أن يلزمهم كميات كبيرة من الأسمنت لهذه المبانى ، ولذلك أريد منك أن تمدنى بأى معلومات عنها ؛ لأنها تهمنى .

فقال الرجل :

– اتفقنا ، ولسوف أعمل على ذلك .

– أحب أن أنبهك إلى أنى سأطلب منك الكثير .

فتساءل الرجل :

– بأى صورة ؟

– إن ما يلزمنى هى التصميمات المحددة ، وخاصة غلظ جدران الأسمنت المسلح .

– هذا أمر طبيعى .

– والأماكن التى ستوضع فيها قطع المدفعية وعياراتها وأعشاش المدافع الرشاشة وحقول الألغام والأسلاك الشائكة ، ثم بعد ذلك التصرفات المعتادة للرجال الذين سيتولون حراستها ، ومدى التزامهم بالنظام ، وحالتهم المعنوية . . .

فقاطعه الرجل قائلاً :

– ألا تريد كذلك معرفة ألوان شعر رءوسهم . . ؟

فقال (ريمى) وعليه سيماء الجد :

– لقد كنت سأفعل ذلك ، لو لم يكن الصديق الذى أدين له بالتقرير الذى أسفر عن نجاحنا فى (برونفال) قد سبقك إلى هذا .

زالت عن الرجل لهجة السخرية التى كان قد طرح بها سؤاله ، وقال :

– لقد كان بطلاً إذن !

– نعم ، ومع الأسف إنهم اعتقلوه فى الشهر الماضى عقب عودتى من لندن .

– لن أبلغك لون شعورهم ، ولكنى سوف أبذل كل طاقتى .

قال (ريمى) :

– مادمت تقيم فى (كاين) فإن أعضاء شبكتى سوف يلقبونك باسم (مال إيرب) ، أى العشب الشيطانى .

– لابأس !

وبعد أن تفاهم الرجلان على طريقة الاتصال بينهما انصرف مارسيل جيرار وهو يجر ساقه ، على حين كان (ريمى) على ثقة من أنه سيكون ذا فائدة كبيرة له . والواقع أنه لم يخطئ فى ذلك .

* * *

فى أحد شوارع مدينة (كاين) الذى يسمى طريق الحلفاء – كانت هناك فى ذلك الوقت حانة متواضعة كتب عليها « مقهى السائحين » ، وظهرت على وجهتها الزجاجية عبارة « تفضل لدى بول » ، وهو اسم صاحبها . وكانت هذه الحانة بمثابة صندوق البريد لجيرار وأصدقائه ، ولو أن ذلك كان أمراً محفوفاً بالخطر ، وكانت زوجة صاحب الحانة تساعده فى هذا العمل السرى .

وعلى عكس ما تقضى به أبسط قواعد الأمن الأولية – فإن مقهى الساخنين كان يستخدم كذلك مكاناً للقاء يكاد يكون يومياً لأعضاء الجماعة الصغيرة التى شكلها مارسيل جيرار . وكانت حجتهم فى ذلك أن المكان الذى قليلاً ما يتردد عليه الألمان ماعدا رجلاً منهم تقدمت به السن وهو طبيب مدنى – كان مكاناً هادئاً مأموناً .

وفى الساعة نفسها من كل مساء – كان هذا الطبيب الألمانى الذى أطلق عليه المترددون على صندوق البريد اسم (ألبرت) – يدفع باب المقهى المطل على طريق الحلفاء ، ثم يعلق على أحد المشاجب قبعته ومعطفه الطويل ، ويجلس إلى المائدة التى يجلس عليها نفسها كل مساء ، ويحتسى كأس الشراب التى يأتى بها إليه بول بغير أن يطلبها على حين أنه شارد فى أفكاره . وبعد فترة من التأمل الطويل يزدرد ألبرت ما تبقى فى الكأس ، ثم ينهض ويضع قبعته على رأسه ، ويرتدى معطفه ، ويحيى فى أدب من حوله ، ويغادر المكان .

وفى ذلك المساء الموافق اليوم السادس من شهر مايو ١٩٤٢ ، وقبل أن يجىء ألبرت إلى المقهى – كان رينيه دوشيه الذى يعمل نقاشاً يتجرع على مهل كأساً من شراب فاتح للشهية ، وقد ارتكز بمرفقيه على مائدة جلس حولها زملاؤه ، وهم ديشامبر السباك ، وهاريفيل مندوب شركة التأمين ، وليون دومى صاحب الجراج الذى ارتبط به بعلاقة وثيقة ، وقد راحوا يتناقشون كعادتهم وهم يلعبون الدومينو الذى يتيح لهم تبادل الحديث فى صوت منخفض بغير أن يسترعوا إليهم الأنظار .

كان دوشيه الذى ينتمى إلى إقليم اللورين قد عانى طوال شبابه قسوة الاحتلال الأجنبى خلال الحرب العظمى ، واحتفظ فى أعماق قلبه بحقد دفين لجميع أنواع الكبت والإجبار ، وخاصة إذا جاءت من جانب الألمان . ومنذ أن

حددوا حصة الفرد الفرنسى من السجائر امتنع نهائيّاً عن التدخين ؛ لكيلا يمتهن نفسه بطلب البطاقة التى قررها القانون .

وقد هاجر رينيه دوشيه منذ وقت طويل إلى نورماندى ، وفيها تزوج ، ولكنه لم ينس قط ما تعرض له فى صباه ، وحتى يدخل على نفسه شيئاً من العزاء ، كان يقوم بين الحين والآخر بأعمال تضايق المحتل الألمانى ، وتسبب لأصدقائه القلق والخوف ، أما هو فكان يقول : « عليكم دائماً بالتزام الهدوء ، فسوف تخرجون من أى مأزق » .

كان لاعبو الدومينو يتحدثون ، وهم فى مأمن من أى آذان تسترق السمع عن حائط الأطلنطى الشهير ، فأشار أحدهم إلى أن مؤسسة (تودت) تقوم فى كاين بعمليات بناء ضخمة فى نطاق هذا الحائط . وقد لاح بريق غريب فى عينى دوشيه عندما تذكر ذلك الإعلان المعلق على مقر عمدة المدينة عن مناقصة للصق ورق على جدران غرفتين فى المبنى الذى تحتله المؤسسة ، فى شارع جيول .

وفى هذه اللحظة نفسها فتح باب المقهى ، ودلف منه ألبرت الذى ألقى تحية على هذه الجماعة ، ثم خلع قبعته ومعطفه ، وذهب ليجلس على المائدة التى اعتاد الجلوس عليها ، وعند ذلك ومضت فى ذهن دوشيه فكرة عابرة جعلته يغمغم وهو يبتلع بقايا الكأس : « إنه ألبرت ! » .

وإذ خرج من المقهى فإنه قصد رأساً إلى مقر العمدة ، وأعاد قراءة الإعلان ، ولكنه قطب جبهته ؛ لأن الموعد الذى تحدد لتقديم العطاءات انتهى فى الساعة الخامسة ، من هذا المساء نفسه !

* * *

ترى كيف يتأتى الشك فى قوة الفطرة ، تلك الهبة الرائعة التى أودعها الله قلب كل حى على ظهر هذه الأرض ، فحافظ عليها الحيوان على حين حملنا

الغرور نحن البشر على أن نهملها ونفضل عليها قوة التفكير العقلى؟

إن عملية لصق ورق لجدران غرفتين فى مؤسسة (تودت) لم تكن فى ذاتها شيئاً هاما ، فضلاً عن أنها لابد أن تكون قد رست على أحد المقاولين فى المدينة وانتهى الأمر ، غير أن ذلك لم يمنع دوشيه من أن يتقدم فى صباح اليوم التالى إلى مقر المؤسسة فى شارع جيول مستقلا سيارة النقل الصغيرة التى يمتلكها ، وأوقفها إلى جوار الرصيف . لقد دفعته فطرته إلى أن يفعل ذلك .

وعندما سمع صوت الديدبان وهو يطلب منه إبراز التصريح الذى لا معدى منه ، والذى لم يكن قد زود نفسه به - بادر إلى القول : بأنه قد جاء ؛ ليعرض خدماته بناء على الإعلان المعلق على مقر العمدة .

وصاح الجندى الألمانى صيحة خرج على إثرها من باب المبنى الذى يعلوه العلم النازى ذو الصليب المعقوف أحد ضباط الصف الذى سأل دوشيه بدوره : « ماذا تريد » ؟

فأجاب الفرنسى :

- إننى جئت من أجل المناقصة .

- فراح ضابط الصف يكرر دون أن يفهم :

- المناقصة ؟

- الواردة فى الإعلان المعلق على مقر العمدة .

- الإعلان ؟

وتخلص دوشيه من قبضة الديدبان التى كانت تمسك بكتفه بقوة ، وأخذ يقوم بحركات يمثل بها أنه يضع فرشاة فى إناء به دهان ، ويمر بها على الخطوط البيضاء والسوداء فى كشك الحارس ، وتصور ضابط الصف أن الفرنسى يسخر منه ، فأمسك به من خناقه ، وقاده فى غلظة حتى مقر الحرس ، وهو يمطره

بوابل من الشتائم باللغة الألمانية . ولدى مرورهما بالدهليز راح ضابط يستفسر عن سبب هذه الضجة ، ثم سأل دوشيه بالفرنسية :

– لماذا سخرت من الجيش الألماني ؟

فأجاب النقاش محتجا :

– لم يحدث ذلك ياسيدى الضابط .

– ولماذا حاولت الدخول إلى هنا ؟ ألا تعلم أنه محظور ؟

– لقد جئت من أجل الإعلان المعلق بمقر العمدة للعمل .

تطلع الضابط إلى دوشيه الذى ظهرت عليه علامات البراءة ، ثم أصدر أمراً باللغة الألمانية لضابط الصف ، فضم كعبيه بقوة وأسرع خارجا ، ثم عاد بعد قليل ومعه ملازم أدى التحية لرئيسه ، وإذ وقف منه على الموضوع التفت إلى دوشيه قائلا :

– لقد جئت متأخراً ، لأن العطاءات كان يجب أن تقدم حتى الساعة الخامسة من مساء أمس .

* * *

كانت اتفاقيات الهدنة قد فرضت على الفرنسيين أن يدفعوا يوميا إلى الرايخ الألماني تعويضاً قدره ٤٠٠ مليون فرنك فى مقابل الخدمات التى تقدمها لهم قوات الاحتلال ، زيد إلى ٥٠٠ مليون فور اجتياح المنطقة الحرة ، وكان كل ألمانى يرى فى أى فرنسى مصدراً يتعين استغلاله . ولم يخرج الملازم عن هذه القاعدة ، إذ إنه فكر فى الأمر لحظة ، ثم قال لدوشيه خشية أن يكون السعر الذى رست به العملية مبالغاً فيه :

– تعال معى . . إننى أريد أن أعرف بكم تقدر هذه الأعمال ؟

وقاده إلى الغرفتين اللتين يتعين لصق الورق فيهما ، فراح يأخذ قياسها ، ثم

استسلم للشعور الفطرى الذى كان يلح عليه ليعمل أى شىء يتيح له القيام بأى أشغال فى هذا المبنى ، فقدر سعراً يقل كثيراً عن التكاليف . وقد لاحظ أن الملازم رفع حاجبيه دهشة لدى سماعه ذلك ، ومالبث أن قال له :

– وهل أنت على استعداد لتنفيذ هذا العمل ؟

فأجاب دوشيه فى صيغة التأكيد :

– على الفور .

– انتظر إذن .

غاب الملازم برهة صغيرة ، ثم عاد وصحب دوشيه إلى مكتب رئيسه ، فدخل ممسكاً قبعته فى يده ، فابتدره القائد قائلاً :

– ما الذى يجعلك تضع هذا السعر الذى يقل كثيراً عن أسعار الآخرين ؟

فأجاب دوشيه :

– لأنه يسعدنى أن أعمل معكم ياسيدى القائد .

– وهل يمكنك أن تقدم عينات للورق ؟

– فى أى وقت تشاء ياسيدى القائد .

وحدد له القائد الساعة العاشرة من صباح الغد الموافق العاشر من مايو ، وفى هذا الموعد كان يبسط عيناته على مكتب القائد الذى راح يفحصها بعناية . وعند ذلك سُمع طرقٌ على الباب ، فأذن القائد للطارق بالدخول ، وإذا به ضابط صف يحمل رزمة من الوثائق وضعها على ركن من المكتب .

وتناول القائد إحدى هذه الوثائق ، ونهض وهو يعتذر لدوشيه ، ثم اتجه بها ناحية النافذة ، وراح يختبر فى الضوء مدى شفافيتها . ومن حيث وقف الفرنسى – رأى فى الوثيقة رسماً للساحل النورماندى ابتداء من مصب نهر السين ، حتى مصب نهر الأورن .

وعاد القائد إلى مكتبه ، ولكن الباب طرق مرة أخرى ، ودخل هذه المرة ضابط صف آخر تقدم بصفحة كتبت بالآلة الكاتبة ، ثم أسر فى أذن القائد بعض العبارات ، فنهض هذا من مقعده واتجه نحو باب الغرفة المفتوح ، ووقف على عتبتها مستنداً على إطار الباب ، واطلع على الصفحة ، ومن فرجة الباب رأى دوشيه قاعة بها عدد من السكرتيرين منهمكين فى عملهم . ورجع القائد مرة أخرى إلى مكانه والورقة فى يده ، ثم أخذ يملى على ضابط الصف داخل القاعة شيئاً باللغة الألمانية ، وهو يدير ظهره ناحية دوشيه الذى لم تكن تفصله عن رزمة الوثائق التى فوق حافة المكتب سوى مسافة لا تزيد عن المتر .

وراح الفرنسى يقترب ببطء من المكتب وهو يرقب ظهر القائد ؛ حتى إذا بلغ المكتب تطلع إلى الوثيقة التى أعلى الرزمة ، فإذا مكتوب عليها بالألمانية التى يعرف قليلاً منها عبارة (سرى للغاية) . وبخفة رفعها ونظر تحتها ، وإذا بوثيقة مماثلة لها ، فأدرك أن الرزمة كلها نسخ متشابهة .

كان القائد لا يزال يملى وصوت آلة الكتابة يسمع قادماً من القاعة ، فتراجع دوشيه خطوة ، خطوتين ، ثلاث خطوات ، وهو يفحص بعينيه كل أركان الغرفة ؛ إذ كانت الوثيقة التى تتضمن خريطة جغرافية كبيرة الحجم ، فلم يفكر فى أخذها على الفور .

وتراجع بضع خطوات أخرى ، ووقع بصره على مرآة كبيرة لها إطار مذهب فوق المدفأة معلقة ، وبها فرجة رفيعة بين الإطار والجدار الذى استندت عليه ، ولم يلبث أن اتخذ قراره بإخفاء الخريطة فيها .

عاد فتقدم نحو المكتب ، حتى أصبحت رزمة الخرائط فى متناول يده ، على حين كان القائد لا يزال ماضياً فى الإملاء متجهاً بوجهه نحو قاعة السكرتيرين .

وتناول الوثيقة العليا وجعلها خلف ظهره ، وبدأ يتراجع دون أن يغيب القائد عن نظره قاصداً نحو المدفأة ؛ حتى إذا بلغها كان عليه أن يدور نصف دورة . وبدأ يدخل الخريطة فى الفجوة ، ثم اختفت فيها .

عند ذلك شعر دوشيه بالعرق يتصبب من جسده ، ولكنه تماسك ، ثم أخذ يتقدم إلى مكانه الأول ، فلما بلغه استطاع أن يتنفس ، وبعد ذلك اتخذ الوضع الذليل الذى تظاهر به عندما جاء ليعرض خدماته على جيش الاحتلال .

وفى هذه اللحظة بالذات توقف القائد عن الإملاء ، واستدار نحو دوشيه ، وعلى فمه ابتسامة الاستخفاف التى يبديها الألمان للذين يعاونوهم وهو يقول له :

– لنعد الآن لفحص العينات .

* * *

وإذ وقع اختيار القائد الألمانى على لون الورق الذى يريده – قرر أن يبدأ دوشيه عمله صباح يوم الاثنين الحادى عشر من مايو .

وأخبر الفرنسى زوجته القصة ، فلما انتهى منها سألته :

– وكيف تتمكن من أخذ هذه الخريطة والخروج بها ؟

فقال :

– لا أعرف كيف حتى الآن ؟ ولكن يتعين أولاً أن أكون بمفردى فى غرفة مكتب القائد . .

وعندما دلف فى اليوم المحدد إلى مبنى المؤسسة كان يشعر بثقة لا يعرف مصدرها ، من أنه سوف ينجح فى مهمته ، ولو أن أصدقاءه فى مقهى السائحين أبدوا شكهم فى هذا النجاح عندما أخبرهم بالأمر .

وبعد أن نصب سلمه وارتدى معطفه الأبيض وبدأ العمل – راح يصفر بفمه لحناً مرحاً شأن العامل الخلى البال ، على حين كان يشعر فى أعماقه بالخوف

من حدوث ما لاتحمد عقباه فى آخر دقيقة ، وهو يفكر فى أن حسابه مع الألمان سيكون عسيراً إذا هم فطنوا إلى لعبته ! غير أنه بينما كان ماضياً فى لصق ورق الجدران لم يسترع نظره أى دليل على أن أحداً قد تنبه لضياع نسخة من خريطة حائط الأطلنطى .

وفجأة وجد أمامه ذلك الضابط الذى قاده إلى مقر الحرس يوم جاء أول مرة يبتدره قائلاً :

– توقف عن الصفير ، فإنك تعطل الآخرين عن أعمالهم !

فسأله دوشيه :

– سيدى الضابط ، هل أستطيع أن أرى القائد شنيدرر ؟

فأجاب الضابط فى جفوة :

– إن القائد شنيدرر ليس موجوداً .

– فهل أراه غدا ؟

– كلا ، لأنه قد استبدل به قائد آخر .

كادت الفرشاة تسقط من يد دوشيه ، وغمغم فى دهشة :

– استبدل ؟

لكن الضابط الألمانى كان قد مضى عائداً من حيث أتى .

صعد دوشيه على سلمه دون أن يدرى ، لقد وقع ما كان يخشاه ؛ فإن القائد شنيدرر ما كاد يبلغ عن ضياع نسخة من خريطة الحائط السرية ؛ حتى استدعى إلى القيادة العامة للإدلاء بتفسير عما حدث . ثم تولى الجستابو القضية .

ولم يكن تصور دوشيه هذا خاطئاً ؛ فقد فطنوا فى مؤسسة تودت منذ يوم ٨ من مايو إلى أن وثيقة سرية للغاية هى الخريطة قد اختفت ، وعبثاً حاولوا العثور عليها . وقد اضطر القائد شنيدرر إلى تبليغ الجستابو قائلاً :

- لا يمكن أن يكون النقاش هو الذى استولى عليها ؛ لأنه لم يترك وحده فى مكتبى لحظة واحدة .

قال دوشيه يحدث نفسه :

- إن كل شىء يجرى على ما يرام حتى الآن !

ثم استولت عليه رغبة فى أن يترك كل شىء عند هذا الحد دون انتظار ، غير أنه عاد ففكر فى أن رحيله المفاجئ يكفى فى ذاته تركيز الشبهات من حوله على حين أن استمراره فى العمل من شأنه أن يبعد عنه الشكوك ، ثم إنه إذا رحل بعيداً فسيأخذون زوجته رهينة ، فما الذى سوف يحدث لابنهما الصغير جاك ، وابنتهما مونيك التى لا تتجاوز الثالثة من عمرها ؟

وسرت فى جسده قشعريرة عنيفة لفكرة أن يتركها وراءه ، وبغير أن يشعر هذه المرة بأى رغبة فى الصفير تناول فرشاته واستأنف العمل .

* * *

لم يشعر أحد من المحيطين به بما يأكل قلبه من قلق واضطراب ، وقد تناول عشاءه فى بيته بشهية واضحة ، ونام نوماً هادئاً من الناحية الظاهرية على الأقل ، وفى صباح اليوم التالى الثلاثاء ١٢ من مايو - قصد إلى شارع جيول حيث مقر المؤسسة ، وما إن وصل حتى طلب أن يذهبوا به إلى القائد الجديد القومندان كيلر ، وإذ أبدى رئيس الحرس دهشته لهذا الطلب - قال دوشيه : إن ذلك له علاقة بالعمل .

قال الضابط :

- وماالذى تريده منه ؟

- أريد أن أعرف متى أبدأ العمل فى مكتبه ؟

وعند ذلك اتخذ الحراس وقفة الانتباه ؛ فقد كان القومندان كيلر يهم

بدخول المبنى ، وتوقف القائد إذ رأى هذا الفرنسى ، وسأل رئيس الحرس عمن يكون ؟ وماذا يريد ؟ فلما وقف على الأمر قال فى غلظة :

– إن مكتبى ليس فى حاجة إلى دهان .

فقال دوشيه :

– ليس دهاناً ياسيدى القائد ، وإنما فى حاجة إلى أن يلصق فيه ورق .

– ورق ؟ ومن الذى كلفك ذلك ؟

– إنه القومندان شنيدرر ياسيدى القائد .

فقال كيلر فى عنف :

– إننى لاأريد نفقات جديدة .

– ليس هناك نفقات ياسيدى القائد .

فأجاب القائد :

– ليس هناك نفقات ! وكيف ذلك ؟

ارتسمت على وجه دوشيه سيماء البراءة على حين راح يشرح الأمر قائلاً :

– لأنى عرضت على القومندان شنيدرر أن ألصق له ورقاً فى مكتبه بدون مقابل ، فالورق فيه قد اصفر وتهدل . . .

سأل القائد فى ريبة :

– ولماذا تعمل بدون مقابل ؟

قال دوشيه فى ثقة تحمل على الإقناع :

– لأنى من أشد المعجبين بالجيش الألمانى .

لقد ألقى عبارته هذه وقد استوحاها من المنشورات الدعائية التى كان جوبلز يوجهها إلى الفرنسيين ، ويقول فيها : إن الجندى الألمانى يقاتل من أجلهم . حتى لا تجتاح الشيوعية بلادهم !

وتركت العبارة أثرها فى القائد كيلر الذى اقتنع بأن هذا النقاش لا يسخر منه ، فحيَّا فيه صديقاً للجيش الألمانى وسأله :

– وما اسمك ياسيدى ؟

أجاب الفرنسى :

– دوشيه ياسيدى القائد . . رينيه دوشيه .

– إنك فرنسى طيب يامسيو دوشيه ، فمتى تأتى للصق ورق مكتبى ؟

قال دوشيه :

– فوراً ياسيدى القائد إذا شئت .

– كلا . . يستحيل ذلك ، إن ورائى عملاً كثيراً ، ثم إنه لابد من إخلاء المكتب .

هتف دوشيه خوفاً من أن يعثروا على الوثيقة الضائعة خلال عملية الإخلاء :

– إن الأمر لا يستحق النقل ياسيدى القومندان ؛ فنحن لا نخلى الغرف عند لصق الورق على جدرانها وإنما نضع محتوياتها فى الوسط ، ونغطيها بقماش غليظ فلا شىء يتسخ فيها ، وهكذا يمكن الانتهاء من المكتب ظهراً .

تهلل وجه القائد الألمانى وهو يقول :

– اتفقنا إذن ، فليكن ذلك غداً .

* * *

انهمك دوشيه فى صباح اليوم التالى فى العمل بمكتب القائد ، وبذل فى ذلك نشاطاً كبيراً ، فانتهى منه عند الظهر ، وقد عاونه الجنود فى وضع أدواته فى سيارته ، ثم انصرف والجميع يعتبرونه صديقاً .

وقبل أن يُودع سيارته مخزنه مال بها إلى مقهى السائحين .

وإذ كانت فترة الظهيرة قد انقضت فإن الطبيب الألمانى (ألبرت) قد جاء إلى المقهى منذ بضع دقائق ، فرفع يده إلى قبعته بالتحية لكل من هاريفيل ودومى وديشامبر الذين كان يبدو أنهم منهمكون فى لعب الدومينو ، ثم علق قبعته ومعطفه على المشجب على حين كان صاحب المقهى يضع على المائدة التى سيجلس عليها كأس شرابه المعتاد .

ودخل دوشيه بدوره وخلع معطفه ، وعلقه فوق معطف الطبيب ، وجلس مع زملائه . ولم يلبث أن نهض مرة أخرى ، واتجه إلى باب المقهى وفتحه ، وظل يرقب شيئاً ما خارجه . وأدرك زملاؤه أن شيئاً غير عادى يدور فى الخارج ، ثم اعترتهم رعدة سرت فى أجسادهم وهم يرون من الباب المفتوح سيارة عسكرية يقودها جندى ألمانى تتوقف أمام المقهى ، وبداخلها رجلان يرتديان معاطف سوداء طويلة ، كان واضحاً أنهما من الجستابو .

وعاد دوشيه إلى مكانه ، وهمس لزملائه قائلاً :

– لقد حصلت على الخريطة .

وصمت الثلاثة الآخرون من فرط الذهول ، ثم سأله أحدهم :

– هل تريد أن تقول : إنها معك هنا ؟

أجاب دوشيه :

– نعم ، ويبدو أن رجال الجستابو يجدون فى أثرى .

وفى اللحظة التالية دخل المقهى عدد من الجنود الألمان ، وخيل أنهم يتجهون صوب مائدة دوشيه وزملائه إلا أنهم تجاوزوها وجلسوا على مائدة منزوية ، ولم يلبثوا أن طلبوا شراباً وطفقوا يتحدثون ويمرحون ، وانقضى نصف ساعة ، على حين كان القلق يسيطر على لاعبى الدومينو ، وأخيراً نهض الجنود . وانطلقت بهم السيارة من حيث جاءوا .

ونهض الطبيب الألمانى ألبرت بدوره منصرفاً ، واتجه ناحية المشجب . فأسرع دوشيه نحوه وساعده فى ارتداء معطفه ، ثم عاد فجلس بين زملائه .
وسأله أحدهم :
- ماذا كنا سنفعل لو كانوا قد جاءوا للتفتيش ؟
فقال دوشيه :
- لاشيء ! ماكانوا سيعثرون على الخريطة معى .
- لماذا ؟ ألم تقل : إنك أحضرتها ؟
- لأنها ساعتها كانت فى جيب معطف ألبرت !
فقال دومى :
- على أى حال - ينبغى الإسراع بتسليمها . .
ومرة أخرى انهمكت الجماعة فى لعب الدومينو ، وكأن شيئاً لم يكن ، غير أن كلا منهم قد أدرك ماالذى كان يعنيه دوشيه عندما قال : إنه يتعين على رجل المقاومة أن يتصرف بهدوء وبساطة ورباطة جأش ، فينجو من أى مأزق يقع فيه .

* * *

فى الساعة العاشرة من صباح الخميس ١٤ من مايو - وكان الجو صحواً - كان (ريمى) رئيس شبكة المقاومة ومعه مساعده فرنسوا فور يعبران من ناصية شارع كارنو إلى ميدان الإيتوال انتظاراً للقاء هام يتم فى الطريق ، إذ علمته التجارب أن هذه الطريقة أقل خطراً من أى طريقة أخرى بشرط الالتزام المطلق بقواعد الحذر .
وبينما هما يجتازان المكان المخصص للمشاة سار إلى جانبهما رجل يحمل فى يده إحدى المجلات الألمانية ، وتحت إبطه لفافة صغيرة ، لم تلبث أن انتقلت إلى

إبط (ريمى) ، الذى مضى بها فى طريقه دون أن يسترعى ذلك الأنظار .

وقد ظل يحتفظ بهذه اللفافة مغلقة حتى الأول من شهر يونية بغير أن يتمكن من إرسالها إلى لندن ؛ نظراً إلى حملة التفتيش العامة التى أعقبت اختفاء خريطة حائط الأطلنطى ، فلما خفت هذه الحملة فتحها (ريمى) بحضور عضو الشبكة المتخصص فى التحصينات ، وإذا بها تحتوى خريطة مفصلة لساحل خليج نهر السين ابتداء من (هونفلور) حتى شربورج ، وعليها عدد كبير من الحصون القوية ، وأعشاش المدافع الرشاشة ، وخطوط الأسلاك الشائكة ، وحقول الألغام ، ومع كل ذلك بيانات لمقاساتها وأنواع قطع المدفعية التى فيها ، وعياراتها المختلفة .

وقال خبير التحصينات :

– إنها خريطة رائعة ! فهى تمثل قطاعاً كبيراً من حائط الأطلنطى ؛ كما أنها سرية للغاية ، إلا أنها لا تشمل الحائط بأكمله ، وخاصة ذلك الجزء من الساحل الممتد من الهافر إلى دنكرك . إنها تبين ساحل نورماندى ، على حين أن البحر عريض بينه وبين الساحل الإنجليزى ، بحيث إنه إذا عن للحلفاء إنزال قوات كبيرة عليه فإن السفن التى تحملها سوف ينكشف أمرها خلال قطعها هذه المسافة ، كما أن طائراتهم المقاتلة لن تستطيع تقديم أى عون للقوات التى قد تهاجم مواقع العدو الألمانى . . .

فقال (ريمى) آسفاً :

– على أى حال سوف أبعث بها فى أول فرصة إلى لندن ؛ فقد تفيدهم فى معرفة الأسلوب الذى يبنى به الألمان هذا الحائط .

وقد استطاع ذلك بالفعل يوم ١٧ من يونية ١٩٤٢ بعد مغامرة بحرية أتاحت له الخروج بزوجته وأطفاله من فرنسا ؛ إذ كان الجستابو يحاول أخذهم

رهائن ، لحمله على تسليم نفسه عقب انكشاف نشاطه فى المقاومة السرية .

* * *

حدث بعد أن قامت « العمليات المشتركة » بغارتها على (بروفنال) يوم ٢٨ من مارس ١٩٤٢ بشهر كامل – أن أتبع الحلفاء ذلك غارةً أخرى على سان نازير .

وكان الهدف من هذه الغارة الأخيرة إعطاب حوض جاف كبير الحجم عرف باسم « جوبير » قام ببنائه مصنع « بنهويت » للسفن ، فكان الحوض الوحيد على طول الساحل الشرقى للمحيط الأطلسى الذى يستطيع استقبال البارجة الألمانية القوية (تيربيتز) شقيقة البارجة بيسمارك التى أغرقت يوم ٢٧ من مايو جنوب آيرلندا .

فلما تم تدمير هذا الحوض أصبحت البارجة الأولى عاجزة عن القيام بأى رحلة فى المحيط .

ولم يكد يمضى على هذا النجاح عشرة أيام ؛ حتى كان لورد لويس مونتباتن يرقى فى الوقت نفسه إلى رتبة فيس أميرال ، وجنرال قائد مجموعة جيوش ، وجنرال فى القوات الجوية ، وإن كانت كلها رتباً فخرية . ومع ذلك فإن هذه كانت المرة الأولى التى يحدث فيها لضابط فى بريطانيا أن يكون منتمياً إلى هذه الأسلحة الثلاثة .

وإذا نحن أدخلنا فى الاعتبار أن مونتباتن من مواليد بداية القرن فإنه لم يكن حينئذ قد بلغ الثانية والأربعين من عمره ، على حين أن (نلسون) البطل البريطانى البحرى المشهور اضطر للانتظار عاماً أكثر من ذلك ؛ لكى يرقى إلى رتبة الفيس أميرال . والواقع أن هذه الترقية الثلاثية التى حصل عليها مونتباتن

استقبلها الجميع بامتعاض ، وبصفة خاصة فى لجنة رؤساء الأركان التى أصبح عضوها الرابع .

وبذلك بات تحت إمرته ٥٠٠٠٠ ضابط ـ وضابط صف ـ وجندى ـ من البحرية والطيران والجيش البرى ، فضلاً عن القوات المحمولة جوًّا التى أنشئت حديثاً .

* * *

وفى هذا الوقت بالذات أخذ الأمريكيون يعدون العدة لوضع خطة لإنزال قوات لهم فى غربى أوربا على أساس إتمام ذلك فى ربيع عام ١٩٤٣ . وقد أطلقوا على هذه الخطة اسما شفريا هو « عملية التجميع » ، وهو تعبير اعتاد رعاة البقر فى أمريكا استخدامه عندما يريدون الإشارة إلى إعادة القطعان الشاردة إلى حظائرها . وإلى جانب ذلك – كانوا يوحون بأنه من المناسب الإعداد فى نطاق عام ١٩٤٢ لعملية إنزال قوات توقعاً لوقت يصبح فيه موقف الجيش الأحمر ميئوساً منه ، أو لظروف توحى بأن ألمانيا قد باتت على وشك الانهيار ، وقد عرفوا هذا الحلم أيضاً باسم كودى ، هو « ضربة الهراوة » .

وقد عقد اجتماع للهيئة التى عرفت باسم (جمعية القادة) لبحث هذا الاحتمال الجنونى بحثاً جادا ، وفيه استمع مونتباتن إلى زملائه وهم يؤكدون أنه لا يمكن حدوثه إلا فى منطقة كاليه مستندين فى ذلك إلى الأسباب التى استند إليها نفسها جنرالات هتلر .

غير أن مونتباتن اعترض على ذلك قائلاً :

– إننى لست مقتنعاً بأن عملية إنزال ضخمة للجنود فى هذه المنطقة يمكن أن تنجح ، وأقترح بدلاً منها أن يجرى الإنزال على الساحل الشرقى لكونتنتان بعد دراسة هذا الاحتمال بصورة متعمقة .

وعقب هذا الاقتراح غير المنتظر – أصيب رؤساء الأركان بالذهول ، ثم ما لبثوا أن قابلوه بالاستخفاف .

وعاود مونتباتن الكرة فى الاجتماع الذى عقد فى الشهر التالى ، ووسع خلاله منطقة الإنزال التى يقترحها حتى خليج نهر السين ، وأضاف إلى ذلك من ناحية أخرى أن استعدادات العدو فى منطقة كاليه رهيبة ، ودفاعاته فيها تمتد بعمق البلاد . وتشمل قوة نيران يمكن التأكيد مقدماً أنها ستحصد أى محاولة إنزال عن طريق البحر .

وإذ اعترض بعض القادة على ذلك باتساع مجال عمل سلاح الطيران – رد مونتباتن بأنه من السهل بمكان تزويد الطائرات بخزانات وقود إضافية ، ولكن ذلك قوبل بالكثير من اللامبالاة !

غير أن هذه اللامبالاة لم تكف إيقاف حفيد الملكة فيكتوريا ؛ لأنه ظل يركز على فكرته قائلاً : إن الموانى الفرنسية المطلة على بحر المانش شرق الهافر قليلة العمق ، وذات مداخل ضيقة ، مما يسهل بث حقول الألغام فيها ، أما موانى شربورج فإنها تجعل هذه العملية عسيرة .

وقد استرعت هذه الأفكار انتباه الجنرال آيزنهاور عندما كان يحضر أحد هذه الاجتماعات ، فاقترح على رؤساء الأركان إسناد قيادة عملية إنزال القوات المحتملة عبر بحر المانش إلى الأميرال مونتباتن ، إلا أن أحداً منهم لم يصغ إليه .

* * *

وقد أكدت الغارة الرابعة التى قامت بها (العمليات المشتركة) يوم ١٩ من أغسطس ١٩٤٢ على دييب – أن مونتباتن على حق : ذلك أن الجانب الأكبر من قوات الهجوم كانت مكونة من الجنود الكنديين الذين تسمروا فى أماكنهم على الشاطئ بفعل قوة نيران العدو . ومن بين هذه القوات التى بلغ تعدادها

خمسة آلاف رجل – قتل أو فقد أو أصيب ٣٣٦٧ ضابطاً وجنديا ، فضلا عن مصرع ١٠٠٠ رجل من البحرية الملكية ورجال الكوماندوز وسلاح الطيران .

ولم تترك دعاية جوبلز فرصة فشل هذه الغارة التى كان الغرض منها اختبار دفاعات الألمان والاحتكاك المباشر بها وتجربة معدات الهجوم للتوصل إلى أفضل استخدام لها ، فراحت تؤكد أنها أسفرت عن كارثة للحلفاء ، وأثبتت أن القلعة الأوربية لا يمكن أن تقهر .

غير أن اللورد مونتباتن قد وضع الأمور فى نصابها ، وذلك عندما أملى على المؤرخ البريطانى جون تيرين الإيضاحات التالية فقال :

– « إن الغارة على دييب يمكن أن توصف بأنها (كارثة) من حيث المعنى المباشر فحسب . وصحيح أن نسبة الخسائر فيها تبعث على القلق برغم أن عدداً كبيراً من القوات التى اشتركت فيها وقعوا أسرى ، الأمر الذى يخفف الوطأة طالما أنهم أحياء .

« غير أن هذه الغارة برغم فداحة نتائجها – قد أتاحت لنا دروساً مستفادة كان من الأهمية بمكان أن نستوعبها ! فلقد كانت دييب هى التجربة (الوحيدة) التى كان يمكن أن نستند إليها ، ولست أعرف أسلوباً يعطى الدروس المستفادة إن لم يكن أسلوب التجربة !

« ولقد علمتنا هذه العملية ضرورة الاستناد إلى مدفعية قوية ، وهو ما قادنا إلى استخدام سفن مزودة بقذائف صاروخية ، وإلى بناء زوارق إنزال مسلحة بالمدافع ، وعلمتنا كذلك أن أرمادا الإنزال فى حاجة إلى أفضل أنواع الإرشاد البحرى . وأعطتنا معلومات عن العوائق التى يضعها العدو على الشواطئ ، وحملتنا على تخيل العقبات التى يتعين علينا التغلب عليها ، وقد جعلتنا ننتبه إلى أهمية مشكلة التقدم على الشواطئ ، وأكدت لنا أنه لا غنى عن وجود مراكز

قيادة على ظهر السفن التى يمكن منها الإشراف على سير أى معركة برمائية .

« وفوق كل ذلك – فإن غارة دييب قد عاونتنى على تطوير ما كنت أسميه (فلسفة إنزال القوات) ، ثم إنها كانت مجرد غارة ، ولم نكن ننوى سوى الوصول إلى الشاطئ الفرنسى والعودة منه . أما عملية إنزال للقوات فإنها أمر مختلف تماماً ؛ إذ لم يكن علينا فقط شق طريقنا بالقوة عبر جميع أنواع الدفاعات التى تقف فى وجهنا ؛ وإنما كان علينا كذلك أن نثبت أقدامنا على الشاطئ ونتشبث به ، وكان ذلك معناه أن علينا بناء قواتنا بصورة أسرع من تلك التى يمكن بها العدو الألمانى أن يضع قواته فى مواجهتنا . . . »

الفصل الثالث

عملية أوفر لورد

عقد رؤساء الحرب البريطانيون والأمريكيون فى شهر أبريل ١٩٤٣ اجتماعاً الغرض منه اختيار الجنرال الذى يمثلهم لدى القيادة العليا للقوات المتحالفة التى ستنشأ قريباً ، وهو الجنرال الذى كانت جنسيته وشخصيته مازالتا مجهولتين . وقد اتفقوا فى هذا الاجتماع على أن يكون هذا الجنرال هو السير فريدريك مورجان الذى يتولى قيادة أحد الفيالق فى الجيش البريطانى .

وقد وجد هذا الأخير نفسه – نتيجة لذلك – مضطلعاً بدور مرهق للغاية ، هو دور رئيس أركان حرب قيادة لاوجود لها بعد إلا فى أذهان عدد قليل من الرجال .

والواقع أن المهمة التى كان عليه القيام بها – كانت أن يحول إلى حقائق عملية ملموسة ، تلك الخطط التى رسمت على الورق لإنزال قوات عند نقطة ما من الساحل الفرنسى لم تكن بدورها قد تحددت . أما العنصر الوحيد المحدد الذى كان تحت تصرف الجنرال مورجان – فهو اسم شفرى أطلق على هذه الخطط تحرّوا عند اختياره أن يشمل معناه أن العملية التى تتضمنها تفوق كل ماعداها من حيث الأهمية ، سواء من ناحية الوسائل الضرورية لتنفيذها أو من ناحية العواقب التى سوف تترتب عليها ، وأنها أكبر بكثير من أى عملية أخرى قامت بها القوات المتحالفة فى مجموعها ، بما فيها الجموع الحاشدة التى تتكون منها قوات الجيش الأحمر . ولذلك وقع الاختيار على كلمة (أوفر لورد) التى تعنى السيادة المطلقة . غير أن الجنرال مورجان كانت لديه – مثله مثل مجموع

الضباط الذين تكونت منهم هيئة أركان هذة القيادة التى لم تر النور بعد - أسباب قوية تجعله يشك فى أن فرص النجاح التى سوف تتاح لهذه العملية ليست كبيرة .

* * *

وقد تبين من الملف الذى تسلمه الجنرال مورجان - أن الخبراء الذين قاموا بتحليل الخطة أوصوا بإصرار شديد على أن يقع الهجوم فى تلك المنطقة المحصورة بين (بولونسورمير) و (كاليه) ، على حين أن اللورد لويس مونتباتن كان لايزال يؤيد بعناد شديد الرأى الذى يقول : إن هذا الهجوم لايمكن أن ينجح إلا إذا وقع بين (شربورج) ومصب نهر السين . وأضاف مونتباتن فى الحجج التى استند إليها - أن وسائل الدفاع الجبارة التى حشدها العدو الألمانى فى منطقة رأس كاليه - إلى جانب كثافة القوات المتجمعة فيها - تشير إلى أنه يتوقع أن تجرى فيها المواجهة بينه وبين الجيوش التى سوف يستخدمها الحلفاء فى هجومهم ، فيتعين من ثم استغلال هذا الاعتقاد لخلق عنصر مفاجأة ، ومن ثم الهجوم فى مكان آخر .

ومن ناحية أخرى فإن الشروع فى إنزال قوات الحلفاء فى منطقة رأس كاليه - كان ينطوى فى رأى مونتباتن على إغفال الاستفادة بتلك الميزة التى حققتها قوات الحلفاء بسيطرتها على طرق المواصلات البحرية فى المنطقة الغربية لبحر المانش .

وقال الجنرال مورجان بعد أن فرغ من قراءة محتويات الملف : إن رئيس العمليات المشتركة يتمتع ولا شك بروح وثابة تتطلع إلى التجديد ، وهو يريد أن يعاوننا فى هذا الموقف الذى يبعث على الحيرة ، غير أنه يبدو فى نظر زملائه الأكبر منه سنا - فى صورة طفل مشاكس رهيب . . !

كان هؤلاء الزملاء هم رؤساء أركان الحرب الذين لم يكونوا يطيقون سماع أى دفاع عن النظريات المتسمة بالغرور التى كان يبديها مونتباتن الذى كان فضلاً عن ذلك يثير غضبهم باستيلائه تدريجاً على تخصصاتهم : ذلك أن رابطة القربى التى تقوم بينه وبين الأسرة المالكة – كانت تثير حوله شكوكاً فى أنه وصل إلى منصبه بالمحسوبية ؛ مما جعل معارضة قوية تقوم فى وجهه ، وخاصة من جانب الجنرال سير برنارد باجت قائد الجيش المحلى ، ومارشال الجو شولتو دوجلاس .

وبمثل العناد الذى عرف عن مونتباتن – مضى هذان الرجلان يناديان بأن عملية إنزال القوات يتعين أن تتم فى مكان يكون قريباً من الساحل البريطانى : أى فى منطقة رأس كاليه الفرنسية بغير أن يتزحزحا عن ذلك ، ولكى ينهى مونتباتن هذه المعارضة قرر القيام بضربة أكبر.

فقد ترأس فى الفترة من ٢٨ من يونية إلى ٢ من يوليو ١٩٤٣ فى منطقة (لارجز) بأسكتلندة بداخل أحد معسكرات التدريب التابعة للعمليات المشتركة مؤتمراً أطلق عليه اسم « الثرثار المزعج » . كان قد سبق له أن انتصر بصورة غير مباشرة فى شهر مايو من العام نفسه عندما سجل أول نجاح له فى مؤتمر رؤساء الأركان الذى عقد فى الدار البيضاء الذى حضره كل من روزفلت وتشرتشل ، وذلك بأن أسهم التقرير الذى قدمه وأقامه على معدل بناء سفن إنزال الجنود المختلفة والعتاد البرمائى مساهمة كبيرة فى تأجيل موعد هبوط قوات الحلفاء فى شمالىّ فرنسا إلى صيف عام ١٩٤٤ فى مكان يتعين تحديده .

وفى مؤتمر (لارجز) أزال مونتباتن التشاؤم الذى كان سائداً على جميع المستويات بين المسئولين عن عملية (أوفرلورد) ، وأكد ثقته الكاملة فى نجاحها بشرط أن يتم إنزال القوات فى منطقة شواطئ نورماندى السفلى . وقد عرض على أنظار الحاضرين الخطط التى وضعها معاونوه وعلى رأسهم كل من الجنرال

هيوز هاليت والجنرال هوسى اللذين قاما بشرح ماتوصلا إليه فى هذا الصدد ، وسرعان ما اجتذبا اهتمام الجميع الذين ساد بينهم الصمت ، بعد أن كانوا حتى ذلك الوقت ينسبون إلى القيادة العامة للعمليات المشتركة أنها « وكر لرجل مجنون ، يتولى إدارته عدد من المحالين على الاستيداع ! » .

ثم جاء القرار عندما قال الجنرال مورجان : « إن الغزو يجب أن يقع فى نورماندى ، فليس هناك بديل لذلك إذا أردنا الوفاء بالموعد الذى قررناه ، للهجوم ، والذى يحل بعد عام من الآن » .

ولقد علق الجنرال برنارد فرجسون على ذلك بقوله : « إن العبارة التى أشير فيها إلى وجود موانٍ صناعية قد أمدتنا بشعاع الأمل الذى كنا ننتظره ، وذلك عندما بسط مونتباتن أمامنا قائمة بالمعدات التى ينبغى تجهيزها ، ومن بينها الرصيف العائم الذى تخيله ويبلغ طوله ميلاً بحريا ، وهو من الصلابة بحيث يقاوم الرياح العاتية ، ويمكن أن ترسو عليه السفن الضخمة » .

وقد طرح كذلك فى الواقع فكرة مد خط أنابيب تحت سطح البحر ، لكى يوصل به حتى رأس الجسر الذى سيقام على شواطئ نورماندى – الوقود الذى يتطلبه تقدم القوات .

ولما بلغت هذه الفكرة ونستون تشرتشل افتتن بها ، وطلب إدخال تعديل عليها بجعل الرصيف العائم بطول ثلاثة أميال أو أربعة . غير أن العسكريين المتخصصين أقنعوه بصعوبة أن مثل هذا الطول أمر مستحيل .

* * *

لم يضيع الجنرال مورجان وقتاً ، وراح يضع مخططاته فى الإطار الذى رسمه مونتباتن ، وقد قبلت هذه المخططات يوم ١٩ من أغسطس ١٩٤٣ فى مؤتمر كويبيك الذى عقد بين روزفلت وتشرتشل ومعهما رؤساء أركان الحرب

البريطانيون والأمريكيون الأمر الذى حمل على الاعتقاد بأن رئيس العمليات المشتركة الذى كان فى هذا القبول اعتمادٌ لخطته التى تقضى بهبوط القوات فى خليج السين – تلك الخطة التى راح منذ عام ١٩٤٢ يدافع عنها بحرارة – هو الذى سيعهد إليه بمسئولية عملية (أوفر لورد) . غير أنهم سحبوه من مسرح العمليات فى الغرب ، لكى يعينوه فى منصب جديد أنشئ للتو ، هو منصب القائد الأعلى للقوات الحليفة فى جنوب شرقى آسيا .

وقد أثار هذا التعيين تعليقات مريرة فى الصحف الأمريكية التى راحت تهاجم هذا البريطانى الذى ينتمى إلى أسرة من الأمراء والذى جاء ليزيح من هذا المنصب رجلاً مثل الجنرال ماك آرثر كان يشغله عن جدارة . غير أن المهمة التى عهد بها إلى القائد الأعلى الشاب لم تكن فى الحقيقة راجعة إلى المحسوبية ، إذ إنه كان عليه أن يجابه موقفاً عسيراً إن لم يكن يدعو إلى اليأس .

ولقد تصرف مونتباتن إزاء هذا الموقف بطريقته الخاصة ، فجمع الرجال الذين وضعوا تحت إمرته ، وكانت قواهم قد استنفدت ، ويعانون من سوء التغذية ، ولا عناية طبية لديهم ، ولا يعلمون شيئاً عن الأحداث الجارية ، ويتعرضون لكارثة وراء الأخرى على أيدى عدو لا يعرفون كيف يمسكون به فى الأحراج المجهولة لهم – لقد جمعهم وراح يتحدث إليهم قائلاً : « أيها الرجال ، إذا كنتم تعتقدون أن بلادكم قد نسيتكم فهذا صحيح ، بل إن الأمر أسوأ من ذلك ، إذ إنه مامن أحد فى بريطانيا قد سمع أى شىء عنكم ، لكنهم سيعرفون منذ الآن من تكونون ، وما الذى تقومون به . . ؟ وهذا هو الذى جعلنى آتى إلى هنا ! » .

وأخذ يشرح لهم بعد ذلك خططه ، ويوضح لهؤلاء الجنود الذين كان الأمر قد وصل بهم إلى حد أن كانوا يرون فى اليابانى عدوا غير منظور ما الذى ينتوى

أن يفعله ، فإذا بهم يهتفون له . فما إن مضى عامان على ذلك ، حتى كانت جيوش يابانية بلغ تعدادها سبعمائة ألف جندى تستسلم له ، هنا فى سنغافورة نفسها حيث ذاقت الإمبراطورية البريطانية أكبر مهانة لها فى التاريخ ، بعد أن أنزل بهذه الجيوش هزيمة منكرة .

بيد أن هذا النصر برغم الدوى الذى أحدثه لم يكن ليقارن بما كان يمكن أن يحرزه فى أوربا التى تدين له فى الحقيقة بالحرية التى عادت إليها .

* * *

وفى اليوم السادس من ديسمبر ١٩٤٣ تم تعيين الجنرال الأمريكى دوايت ديفيد آيزنهاور قائداً أعلى لقوات الحلفاء فى أوربا ، فسلم له الجنرال مورجان جميع الخطط التى وضعتها هيئة أركان حربه ، وجميع وسائل النقل التى خصصت لعملية أوفر لورد .

وقد أدلى إليه مورجان وهو يسلم له مسئولياته بالملاحظة التالية : « إن من رأيى أن المنطقة التى ستبدأ منها قوات الحلفاء هجومها ضيقة للغاية ، وذلك من طبيعته أن يسهل للعدو القيام بهجوم مضاد ، وكذلك الإضرار بعملية توصيل الإمدادات إلى رأس الجسر الذى سوف يتطلب منذ اليوم الأول كميات هائلة من العتاد والذخائر والطعام » .

وكان آيزنهاور من هذا الرأى ، وكذلك الجنرال برنارد مونتجومرى بطل موقعة العلمين الذى عين قائداً عاما للقوات البرية التى خصصت للغزو ، وتضم الجيش البريطانى الحادى عشر بقيادة الجنرال دمبسى ، والجيش الأمريكى الأول بقيادة الجنرال برادلى ، ويعمل تحت إمرة الأول الجنرالان « كروكر » و « بوكنال » ويتوليان الفيلق الأول والفيلق الثلاثين ، ويعمل تحت إمرة الآخر الجنرالان « جيرو » و « كولنز » اللذان يرأسان الفيلقين الخامس والسابع الأمريكيين .

ومن أجل توسيع منطقة الهجوم كان لابد من عدد أكبر من السفن ، فطلب آيزنهاور على الفور تجميع كل ما يمكن جمعه منها من أرجاء العالم كافة غير أنه قدر كذلك عدد الزوارق المخصصة لإنزال الجنود بما يزيد كثيراً عما كان مقدراً من قبل ، برغم أن معدل إنتاج هذه الزوارق لم يكن فى الإمكان زيادته .

وكان من شأن ذلك أن عمليه أوفر لورد - التى كان محددا لها الأول من شهر مايو وفقاً للوعود التى قطعت لستالين الذى كان يطالب بفتح جبهة ثانية تخفف العبء الواقع على الجيش الروسى الذى كان مشتبكاً مع القوات الألمانية - قد تأجلت إلى الأول من شهر يونية . وكان الذى قدم هذه الوعود هو روزفلت وتشرتشل معاً خلال انعقاد مؤتمر طهران الذى حضره الزعماء الثلاثة قبل تعيين الجنرال آيزنهاور على رأس الجهاز الذى سمى « القيادة العليا لقوات الغزو المتحالفة » .

وقد فسر جوزيف ستالين هذا التأجيل الاضطرارى على أنه نكوص من جانب حلفاء الغرب ، فحاول تشرتشل دون جدوى إقناع آيزنهاور بأن فى الإمكان القيام بعملية أوفر لورد فى شهر مايو .

وفى هذه الأثناء انتهى آيزنهاور من تشكيل هيئة قيادة حربه ، فاختار كلاً من مارشال الجو البريطانى آرثر وليام تيدر مساعداً له ، ونائب الأميرال البريطانى رامزى قائداً للقوات البحرية ، ومارشال الجو البريطانى مالورى قائداً للقوات الجوية ، والجنرال مونتجومرى البريطانى أيضاً قائداً للقوات البرية .

كان آيزنهاور - وهو رجل حصيف - يرد بهذا الاختيار على مطلبين : أولهما : إرضاء الكرامة البريطانية التى ربما تكون قد جرحت من جراء تعيين جنرال أمريكى ليرأس عملية يقع مسرحها فى الأرض البريطانية ، والآخر أن يوفر لنفسه كل فرص النجاح ، وذلك بأن يحيط به ضباط عظام لهم خبرة تفوق

خبرة الضباط الأمريكيين ، غير أنه قد حرص على أن يجعل على قمة أركان حربه رجلاً أمريكيًّا هو الجنرال بيدل سميث ، على أن يساعده فى ذلك الجنرال البريطانى مورجان الذى وضع المخططات الأولى لعملية الغزو .

وقد زاد آيزنهاور من اتساع منطقة الهجوم ، فجعلها تسعين كيلو متر تبدأ من الضفة اليسرى لمضيق (ديفز) ، وتمتد حتى نقطة عند الساحل الشرقى لمنطقة (كونتنتان) التى فى مواجهة رصيف (كاردونيه) أسفل جزر سان ماركوف بقليل . وقسمت هذه المنطقة خمسة قطاعات ثلاثة منها ناحية الشرق وخصصت للبريطانيين ، والقطاعان الآخران ناحية الغرب ، وخصصا للأمريكيين وأطلق على القطاعات الثلاثة الأولى أسماء رمزية هى (سورد) و (جونو) و (جولد) ، وعلى القطاعين الأمريكيين (أوماها) و (أوتاه) .

كان منتظراً أن تحظى العملية بدعم واسع النطاق من القوات المحمولة جوًّا من كلا الجانبين الأمريكى والبريطانى حيث الفرقة البريطانية السادسة ترابط فى الشرق ، وفى الغرب الفرقتان الأمريكيتان (١٠١) ، و (٨٢) . وقد تحدد عدد السفن برقم أسطورى هو **٥٣٣٣** سفينة شاملة لكل نوع ، منها : **٢٧٢٧** كان عليها أن تعبر بحر المانش فى يوم الهجوم نفسه ، فى الوقت الذى تشترك فيه نفسه **٩٢١٠** طائرات فى العملية بصورة مباشرة ، بالإضافة إلى العون غير المباشر من جانب عدد هائل من قاذفات القنابل الثقيلة .

وقد وضع ضابط بريطانى كبير يتصف بالدقة المعروفة نفسها عن لورد مونتباتن فى كل شىء إحصائية ، جاء فيها أنه طوال الساعات الأربع والعشرين كانت هناك طائرة بريطانية أو أمريكية تقلع كل ثلاث ثوان ونصف الثانية من أحد المطارات البريطانية طوال أيام الهجوم . وكان على بعض السفن التى اتخذت قواعد لها فى أسكتلندا وآيرلندا الشمالية ؛ لكى تلتزم بالمواعيد التى

حددت لها ؛ لتكون أمام سواحل الهبوط – أن تظل فى البحر لمدة اثنين وسبعين ساعة قبل حلول ساعة الصفر.

* * *

وكان هناك سؤال مطروح يقول : « هل من الملائم أن يقع الهجوم عندما يكون بحر المانش فى حالة مد ، أو فى حالة جزر ؟ فلقد كان الأمر يتعلق بقرار من الدرجة الأولى من الأهمية يتوقف عليه نجاح أو فشل العملية :

ذلك أن العدو الألمانى وضع على الشواطئ الفرنسية معوقات من جميع الأنواع ، وصفتها تقارير المقاومة داخل فرنسا ، ثم قامت طائرات الاستطلاع بتصويرها من جميع زواياها : ومن بين هذه المعوقات أوتاد خشبية متصلة بألغام مدفونة فى باطن الأرض ، وجاهزة للانفجار لدى أقل لمسة . ومنها كذلك ركائز من الأسمنت المسلح لها أسنان من الصلب تشق أى سيارة تمر فوقها إلى نصفين . ثم ينفجر منها لغم سرى يدمر بقاياها !

وكان هناك نوع من الأسلاك الشائكة عرف باسم « القنفذ الشبكى » . يصنع من قطع من قضبان السكك الحديدية ، وتجمع على شكل صليب له قاعدة من الأسمنت المسلح تدفن فى الرمال ، إلى جانب معوقات على شكل الهرم الثلاثى القاعدة .

وقد رأى خبراء الحلفاء أن من شأن هذه العوائق إغراق زوارق إنزال الجنود التى تجىء من البحر فى أثناء المد ؛ لأنها تكون مغمورة تحت الماء ، فلا يفطن إليها أحد .

وهنا سأل الخبراء أنفسهم مرة أخرى : هل يكون من الأفضل إذن أن يقع الهجوم مع الجزر البحرى ؟

وقد وجدوا أن هذا الافتراض هو أخطر ما يتعرض له المهاجمون ، خلال

تقدمهم البطيء على أرض الشاطئ التى تكون مياه البحر قد انحسرت عنها ، لأنها أرض رملية تغوص فيها الأقدام ، وتمتد إلى مسافات طويلة ؛ مما يعرضهم لوابل من نيران العدو فترة طويلة بغير أن يكون هناك مايحميهم من هذه النيران .

وطرح الموضوع للمناقشة التى تبين منها أن هذا الافتراض أقل خطورة من الأول ، شريطة أن يجرى تقدم المهاجمين تحت غطاء من نيران السفن الحربية الواقفة فى عرض البحر ، على حين يقوم السلاح الجوى بدك حصون حائط الأطلنطى ، ومن ثم تتقدم الدبابات لتشق الطريق أمام المشاة .

غير أن مسألة المد والجزر لم تكن هى المشكلة (الوحيدة) التى يتعين البحث لها عن حل ؟ وإنما كانت هناك مشكلة أخرى ، هى : هل ينبغى أن يقع الهجوم ليلاً ، أو نهاراً ؟

لقد كان بديهيًّا أن الليل يتيح ميزة مفاجأة العدو وأخذه على غرة ، لكن السفن الحربية والسلاح الجوى فى حاجة إلى رؤية واضحة ، لكى تركز نيرانهما على الدفاعات التى يراد إسكاتها ، ومن هنا طالب كل من السلاح الجوى والبحرية على الأقل بساعة واحدة من ضوء النهار .

وعلى ذلك تقرر أن يبدأ الهجوم بعد الفجر بساعة ، كما أن دراسة مواعيد المد والجزر بينت أن أفضل الظروف بشأنهما سوف تتهيأ يوم الثلاثاء الموافق يوم ٦ من يونية . غير أنه فى حالة الضرورة القصوى فإن فى الإمكان القيام به إما يوم الاثنين الخامس من الشهر نفسه وإما يوم الأربعاء السابع منه ، أما غير ذلك فيتعين الانتظار حتى يوم ٢٠ من يونية ، لكى تتهيأ الظروف نفسها مرة أخرى مع زوال ميزة الاستفادة من ضوء القمر الذى كان سيتوفر فى الموعد الأول ، وهو أمر لاغنى عنه لعمليتى إسقاط الجنود بالمظلات من الطائرات ، وهبوطهم على الأرض .

وبقيت بعد ذلك مسألة الرياح مضافة إليها مسألة الرؤية والعمق الجوى المطلوبين للطائرات . وقد توصل الخبراء بشأنهما إلى أن قوة الرياح يجب ألا تتعدى ٢٩ كيلو متر فى الساعة فوق البحر ، و ٢٠ كيلو متر فى الساعة فوق الشاطئ ، وأن تمتد الرؤية إلى خمسة كيلو مترات ، مع عمق ٩٠٠ متر على الأقل .

وبالرجوع إلى سجلات قرن كامل درست فيه الأحوال الجوية التى كانت سائدة خلاله – أمكن التوصل إلى أن مثل هذه ظروف مجتمعة لايمكن أن تتحقق إلا بنسبة فرصة واحدة من ثلاث عشرة فرصة .

ولقد كان فى المقام الأول من الأهمية التعرف بكل دقة على طبيعة تكوين التربة على الشاطئ الفرنسى ، حيث سيتم إنزال القوات ، للتيقن من أن الدبابات والعربات المختلفة تستطيع التحرك فوقها بغير أن تنهار تحتها وتنغرس فيها ، وكذلك لتحديد قوة الضغط التى يتعين أن تكون عليها عجلات المطاط ، إذا دعت الحاجة إلى استخدامها .

واتجه التفكر إلى شبكات التجسس التى تعمل لمصلحة الحلفاء داخل فرنسا ؛ لكى تأتى بعينات من هذه التربة ، على أن تتولى المقاومة الداخلية مهمة إرسالها بعد ذلك إلى بريطانيا ، غير أن الحراسة الصارمة التى فرضها الألمان لم تترك مجالاً لأحد للاقتراب من الشواطئ .

شخص واحد استطاع القيام بالمهمة ، هو شيخ عجوز يقيم فى منطقة قريبة من الشاطئ ، ثم أبعده الألمان إلى الداخل ، نظراً إلى أن موقع بيته يشكل نقطة مراقبة خطيرة ، ولكنهم صرحوا له بالتنزه بعض الوقت على الشاطئ ، يقوده طفل فى السابعة من عمره لأن الشيخ كان مكفوف البصر .

ولو أن أحد أولئك الألمان كان يتمتع بحاسة سمع قوية لأمكنه أن ينصت إلى

ذلك الطفل وهو يرد على الأسئلة التى يوجهها إليه ذلك الشيخ الكفيف ، فيصف له مايراه تحت قدميه ومن حوله ! وبتلك الذاكرة الحادة التى يتمتع بها المكفوفون – كان العجوز يسجل كل مايقوله الطفل ، ثم يمليه على زوجته بعد عودته ، فتبعث به تقريراً إلى شبكات الاتصال !

لكن الطفل لم يكن يستطيع الاقتراب من العوائق المنصوبة على الشاطئ ، دون أن يجتذب انتباه الحراس ، كما أنه لم يكن فى وسعه التقاط أى عينة من الأرض ، وإذا عجزت شبكات التجسس التى تعمل لحساب الحلفاء فى فرنسا عن إنجاز هذه المهمة – تقرر إنشاء مجموعات من رجال الكوماندوز تكلف بأعمال الاكتشاف فتكونت من متطوعين يتم نقلهم إلى الشواطئ الفرنسية بغواصات صغيرة لاتتسع الواحدة منها لأكثر من ثلاثة أفراد .

وتحسبا لما قد يحدث إذا اعتقل بعضهم فيعترفون تحت التعذيب للعدو بما يستدل منه على المنطقة التى سوف يقع فيها غزو الحلفاء – رُئى توسيع المنطقة التى تجرى فيها عملية الاكتشاف بما يجاوز تلك التى سيقع فيها الهجوم بكثير . وقد حدث بالفعل أن وقع عدد من هؤلاء المتطوعين فى أيدى الألمان ، فحققوا معهم وحاكموهم وأعدموهم ، برغم أنهم ضبطوا فى مواقع من الشاطئ بعيدة كل البعد عن المنطقة التى تحددت لعملية أوفرلورد .

غير أن بعض المتطوعين أنجزوا عدة مهام ناجحة برغم ما اعترضهم من أخطار ، ومن هؤلاء رجل من إقليم برتيانى الفرنسى وصل سباحة إلى الشاطئ ، بعد أن نقله أحد الزوارق السريعة .

كانت مهمته أن يقتطع من أحد العوائق الحديثة التى كشفت عنها صورة التقطت من الجو بدا للخبراء أنه نوع بالغ القوة من شأنه أن يلتصق بأى زورق

ولا ينفصل عنه أبداً – أن يقتطع جزءاً صغيراً من المعدن الذى صنع منه ، لإمكان تحديد العبوة الناسفة التى يمكن أن تدمره .

وقد جاء الفرنسى بذلك الجزء ، وتم فحصه فى بريطانيا ، فتبين أن هذا النوع من العوائق مصنوع من قضبان فرنسية ، لكن ضابطاً فى أركان حرب الجنرال آيزنهاور تذكر أنه قد أرسلت من الولايات المتحدة إلى فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى – شحنة من القضبان الأمريكية التى لا تؤثر فيها أقوى المتفجرات .

وعندئذ كان السؤال التالى : هل صنع الألمان هذه العوائق من الصلب الذى صنعت منه القضبان الفرنسية ، أو الأمريكية ؟ وللرد على هذا السؤال كان لابد من القيام بمهمة أخرى فى فرنسا لتحديد نوع هذا الصلب . وقد أنجزت المهمة بالفعل ، وثبت منها أنه من النوع الفرنسى .

وذكر ضابط آخر أن سيارته انغرست فى بقعة على الشاطئ الفرنسى ، عندما كان يقضى هناك إجازة قبل نشوب الحرب ، حيث انتشر نوع خاص من الطين فى كل مكان من ذلك الشاطئ . وهنا نشأ سؤال جديد ، عن احتمال أن تنغرس فيه جنازير الدبابات المهاجمة .

فلما بلغ السؤال مسامع الجنرال مونتجومرى – أخذه على محمل الجد . وأصدر أمراً لإجراء تحقيق يقوم به السلاح الجوى البريطانى الذى التقط عدة صور جرى تكبيرها ، أظهرت وجود بقع كثيرة من الطين فى المنطقة التى سيقع فيها الغزو ، وعلى الفور طرأت فكرة الحصول على عينات من الشاطئ الفرنسى لولا أن أحد الجيولوجيين قرأ فى المتحف البريطانى دراسة تضمنت شريحة من الطين الفرنسى تبين منها أنه مالم يتم تزويد الدبابات الحليفة بوسيلة ما – فإنها

تغوص فى رمال شواطئ نورماندى !

وتقدم بالحل رجل بسيط تمثل فى تركيب أسطوانة فى مقدمة كل دبابة . ليدور حولها نوع من القماش الغليظ والمتين . فتفترشه جنازيرها ، فيصبح بمثابة طبقة تستند عليها ، وتمر فوقها بسهولة .

الفصل الرابع

السر الأعظم .. الذى يسعى وراءه هتلر

أوردنا فى الفصل السابق بعض الصعاب التى تعين على هيئة أركان حرب الجنرال آيزنهاور أن تجد لها حلولاً قبل بدء الغزو ، غير أن نجاح خطة أوفرلورد قام أساساً على عنصر المفاجأة الذى تطلب الاحتفاظ بسرها حتى النهاية برغم محاولات الألمان للوقوف عليه . إذ كان من غير المتصور أنهم لايعلمون أن الحلفاء يعدون للنزول بقواتهم فى القارة خلال عام ١٩٤٤ ، وإزاء ذلك حرص الحلفاء كل الحرص على ألا يتسرب أى شىء من تفاصيل خطة الغزو ؛ لأنهم أدركوا أن هذا التسرب من شأنه أن يقضى مقدماً على نسبة كبيرة من فرص نجاحه .

* * *

ولقد كان الاعتقاد العام فى الدوائر العسكرية فى لندن هو أن ما سوف يحدث على الشاطئ الفرنسى عندما يبدأ الهجوم ، سيكون مجزرة بشرية ، ونتيجة لذلك كان القلق المشوب بالإحساس بالعذاب يسود مئات المكاتب التى تكونت منها هيئة أركان حرب القوات الحليفة ، حيث يجرى إعداد تفاصيل خطط العمليات .

وفى تلك الأيام امتلأت العاصمة البريطانية بشائعات مغرقة فى التشاؤم ، وراح الجميع لا ينتظرون غير الدمار والخراب ، وهى توقعات قامت على حقائق ثابتة . ومن هذه الحقائق أن الإنتاج الحربى الألمانى كان ماضياً على أعلى درجات معدلاته برغم الغارات الجوية الكثيفة التى تقوم بها طائرات الحلفاء ؛ كما أن

الجنود الألمان الذين وقعوا فى الأسر عندما نزلت القوات البريطانية والأمريكية فى إيطاليا – كانوا فى حالة معنوية رائعة ؛ ممادل على أنهم واثقون تماماً من أن النصر النهائى فى الحرب سيكون لألمانيا ، فضلاً عن أن السكان المدنيين فى المدن الألمانية لم يكونوا يشعرون بأدنى خوف خلال الغارات الجوية التى تقوم بها طائرات الحلفاء !

ثم كانت هناك المخاوف الكثيرة التى ساورت الشعب البريطانى من جراء ماتردد عن وجود أسلحة سرية يعدها هتلر ، وينوى استخدامها فى وقت قريب ، إلى جانب ماتنقله المقاومة من أنباء تؤكد أن الألمان يدعمون مواقعهم ، ويعززون قواتهم بدليل أن المارشال فون رونشتت الذى لم يكن تحت إمرته سوى ست وأربعين فرقة – سوف يصبح مجموع قواته ستين فرقة فى شهر يونية ، وهو مايوازى ربع تعداد الجيش الألمانى .

وبينما كان ضابط المخابرات فى قيادة الجنرال مونتجومرى يقوم يوم ٢ من أبريل ١٩٤٤ بتحليل المعلومات التى بعثت بها شبكات التجسس فى فرنسا – إذا به يتوصل فى تحليله إلى المخطط الألمانى بالدقة التى كانت هى نفسها ستتاح له ، لو أنه كان قد استطاع أن يستمع إلى هتلر وهو يعرض هذا المخطط على جنرالاته يوم ٢٠ من مارس السابق !

وقد كتب هذا الضابط فى تقريره يقول : « يبدو أن الألمان يتعرضون لكوارث جديدة فى الجبهة الشرقية أكثر فظاعة من سابقاتها ، وذلك رغبة منهم فى الإبقاء على جميع الفرص متاحة لهم فى الغرب . إن هذه لعبة غريبة من وجهة النظر العسكرية ، ولكنها قد تصبح مفهومة من وجهة النظر السياسية ، إذا تحقق أملهم فى عقد سلام يقوم على حل وسط لو أن هذه الخطة أتت بكل

ثمراتها : أى أنهم سوف يسمحون بوقوع عدة كوارث على غرار كارثة ستالنجراد على أمل أن يحققوا فى مقابل ذلك « دنكرك » واحدة جديدة ! ».

* * *

كان من شأن الكلمة الأخيرة من هذا التحليل وهى (دنكرك) أن أعادت فتح جرح قديم لم يلتئم بعد ! وأثارت احتمال حدوث حمام دم جديد ، وبعد دراسة طويلة أجمعت الآراء على أن أبريل سوف يكون أكثر الشهور بشاعة : ذلك أن النشاط المحموم الذى كانت تجرى به الاستعدادات الأخيرة ، وقرب وقوع الغزو – لم يستطيعا الذهاب بالمخاوف الكامنة ؛ كما أن عملية أوفرلورد كانت لا تزال شيئاً تجريديًّا لا كيان له ، لا يزيد عن مجرد أمل يداعب خيال رجال الحرب النظريين ، وتقوم على إعداده منذ أكثر من عامين مجموعة من هيئة الأركان . وفضلاً عن ذلك – فإن الأمر لم يكن قد وصل بعد إلى حد أن توضع على شكل معادلة النظرية المثلى لحمولة القوارب التى ستحمل الجنود ، وكل ما هناك أنهم راحوا يعدون المادة التى تحشى بها المدافع ؛ لكى تلقى على ذلك الحائط .

وليس هذا الحائط هو على وجه التحديد جدار الأسمنت والصلب الذى مافتئ (جوبلز) وزير الدعاية الألمانى يقول إنه غير قابل للاقتحام ؛ وإنما هو سلسلة من الحصون تقول تقارير المقاومة إنها سيئة التصميم ، سيئة البناء والتسليح . غير أن هذه العيوب مجتمعة لم تكن لتحول دون اعتبارها أقوى خط دفاعى منيع عرفه العالم من قبل . ولقد يكون شبيهاً بالحبل الملىء بالعقد الدقيقة ، مما يجعله هشًّا قابلاً للتحطيم . لولا تلك العقد الصلبة فى كل من (أوستك) و (لوهوك) ، وعلى شواطئ (كاليه) الصخرية التى ستعرف فيما بعد باسم شواطئ أوماها الدامية .

ولو أضيفت دفاعات (سالرنو) الإيطالية الهائلة الحجم إلى دفاعات (أنزيو) التى تكسرت عليها هجمات قوات الحلفاء خلال تقدمها فى إيطاليا - لكانت فى مجموعها أقل بكثير من دفاعات (أوماها) وحدها : فقد كانت هذه تشمل ثمانية معاقل محصنة مخصصة للمدفعية الثابتة ، وخمسة وثلاثين حصناً للمدفعية الخفيفة ، ومثلها للأسلحة الأتوماتيكية ، وثمانى عشرة قطعة مدفعية مضادة للدبابات ، وأربع بطاريات مدفعية عادية ، وست بطاريات من مدافع الهاون ، وخمساً وثلاثين من قاذفات الصواريخ ذات المواسير الأربعة ، وخمسة وثمانين عشًا للمدافع الرشاشة .

* * *

والواقع أن جنود الحلفاء كان الخوف يراودهم من جراء هذا الحائط ، وكانوا على حق فى هذا الخوف : فقد تبين فيما بعد أن ثمانى المائة الجندى الألمان الذين كانوا فى انتظارهم على شاطئ (أوماها) - قتلوا منهم أو أصابوا ثلاثة آلاف ، خلال بضع ساعات !

وأجرت قيادة الحلفاء حساباتها بالنسبة للحائط ، ولم تكن مخطئة فى ذلك : فلسوف يتم انتزاعه من مكانه ، ولكن بشرط دفع الثمن ، وهو ما قدره علماء الرياضة من العسكريين فى لندن بحوالى عشرة آلاف قتيل على الأقل . غير أن هذا التقدير كان أكبر مما تطلب الأمر ؛ نظراً إلى أن بعضاً من المدافع الرشاشة الألمانية قد انحشرت فيها طلقاتها ، وبعضها الآخر قد أعوزته الذخيرة ، قبل أن يسقط من القوات المهاجمة كل هذا العدد من القتلى .

وعندما أبلغوا الجنرال آيزنهاور هذا التقدير لم يتراجع ولم يهتز ، وإنما أبدى عزماً على المضى قدماً فى خطته ، حتى لو كلفه الأمر ضعف هذا الثمن ! وكانت لديه الوسائل لذلك . ولكى يقتلع مساعده الجنرال عمر برادلى القوة الألمانية

التى تتولى الدفاع عن حصون (أوماها) من مخابئها المصنوعة من الأسمنت المسلح فإنه وضع تحت إمرته مجموعة جيوش كاملة ، وكان ذلك هو الذى حمل هذا القائد الذى اتسم بالحياء والتواضع والحذر – على أن يصرح للمراسلين الحوبيين بقوله : إن عملية اقتحام الشاطئ الفرنسى سوف تكون عسيرة ، ولكن ذلك لايبعث فينا أى شعور بالقلق ! » .

لكن المشكلة الحقيقية بالنسبة للحلفاء كانت تكمن فى تشبث قواتهم بالأرض التى سوف يهبطون فوقها برغم ضربات المطارق التى لن تلبث أن تنهمر عليهم كالمطر : ذلك أن الألمان الذين سيكونون فى موقف الدفاع يستطيعون أن يجلبوا تعزيزات بما لديهم من طرق برية أو خطوط حديدية علماً بأن الخطوط الفرنسية كانت فى هذه الفترة أفضل مافى أوربا كلها .

ثم إن الألمان كان فى وسعهم حشد قواتهم بأقصى درجة من السرعة ، أما المهاجمون فعلى العكس من ذلك لايستطيعون تعزيز قواتهم إلا عن طريق البحر ، ، وهو طريق غاية فى البطء ؛ لما فيه من مشاكل شحن وتفريغ تتطلب وقتاً طويلاً. من هنا فإن المهاجمين سرعان مايفقدون ميزة التفوق العددى التى يبدءون بها حتى إذا كان وراءهم جيش هائل الحجم ، وهو ما كان لدى الحلفاء بالفعل – فإنهم لن يستطيعوا أن يحصلوا منه إلا بالقدر الذى تتيحه عملية وصول السفن وتفريغ مابها على الشاطئ ، بل إنه قبل أن تصبح هذه الحمولات جاهزة للعمل ، تكون تعزيزات العدو قد فاقت القوات التى تهبط على الشاطئ ، ويتاح لها بذلك إلقاؤها فى البحر ، وهو ما حدث قبل ذلك فى سالرنو وأنزيو بإيطاليا .

والواقع أن ما كان يخشى حدوثه فى نورماندى كان أكثر من ذلك ، إذ إن الموجات الأولى من القوات المتحالفة التى نزلت فى أنزيو استطاعت الهبوط دون

أنْ تصادف مقاومة حقيقية ، على حين أنها فى نورماندى سوف تتعرض لضرب عنيف من جانب المدافعين عن الحائط كلما ظهرت منها موجة وراء الأخرى . وقد لخص الجنرال عمر برادلى المشكله بقوله « إن هذه العملية تتوقف بصفة خاصة على التعزيزات : ذلك أن مسألة الهبوط على الشاطئ تكاد تكون ميسورة ، إلا أن عملية التشبث بالأرض ليست ممكنة دائماً » .

* * *

وهكذا فإن ما اتفق على تسميته بأطول يوم فى تاريخ الحلفاء لم يكن على وجه التحديد يوم الهجوم ؛ وإنما كان يوم الهجوم + ٣ : ففى هذا الموعد يمكن الألمان نظريًّا أن يلقوا فى المعركة مابين ثمانى عشرة وعشرين فرقة ، منها ثمانى فرق مدرعة . على حين أن الجنرال آيزنهاور سوف يكون لديه من أجل احتواء **هذا الفيض فى يوم الهجوم + ٣ -- لا أكثر من ثلاث عشرة فرقة ، منها عناصر فرقتين مدرعتين !**

لقد كان طبيعيًّا أن يعتمد الحلفاء على عمليات القصف الجوى وعلى عمليات التخريب التى تقوم بها المقاومة من أجل تأخير تجميع القوات الألمانية ، وتقليل الفارق بين الجانبين ، وهو أمل ينهض على أساس لابأس به . وقد احتاجت الفرقة ٢٧٥ الألمانية من قوات المشاة إلى أسبوع كامل ؛ لكى تقطع مسافة المائتين والخمسين كيلو مترٍ التى تفصلها عن إقليم بريتانى حيث كانت مرابطة ، وتصل إلى ميدان المعركة ، وكذلك فإن الفرقة السادسة عشرة التى بدأت سيرها من لاهاى اضطرت إلى المرور من بلجيكا ، ثم من إقليم رينانيا وشمالى فرنسا قبل أن تصل إلى خطوط القتال . وكذلك استغرقت الفرقتان التاسعة والعاشرة من قوات العاصفة المدرعة من الوقت ؛ لكى تجيئا من ستراسبورج إلى نورماندى أكثر مما كانتا تحتاجان إليه لو أنهما كانتا قد جاءتا من بولندا حتى الجبهة الفرنسية .

وبرغم هذه الفترات الطويلة فإن اختلال التوازن بين الجانبين ظل خطيراً . مما اضطر تشرتشل الذى عادة مايستغرقه التفاؤل إلى أن يعلق آماله على مقاومة مستميتة من جانب قوات الحلفاء يمكنها بها تجنب أن يلقى بها الألمان فى البحر ! وربما كان ذلك هو الذى حدا به – فى شهر أبريل من عام ١٩٤٤ – إلى أن يقول للجنرال آيزنهاور : « لو أنك استطعت مع مقدم الشتاء أن تدعم مواقع الفرق الست والثلاثين التى تحت قيادتك على أرض القارة ، وإذا استطعت أن تحتفظ بكل من شربورج وبريتانى – فلسوف يكون فى إمكانى أن أعلن على العالم بأسره أن هذه هى أنجح عملية قمنا بها خلال الحرب .

* * *

وفى ذلك الوقت كان هناك افتراض يفكر فيه الجميع ، ولكن بغير أن يواجهه أحد :

فلكى يتنبأ علماء الرياضة فى لندن بالنسبة التى ستكون عليها القوات خلال الفترة ابتداء من اليوم الثالث بعد الهجوم حتى اليوم الثلاثين بعده – كان عليهم القيام بعمليات حسابية شاقة تقوم أساساً على معطيات دقيقة ومحددة ولتكن متمثلة فى الفرقة الألمانية السادسة عشرة المرابطة فى لاهاى .

لقد كانوا يعرفون متوسط الوقت اللازم لتحريك فرقة من هذا النوع ، ويعرفون أن جسراً معيناً يجرى تدميره سوف تضطر معه هذه الفرقة إلى القيام بدورة معينة . وقد توصلوا بالحساب إلى أن قصفاً بالقنابل تتعرض له إحدى محطات الفرز سوف يؤدى حتماً إلى تأخير معين ؛ إذ كانوا قد تابعوا منذ عدة أشهر قياس الوقت الذى تستغرقه عمليات إصلاح الخطوط الحديدية التى تتعرض للقصف .

ومع أنه كان من الصعوبة بمكان التكهن مقدماً بالنتائج التى تسفر عنها

العمليات التى يقوم بها رجال المقاومة – فإنه مع اعتبارٍ لعوامل الأمن كان يمكن أن تؤدى هذه العمليات إلى تأخير إضافى .

وبعد كل هذه الحسابات – توصل علماء الرياضة إلى أن الفرقة السادسة عشرة المشار إليها لن تصل إلى الجبهة إلا بعد يوم الهجوم بخمسة عشر يوماً .

غير أنه كان هناك تحفظ رئيسى : فالمادة التى يجرى عليها هؤلاء العلماء حساباتهم مادة حية وليست جماداً ، والفرقة الألمانية السادسة عشرة ليست ثابتة فى لاهاى بمرسوم لا ينقض ؛ إذ يكفى أن يصدر أمر عن القيادة الألمانية العامة حتى تنتقل هذه الفرقة من مكانها لترابط فى (كاين) . فإذا هى فعلت ذلك أفلتت بطبيعة الحال مما يدبره لها السلاح الجوى للحلفاء ورجال المقاومة ، سواء بقطع الجسور أو بتعرضها لأعمال النسف والتخريب ، وبذلك تنقلب كل التوقعات ، ويتغير الموقف لمصلحة الألمان !

ولقد كان يكفى من أجل أن تنهار كل الحسابات الدقيقة التى قامت عليها عملية أوفرلورد – أن يكتشف الألمان سر منطقة هبوط قوات الحلفاء .فهل كان لابد أن يتضمن ذلك معرفة الشواطئ التى سيتم فيها هذا الهبوط على وجه الدقة ؟ لم يكن هناك مايدعو إلى ذلك ، فهم ليسوا فى حاجة إلا إلى اسم الإقليم ، وهل هو بريتانى أو نورماندى أو رأس كاليه . وعن طريق إعادة تجميع قواتهم ، وتخفيض الفترة التى يمكنهم بعدها التدخل فى القتال إلى أقل ما يمكن فإنهم يستطيعون الانقضاض على القوات الهزيلة التى ستهبط على الشاطئ ، وتوجه إليها الضربة القاتلة .

وإذا كان الجنرال آيزنهاور لا يعمد عند ذلك إلى إلغاء عملية أوفرلورد بأكملها -- فإنه سيكون كمن يبعث برجاله متعمداً إلى المذبحة !

وهكذا قام وضع عجيب : فالألمان بحالة الضعف التى هم عليها لا يمكنهم

أن يأملوا إحراز النصر إلا إذا هم كشفوا سر الحلفاء ، وهذا هو الشرط الضرورى والكافى ، لكى يتاح لهم أن يستخدموا فى الوقت المناسب قبضتهم الفولاذية المتمثلة فى فرق مدرعاتهم ، وفى قواتهم المنتقاة .

أما الحلفاء فإنهم برغم قواتهم المتفوقة لا أمل لهم فى الانتصار إلا إذا هم احتفظوا حتى النهاية بسر عملية أوفرلورد ، وهذا هو الشرط الضرورى والكافى ، لكى تبقى القوات التى ستهبط على الشاطئ على قيد الحياة طوال فترة الأيام العشرة الأولى الحرجة ، فتتيح بذلك للجزء الأكبر من جيوش الحلفاء الوصول إلى خطوط القتال .

فهل سبق لآلهة الحرب بمثل هذه التسوية فى المزايا للطرفين المتقاتلين اللذين أعطت كلاً منهما فرصته – أن دبرت مثل هذه العقدة بهذه البساطة الخطيرة ؟

وفى لندن : لم يكن الجنرال توماس باتس ليقبل أن يراهن بدولار واحد على أن الحلفاء هم الذين سيفوزون : فلقد كان واثقاً من أن الأعداء سوف يتوصلون إلى كشف خطة آيزنهاور ، وكان لرأيه هذا وزنه وتقديره : فنظراً لكونه مساعداً للجنرال وايتلى – كان على وجه التحديد هو الرجل الذى عهد إليه بمهمة الحفاظ على سر عملية أوفرلورد .

* * *

إن مما سهل الكثير من الأمور فى هذا الصدد – أن بريطانيا جزيرة ، لكن الذى عاد فجعلها معقدة أنها دولة ديمقراطية ، من هنا فإن هذه الحملة الصليبية الكبرى ضد الدكتاتورية الهتلرية قد بدأت بحرب أصغر على التقاليد البريطانية التحررية .

ولقد طالب القادة العسكريون بالتغاضى بعض الشىء عن التشبث بروح الديمقراطية ، إذ كانوا يريدون بصفة خاصة حظر دخول المدنيين إلى الساحل

الجنوبى من البلاد ، وقد سبق للجنرال مورجان الذى أعد طوال ثمانية عشر شهراً خطط عملية أوفرلورد – أن أشار منذ عام ١٩٤٣ لونستون تشرتشل إلى مدى السهولة التى يستطيع بها أى جاسوس ألمانى التعرف على الاتجاه العام لهجوم الحلفاء .

فلو أن أفضل القوات قد تجمعت فى الجنوب الشرقى من بريطانيا لكانت نقطة هجومها هى رأس كاليه ، ولو أنها حشدت فى الجنوب الغربى فإن اتجاهها سيكون إلى نورماندى أو إلى بريتانى ، وهى طريقة استدلال بسيطة وواضحة فى الوقت نفسه !

ورفض تشرتشل ومجلس حربه طلب الجنرال مورجان باسم مبادئ الديمقراطية ، فرد مورجان بأن الحكومة تلجأ إلى نوع من الصغار فى سياستها رغبة منها فى عدم إغضاب الجماهير ، ثم قال : « إذا نحن فشلنا فى العملية التى نعد لها فلن يكون الأمر حينئذ مسألة سياسية » .

حتى شهر مارس من عام ١٩٤٤ – ظل الأمر على ماهو عليه دون تغيير : لقد اكتفى ابتداء من يوم ٩ فبراير بوقف المرور المدنى بين آيرلندا وبريطانيا ، وكان هذا إجراء لابد منه ؛ نظراً إلى أن آيرلندا التى لزمت الحياد كانت تمثل خطراً واضحاً : إذ كانت لألمانيا فى عاصمتها دبلن سفارة هامة شديدة الفضول .

عند ذلك عاود الجنرال مونتجومرى إثارة الموضوع ، وحث آيزنهاور على أن يستخدم سلطته ، وكتب إليه يقول : « لسوف يكون ما يثقل ضمائرنا فيما بعد لو أننا بإهمالنا أصغر إجراء للأمن – تسببنا فى إفساد نجاح هذه العمليات الحيوية . أو بددنا بغير جدوى حياة الكثير من البشر » .

ولقد تميز الجنرال آيزنهاور بأن كانت له عينان يبدو فيهما الود ، وابتسامة

رائعة مشرقة ، وطريقة مؤثرة فى الإيضاح ، فلو أنهم برغم كل ذلك رفضوا له طلباً لكان عليه أن يترك كل شيء ، ويعود إلى بيته كما اعتاد أن يقول .

والواقع أنه ما كادت تمر أربعة أيام على الخطاب الذى تلقاه من مونتجومرى حتى كانت الحكومة البريطانية تقرر أنه ابتداء من الأول من أبريل — تقوم منطقة محظورة تمتد من (ووش) — وهذه هى التسمية التى تطلق على تلك السواحل التى وراء بحر المانش وفيهما المصبان اللذان يقطعان السواحل البريطانية عن بحر الشمال عند لنكولنشاير ونورفولك — إلى كورنواى من ناحية ، وإلى ما حول فيرث أوف فورث من ناحية أخرى . وقطع هذا الستار الحديدى الجزيرة البريطانية من الشرق إلى الغرب ، فعزل قطاعاً ساحليا يبلغ عمقه ستة عشر كيلومتراً .

وقد أغضبت هذه القرارات غير الديمقراطية هتلر ، وأصابته بصدمة قوية ، مما جعله يثور ثورة عارمة يوم ٦ من أبريل أمام هيئة أركان حربه وهو يقول :

« إن هذه التصرفات البريطانية المظهرية تبدو وفقاً لآخر التقارير التى تلقيتها غريبة تدعو إلى السخرية ، من حيث إنها إجراءات أمن ؛ إنها فى العادة أمور لاتلجأ إليها الدولة عندما تخطط لعملية من هذا النوع . ولا أستطيع أن أتصور إلا أن الأمر لايعدو كونه خدعة رخيصة ! »

وقد خلق هتلر لنفسه صورة خاصة عن الجنرال باتس حارس أسرار عملية أوفرلورد ، وهى صورة زائفة تماماً . على حين أن توماس باتس نفسه كان برغم ضخامة جسده وقوته المفرطة يرتعد ذعراً ، وهو يتساءل هل أمكن هذا الستار الحديدى أن ينجح فى شل حركة جواسيس الألمان ؟

* * *

وكانت لندن فى الواقع تموج — إلى جانب جواسيس الألمان — بمجموعة

أخرى هائلة من ذوى النوايا الحسنة الذين لايخلون مع ذلك من خطر : وهؤلاء هم رجال الصحافة الذين بلغ عددهم عدة مئات ، ويحركهم شيطان اسمه البحث عن الأنباء .

وعندما توقف تقدم جيوش الحلفاء فى إيطاليا فى شهر أبريل ١٩٤٤ ، وظلت هذه الجيوش فى أماكنها منذ عدة أشهر قبل ذلك – لم يعد هناك من موضوع مثير لرجال الصحافة سوى ذلك الغزو الوشيك على الساحل الفرنسى . وكان ونستون تشرتشل يقدر ذلك بوصفه مراسلا حربيا قديماً ؛ مما حدا به إلى تحذير الجنرال آيزنهاور من الخطر الذى ينطوى عليه الأمر ، ولم يكن الخطر بطبيعة الحال ماثلاً فى رؤية أسرار عملية أوفرلورد منشورة بالتفصيل على أعمدة الصحف ؛ إذ كانت الرقابة ساهرة على الحيلولة دون ذلك ، إنما كان الخوف من أن يعمد الصحفيون إلى تجميع كل نبذة من أخبار العملية إلى جانب غيرها ، فيتوصلون إلى تكوين رؤية عامة صحيحة لخطة الغزو .

وكانت هذه المحاولات الجماعية تجرى فى مشارب شارع الصحافة ، حيث يعقد الصحفيون جلساتهم التى يحضرها كذلك العاملون فى السلك الدبلوماسى الأجنبى . ولما كان واجب الدبلوماسى هو إبلاغ حكومته بكل مايراه ويسمعه فإن تشرتشل كان يخشى أن تتلقى عواصم الدول المحايدة من المعلومات ماقد يكشف شيئاً عن أوفرلورد .

وتردد الجنرال آيزنهاور : فهو يعرف رجال الصحافة ، ويعلم أن اتخاذ إجراءات مقيدة لهم ليس من شأنها إلا أن تزيد الخوف منهم ! لقد استطاع بعد الحملة فى تونس أن يقضى على خطورتهم بأن كشف لهم مقدماً عن خطة (هيوسكى) ومعناها . . «كلب الإسكيمو» الخاصة بغزو جزيرة صقلية . ذلك أن المراسلين الحربيين الذين أوقعتهم فى الشرك هذه الطيبة التى اتسمت بالدهاء :

بأن جعلتهم موضع سر رهيب – قد كمموا أنفسهم ، فلم تصدر عن أى منهم كلمة عن الموضوع .

لكن آيزنهاور رأى أنه لا يستطيع أن يلعب هذه المرة أيضاً لعبة الثقة هذه ، وخاصة أن عملية أوفرلورد تختلف كثيراً وعملية كلب الإسكيمو. ومن أجل ذلك فقد اكتفى بأن طلب من الصحفيين الإنجليز والأمريكيين عدم التكهن بشىء عن مكان أو موعد هبوط قوات الحلفاء فى فرنسا . وفى الوقت نفسه فإنه أصدر أمراً إلى هيئة أركان حربه بأن تظهر لهم الكثير من الود ، على أن تمنع عنهم الحصول على أقل معلومة لو كانت جزئية !

الفصل الخامس

الثرثرة .. طابع مميز للرجل الفرنسى

لقد أراد تشرتشل فرض قيود على رجال الصحافة العاملين فى بريطانيا قبيل القيام بغزو أوربا ؛ تحرزاً من أن يتسرب من خلالهم السر الكبير . إلا أن الجنرال آيزنهاور تردد فى الموافقة على هذه القيود : فلقد كانت له تجربة سابقة مع الصحفيين علمته أنه كلما كانت القيود المفروضة عليهم قاسية كانوا يتحولون إلى شىء رهيب يبعث على المزيد من الخوف . .

وكانت تلك التجربة بعد انتصاره فى معركة (تونس) ، وكان يتأهب لغزو جزيرة صقلية ، فقد جمع فى تلك الأيام رجال الصحافة ، وكشف لهم مقدماً عن خطة هذا الغزو ، وكانت تعرف باسم « هوسكى » ، ومعناها (كلب من الإسكيمو) .

ووقع الصحفيون يومها فى الفخ الذى نصبه لهم آيزنهاور بطيبته التى يخفى وراءها دهاءه ؛ إذ أصبحوا أمناء على سر أودعه صدورهم ، فكان كل منهم حريصاً على عدم الإشارة إليه على الإطلاق .

لكن آيزنهاور كان من الحنكة بحيث إنه لم يجرؤ على مجرد التفكير فى تكرار خدعة منح الثقة هذه . ثم إن عملية (أوفر لورد) ليست هى عملية « هوسكى » . ولذلك فإنه اكتفى بأن طلب إلى الصحفيين الإنجليز والأمريكيين ألا يتكهنوا فى كل ما يكتبونه بمكان أو موعد أو حجم الهجوم المنتظر .

وفى الوقت نفسه أصدر أمره إلى هيئة أركان حربه بأن يلتزم كل أعضائها بأكبر قدر من الود نحو الصحافة بغير أن يفلت من ألسنتهم معهم أقلُّ نبأ . حتى

لو كان جزئيا . وقد تضمن أمره هذا أن يقدم أى ضابط من هيئة الأركان لأى صحفى قدحاً من الشاى بغير أن يتحدث أبداً عن (أوفر لورد) .

* * *

بقى بعد ذلك أن الدبلوماسيين المحايدين يستطيعون أن يحصلوا على الأنباء ، من أماكن أخرى غير قاعات الشراب فى شارع (فليت ستريت) .

وكان المفترض أن فضولهم هذا مرجعه إلى إخلاصهم لوظائفهم التى جاءوا من أجل القيام بها ، وهى إبلاغ حكوماتهم بكل ما يحصلون عليه من أخبار ، إلا أن المعلومات التى كانوا يبعثون بها إلى بلادهم كان يمكن إفشاؤها ، بل إن هذه الأنباء قد تقع بين أيد غير أمينة .

فلقد تيقنت إدارة مكافحة الجاسوسية البريطانية أن اثنين من موظفى السفارات المحايدة يعملان فى خدمة المخابرات الألمانية . من أجل ذلك ، كان يفترض أن أى دبلوماسى يعمل فى لندن يحتمل أن يكون عميلاً للجنرال (كاناريس) ، رئيس المخابرات العسكرية فى ألمانيا ، أو للجنرال (شلينبرج) ، قائد مخابرات قوات العاصفة . وأن الامتيازات التى يحصل عليها توفر له حرية عمل لا حد لها .

والواقع أنه بفضل هذه الامتيازات استطاع الملحق العسكرى المجرى فى لندن – فى بداية الحرب – أن ينقل معلومات من الدرجة الأولى إلى بودابست ، ومن هناك تسربت إلى برلين . ولقد أمكن معرفة مكان جهاز الاتصال السرى الذى خبأه هذا المجرى فى بيته ، فتسبب ذلك فى ضياعه . غير أن من السهل على الدبلوماسى العثور على وسيلة أكثر أمنا من ذلك ؛ إذ يستطيع توصيل رسائله فى الحقيبة الدبلوماسية .

وقد كان ذلك ما حمل الجنرال (مورجان) كبير المخططين فى عملية (أوفر

لورد) على أن يطلب من حكومة بريطانيا أن تتخذ ماتراه من إجراءات ملائمة . وكان من البديهى أن المطلوب هو إلغاء امتياز الحقيبة الدبلوماسية ، وكذلك أن يحظر على الدبلوماسيين حرية إرسال أى شىء مكتوب با شفرة . وكان معنى ذلك أن تتحول كل سفارة فى لندن إلى (جيتو) معزول تماماً عن العالم الخارجى .

وكانت فضيحة للجنرال (مورجان) ؛ إذ ردت وزارة الخارجية بأن ما يطالب به شىء جنونى مجرد من أى ذوق ! وصدم تشرتشل صدمة كبيرة ، وساد نوادى لندن شعور بالحزن والأسى ، وضاعف من هذا الشعور أن مورجان هذا ليس أمريكيًا ، ولكن مع الأسف إنجليزى . !

وهكذا تقرر عدم تقييد حرية حركة الدبلوماسيين ، وعدم التعرض لأسرار مكاتباتهم ، وقيل : إن ذلك لا يمكن أن يحدث ، وإلا فإن بريطانيا تفقد ماء وجهها . ونتيجة لهذا القرار – راح العاملون فى إدارات مكافحة الجاسوسية يراجعون – وكلهم شعور بالمرارة ملفات قضيتى (تايلر كينت) و (منزيس) . . .

كان الأول أمريكيًا أبوه دبلوماسى تخرج فى جامعتى (برنستون) والسوربون ، ويعرف سبع لغات عندما عين فى أكتوبر ١٩٣٩ خبيرًا للشفرة فى سفارة أمريكا فى لندن . ولم يلبث أن فتحت له صالونات العاصمة ، وخاصة لدى العناصر الفاشية الإنجليزية ، فأصبح مناهضاً للسامية ، ومناهضاً للشيوعية ، ومغرماً حتى الجنون بالبارونة (وولكوف) .

وكانت (آنا وولكوف) هذه امرأة بارعة الجمال ، تنتمى إلى أسرة من المهاجرين الروس تسحب بدلاً من الكلب الذى كان عادة للحسان – قطا ذكراً

ضخماً تجول به فى كل مكان ، وقد وضعت حول رقبته طوقاً من الذهب الخالص !

وهام بها (تايلر كينت) ؛ إذ لم يسبق له أن رأى فى حياته نساء مثلها . وما إن تعرف إليها وقضى معها ليلة أو ليلتين ؛ حتى اعترفت له بأن لها فى هذه الدنيا مهمة مقدسة ، هى القضاء على الحروب . وهى تكتفى للقيام بها – أن تصور الوثائق الهامة التى يمكن أن يطلع عليها (تايلر) فى السفارة الأمريكية .

وبفضل الحقيبة الدبلوماسية الإيطالية – وكانت إيطاليا لم تدخل الحرب بعد – نقلت البارونة الحسناء كل أسرار أمريكا وبريطانيا إلى شخصيات فى الخارج ، قالت :إنهم يعملون من أجل السلام ! .

أما الآخر(منزيس) فكان يعمل فى سفارة البرتغال فى لندن التى وصلها فى يوليو ١٩٤٢ ، وبين أمتعته الشفرة السرية والحبر السرى ، اللذان مده بهما قسم المخابرات الألمانية قبل سفره من لشبونة ، وكان عمله يقتصر على تتبع ما ينشر فى الصحف الإنجليزية ، واختيار ما يرى أنه يفيد الألمان ، ثم يبعث به عن طريق اللاسلكى مضافاً إليه ما يسمعه يتردد فى الحانات .

وقد اعتقل الجاسوسان ، ولكن بعد أن نقلا إلى الأعداء آلاف الأسرار . . !

* * *

كان الدرس الذى استفاده رجال الأمن المكلفون بحماية أسرار عملية (أوفر لورد) من هاتين القضيتين فى غاية الوضوح : فالدبلوماسى الذى يعمل فى التجسس لا يمكن التوصل إليه إلا إذا هو كشف عن نفسه بنفسه . ولم يكن أى من (تايلور كينت) أو (منزيس) مؤهلاً لهذا العمل ، ومع ذلك فكلٌ منهما قد أضر بأمن الحلفاء ضرراً بليغاً ، فإذا فرض واندس فى إحدى السفارات

فى لندن عميل ألمانى بارع أصبح السبيل الوحيد لتعطيل نشاطه هو قطع جميع خطوط اتصالاته بالخارج .

وإذ رفع الأمر إلى الجنرال آيزنهاور - فإنه أخذ على عاتقه خوض المعركة التى خسرها (مورجان) ، فأعلن أن احتمالاً لتسرب دبلوماسى يشكل (أفدح خطر يتعرض له أمن العملية ، وكذلك حياة الآلاف من الرجال) . وفى يوم ٩ من أبريل طالب باتخاذ إجراءات صارمة بأسرع وقت ممكن على أن يبدأ العمل بها يوم ١٥ من الشهر نفسه .

وتلكأت الحكومة البريطانية بعض الشيء ، ولكنها أصدرت يوم ١٧ من أبريل قانوناً يلغى نهائيًّا امتياز الحقيبة الدبلوماسية ، ويحظر إرسال الرسائل التى تكتب بالشفرة ، كما يحرم على الدبلوماسيين وأسرهم وخدمهم مغادرة بريطانيا قبل آخر شهر يونية .

وقد طبقت هذه الإجراءات كذلك على حكومات الدول الحليفة القائمة فى لندن ، مما جعل حكومات كل من بلجيكا وهولندا وبولندا والنرويج وتشيكوسلوفاكيا لا تستطيع الاتصال بسفاراتها فى الخارج ، فاحتجت وهددت بأنها ستعامل بريطانيا بالمثل ، غير أن تشرتشل لم يعبأ بهذا التهديد ، ولم يمنح أى استثناء إلا للأمريكيين والروس .

غير أنه ظلت مع ذلك مشكلة بالنسبة للروس : ذلك أن حجب سر عملية (أوفر لورد) عنهم - معناه حرمان الحلفاء من الاعتماد على الهجوم القوى الذى وعد ستالين بالقيام به فى الشرق فى الوقت الذى يهبط فيه نفسه الحلفاء فى الغرب .

لكنهم تبينوا أنهم إذا كشفوا لموسكو عن سر خطة الغزو - فسوف تتعرض الخطة للتسرب ، مما يتيح فرصة أكبر للألمان للوقوف عليها ، ومعرفة يوم

الهجوم ، وتحيرت لندن فى الأمر ، ثم توصلت أخيراً إلى حل وسط . هو أن تقوم البعثات الدبلوماسية الأمريكية والإنجليزية لدى الكرملين بتبليغ ستالين باليوم الذى سيقع فيه الغزو ، ولكن دون الكشف عن مكانه .

وهكذا أبلغ ستالين أن الهجوم سيبدأ قبل أو بعد الأول من يونية بيومين أو ثلاثة ، ولم يشيروا إلى الشاطئ الذى سيقع فيه .

ثم كانت هناك مشكلة مع فرنسا : فلقد كان لدى القادة العسكريين لقوات الحلفاء جميعاً شعور قوى بأن (السر الأعظم) سوف يتسرب حتماً إذا وقف عليه رجال (فرنسا الحرة) . الذين أقاموا حكومة مؤقتة لهم برئاسة الجنرال شارل ديجول فى الجزائر .

وكان هؤلاء القادة العسكريون يتساءلون : لماذا يتميز الإنسان الفرنسى بحب الثرثرة . والتحدث عن كل ما يعرف من أسرار ؟

وعلى أى حال فإن القيادة العليا للحلفاء – وهى أعلى هيئة عسكرية حيث ترسم الإستراتيجية العالمية – قد أصدرت أمراً صريحاً إلى الجنرال آيزنهاور بعدم إبلاغ الفرنسيين بأى كلمة أو إشارة تختص بعملية (أوفر لورد) .

* * *

كان (ريمى) رئيس شبكة المعلومات العاملة فى الأراضى الفرنسية لحساب الحلفاء فى لندن خلال هذه الفترة نفسها : أى فى شهر أبريل ١٩٤٤ ، إذ كانت هذه الشبكة قد تعرضت فى شهر نوفمبر السابق لخيانة بددت شمل رجالها ، إلى حد رئى معه أنه لا جدوى من عودة رئيسها إلى فرنسا .

وبينما كان الكولونل (أندريه ديوافران) الملقب باسم (باسى) مجتمعاً ذات يوم مع رئيس الشبكة الفرنسية أبلغه أن (هنرى فرينيه) رئيس حركة المقاومة التى ينتمى إليها قادم من الأراضى المحتلة لتوه ، وقد توقف وقتاً قصيراً فى لندن

قبل ذهابه إلى الجزائر ، ويطلب منه أن يلحق به هناك للمساعدة فى تنظيم لجنة الأسرى والنازحين التى كلفه الجنرال ديجول الإشراف عليها .

ولما كان (ريمى) يرى أن مكانه هو إلى جانب أصدقائه الذين نجوا من الاعتقال فى فرنسا ، ومازالوا ماضين فى المقاومة السرية التى أدخلهم هو بين صفوفها - فإنه رفض هذا العرض .

ومع اقتراب عام ١٩٤٤ الذى كان يعلن أنه عام الحسم ، ونظراً لأن الحلفاء كانوا يطلبون بإلحاح معلومات محددة عن وسائل دفاع العدو التى تواجه الغزو - فإنه أحس بأنه قادر على القيام بهذه المهمة بنجاح . وعلى ذلك قصد لمقابلة (أندريه مانويل) مساعد الكولونل (باسى) الذى كان يقسم وقته بين لندن والجزائر ، لكى يرفع إليه مشروعاً وضعه لهذا الغرض .

ولم يمض على ذلك سوى أربع وعشرين ساعة ؛ حتى كان (مانويل) يخبره بأن مشروعه قد تمت الموافقة عليه ، ولكنه سوف يعهدون به إلى رجل آخر ؛ إذ كان هو معروفاً تماماً لدى الألمان .

وحاول (ريمى) بكل قوته أن يقوم هو بالمهمة ، وعندما أوشك أن ينجح فى ذلك - إذا بسوء الطقس يقف ضده ، فيجعل من المستحيل إسقاطه فى الأراضى الفرنسية بالمظلة . وفى هذا الوقت بالذات - استدعاه الكولونل كلود (دانسى) الساعد الأيمن للجنرال (منزى) رئيس إدارة المخابرات الذى قال له : « إن سفرك أصبح لا مبرر له ؛ لأن البرنامج الذى قدمته لا يمكن إنجازه فى الوقت الملائم ، إلا إذا كنت فى مكانك المحدد فى الأول من شهر فبراير القادم . ولذلك يجب أن تقبل ما اقترحناه عليك » .

وكان الاقتراح خاصًّا بمشروع سمى (سوسيكس) تحددت فيه خمسون نقطة استراتيجية بين الحدود البلجيكية وحدود فرنسا الشرقية ، ويوضع فى كل

منها فريق يتكون من عميل لجمع المعلومات ، وعامل لاسلكى يزود بجهازى إرسال سوف يهبطان بالمظلة على هذه النقط ، ومهمتهما إبلاغ هيئة أركان الحلفاء بكل دقة عن تحركات العدو التى تقع حولها . وكانت عملية الهبوط بالمظلات ستتم فى الأسابيع السابقة للغزو ، والأسابيع التى تعقبه .

وقال الكولونل (دانسى) : « إننا نعتمد عليك لمد هذه الفرق بما لديك من خبرة ، وكذلك لتنظيم المهام التى يقومون بها ، وإعداد طريقة الاتصال بهم . وفى هذا المشروع الثلاثى سوف تكون أنت ممثلاً لفرنسا ، وسيكون زميلاك الكابتن (كينيث كوهين) من البحرية الملكية ، والكولونيل (فرنسيس بيكنز) عن الجيش الأمريكى ، وستقومون أنتم الثلاثة بهذا العمل » .

* * *

قام (ريمى) والكولونل (فرنسيس بيكنز) للمرة الأولى بزيارة (إدارة الخدمات الإستراتيجية) التى تأسست بعد دخول الولايات المتحدة الحرب ، وقام بذلك الجنرال وليام دونوفان الذى عرف باسم (الثور الجالس) ، رمزاً لزعيم قبيلة السيوكس من الهنود الحمر فى داكوتا الذى كان أول من وقف فى وجه زحف الغزاة الأمريكيين ناحية الغرب . وقد تحولت هذه الإدارة بعد الحرب العالمية الثانية إلى « وكالة المخابرات المركزية » .

ولم يكن (ريمى) قد وطئ بقدمه قبل ذلك دهاليز المبنى الذى احتله فرع هذه الإدارة فى لندن الذى كان يرأسه الكولونل دافيدبروس . فلما تردد عليه بضع مرات لم يشهد فيه بين العملاء الذين يقدمون إليه خدماتهم أحدًا يشبه الصورة التى رسمتها القصص الروائية عن الجواسيس .

وقال الكولونل (بيكنز) لريمى : « لقد سبق لك أن توليت إدارة إحدى الشبكات فى فرنسا ، وتعرف كيف تسير الأمور ، على حين أنى لا أفقه شيئاً فى

هذا المجال . وعلى ذلك سأوافق على كل ما تفعل » .

ومست هذه العبارة قلب الفرنسى الذى كان برغم التقدير الذى يربطه بصديقه (كينيث كوهين) ، كثيراً ما يعارضه فى الرأى .

ومنذ أول اجتماع للجنة الثلاثية التى عهد إليها بمشروع (سوسيكس) ، وقف (ريمى) معترضاً على قرار طرح أمامه يقضى بإسقاط فرق الاتصال التى ستذهب إلى فرنسا بطريقة عشوائية بالمظلات فوق المناطق المختارة ، اعتماداً على تقارير الاكتشاف الجوى وحدها ، وبغير أن يكون هناك من يستقبل أفراد هذه الفرق على الأرض ، ويوفر لهم الملاذ الأمين ، أو يتولى حمايتهم فور هبوطهم .

وقال فى ذلك : « لنفرض أن عملية الإسقاط تمت بسلام ، فهل لكما أن تبينا لى ما الذى سوف يصنعه هؤلاء العميلان المنكودان ، وهما يجهلان كل شىء عن ظروف الحياة فى العمل السرى ، وهما يحملان أجهزة الإرسال ، ويضربان على غير هدى فى صميم الليل ، ويطرقان أول باب يصادفهما ، وقد ينفتح وعلى عتبته أحد عملاء الأعداء ؟ إن النسبة المئوية لخسائرنا سوف تكون رهيبة ، وأنا أفضل الاستقالة الآن بدلاً من أن أبعث بهؤلاء المتطوعين إلى موت مؤكد ! » .

عند ذلك أجاب (كينيث كوهين) فى هدوء : « إن هذا الخطر لم يفتنا ، ولكن ما الحل الذى تقترحه ؟ » .

والواقع أن ذلك الحل كان فى متناول (ريمى) متمثلاً فى شخص مارسيل سويستر الضابط فى سلاح الطيران ، وبيير بينيه ، وجانيت جوبو الذين كان ثلاثتهم ذاهبين معه إلى فرنسا عندما وقعت الخيانة فى الشبكة التى كانوا يعملون بها .

ووافقت القيادة العامة على أن تتولى هذه المجموعة الإشراف على تنفيذ

المشروع فى فرنسا ابتداء من إعداد شفرة خاصة تتخاطب بها الفرق التى ستقوم بعمليات المراقبة والتبليغ ، ثم اختيار المواقع الإستراتيجية الملائمة التى يرابط فيها كل فريق ، وتحديد المكان الذى تلقيهم فيه الطائرات ، وإعداد مكان للرقيب وآخر لعامل اللاسلكى ، وأخيراً إقامة خلية لتجنيد المرشدين .

غير أن (ريمى) شعر — عندما طلب من القيادة قائمة بالنقاط الخمسين المقررة بالكثير من الحرج وهم يقولون له : « إن هيئة الأركان ترى أنه لا ضرورة لإعطائكم هذه القائمة ؛ لأن هذه النقاط سرية للغاية ! » .

كان هذا القول يستند إلى مبدأ أساسى وضعته القيادة العليا للحلفاء لم يكن يعلم به حتى الجنرال ديجول . ويقضى بأنه يتعين عدم وضع أى فرنسى مهما كان مركزه على مجرى ما يتخذ من إجراءات تتناول عملية (أوفر لورد) .

* * *

صاح (ريمى) محتجا وهو يقول : « وكيف يتمكن رجالنا من القيام بمهامهم إذا كانوا لا يعرفون النقاط التى سوف تعمل فيها فرق المراقبة والتبليغ ؟ » .

ووافقه على ذلك (فرنسيس بيكنيز) . وهو رجل الجيش الأمريكى فى اللجنة الثلاثية ، وراح يجرى مفاوضات طويلة مع القيادة العليا للحلفاء ضاع فيها أكثر من أسبوع .

وفى نهاية الأمر — وافقت القيادة على تسليم (ريمى) قائمة لا تضم غير عشرين موقعاً من الخمسين ، مع وعد بأنه إذا كانت نتيجة العمل الإعدادى فى هذه المواقع مرضية — فسوف تسلم له قائمة بالباقى .

كان واضحاً أن حرص القيادة العليا على عدم تسليم قائمة كاملة بالمواقع التى سيعمل فيها رجال مشروع (سوسيكس) — هو الخوف من أن تتحدد عن طريق

هذه المواقع أو النقط – المنطقة التى سيتم فيها نزول القوات الحليفة فى غزوها لفرنسا .

ومع أن (ريمى) فرنسى محب لبلاده فإنه فى أعماق نفسه رأى أن القيادة العليا للحلفاء محقة فى مخاوفها من الآثار المترتبة على صفة تميز بها الفرنسيون ، وهى حب الثرثرة بما يعرفون على خلاف البريطانيين والأمريكيين ! والواقع أن طبيعة الأمور قد قضت بأن يقف المئات من الضباط الكبار من القوات البريطانية والأمريكية على معلومات دقيقة خاصة بالإجراءات التى تقررت فى نطاق عملية (أوفر لورد) ، وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بالأهداف المحددة لهم .

ولم يحدث إلا فى حالات نادرة – أن تكلم أحد هؤلاء الضباط بما يعرف من أسرار . ومن هذه الحالات ما حدث لجنرال أمريكى كان قد دعى إلى حفل استقبال ، حيث كانت الخمر تجرى أنهاراً ، فاحتسى منها ما أطلق لسانه ببعض العبارات ، ورد فيها أن (الغزو) سيقع قريباً ، وأنه على علم تام بأنه سيحدث حتماً ، ويعرف المكان الذى سيتم فيه ، ولكنه مضطر إلى المحافظة على هذا السر الذى يود الجميع أن يعرفوه !

وقد فوجئ هذا الجنرال لدى خروجه من الحفل ، عندما رأى اثنين من الشرطة الحربية يرجوانه بكل أدب أن يتبعهما ؛ وماكادت تنقضى أربع وعشرون ساعة حتى كان الجنرال قد أعيد إلى الولايات المتحدة حيث انتزعت منه رتبته ، وسيق إلى مكان لا يستطيع فيه إشباع فضوله !

ومن ذلك أيضاً حالة الضابط الشاب فى البحرية البريطانية الذى كان فى زيارة قصيرة لوالديه ، فلم يمتلك نفسه من أن يسر إليهما وهو يودعهما بأن « الغزو » أصبح قريباً ، وأنه سيقع فى منطقة مصب نهر السين ، فلم يكد يعود

إلى لندن إلا دق التليفون فى (سكوتلند يارد) ، للتبليغ عما أدلى به الضابط الشاب خلال هذه الثرثرة .

وكان الاتصال التليفونى من والد هذا الضابط !

الفصل السادس

الليالى التى طار فيها النوم من عينى الجنرال باتس

لقد أحس الشعب البريطانى بصدمة عنيفة ، فى شهر أبريل ١٩٤٤ ، عندما قيدت تحركات أفراده . أما العاملون فى الحقل الدبلوماسى فقد اعتبروا ذلك فضيحة أكبر ، وقد ثار الهولنديون والبلجيكيون والنرويجيون والبولنديون ، وغضب الروس ، وأحس الفرنسيون أنهم أهينوا إهانة بليغة ،على حين شعر الصحفيون بالحرج .

غير أنه من غير الممكن مع الأسف الشديد – حشد جميع « المتزمتين » فى جزيرة صغيرة مقفرة .

وكما يحدث فى بلاد كثيرة فإن كلمة (المتزمت) تستخدم فى بريطانيا إشارة إلى كل من يبدى (تفانيا) مبالغا فيه يتسم بالريبة والتطير . وكانت هذه الكلمة تطلق فى شهر أبريل ١٩٤٤ على كل ضابط يعرف موعد ومكان الغزو القادم .

وقد أعطى كل متزمت جواز مرور خاصا يسمح له بدخول بعض المكاتب التى لا يستطيع الضابط غير المتزمت الولوج إليها كائنة ما كانت رتبته ، كما أنه غير مصرح له بقراءة أى وثيقة مكتوب عليها كلمة « متزمت » أو سرى للغاية .

وعندما يتحدث اثنان من المتزمتين بالتليفون عن مسألة « متزمتة » فإنهما يستخدمان أجهزة خاصة خضراء اللون مزودة بموانع أتوماتيكية للتصنت . ومن طبيعة هذه الموانع أن الذى يتحدث لايخرج له صوت ، ويبدو كأنما يفتح فمه ويغلقه فى صمت . ثم ينتقل الكلام عبر أسلاك لا يمكن استراق السمع منها ،

حتى يصل إلى أذن الذى يتلقى الحديث .

وكان الجنرال (باتس) يسهر فى يقظة على « المتزمتين » كما ترعى الدجاجة صغارها . غير أنهم كانوا بالمئات ، فكيف يعرف أنه مامن غريب قد اندس بينهم ، برغم التحقيقات العميقة التى تقوم بها عنهم إدارات الأمن ؟ وكيف يتيقن أن شراب الوسكى الأسكتلندى القوى لا يؤدى بأحدهم إلى البوح بماليس مطلوباً البوح به ؟ .

لقد كانوا قبل نزول قوات الحلفاء فى شمالىّ أفريقيا يتحدثون فى حانات لندن بأعلى أصواتهم ، ويتساءلون عن أفضل فنادق الجزائر ، ثم ماذا يحدث ، لو استطاع العدو الألمانى أن ينتزع أحد « المتزمتين » من تحت جناح توماس باتس الذى يحميه ؟

وإذا كان رجال الكوماندوز فى جيوش الحلفاء يقومون بغارات على القارة فما الذى يمنع الألمان من القيام بمثلها على الساحل الإنجليزى ؟ إن ذلك قد يكون أسهل بالنسبة لرجل مثل (أوتوسكورزنى) الذى اختطف موسولينى من سجنه على قمة جبل جران ساسو فى إيطاليا . فهو يستطيع اختيار عدد من جنود العاصفة الذين يتحدثون الإنجليزية بطلاقة . ويجعلهم يرتدون مثل ثياب جنود الحلفاء .

ولن تسترعى لكنتهم التوتونية اهتمام أحد . فإن إنجلترا كانت تعج فى هذه الأيام بقوات من جميع الأجناس ، والقليل منهم من يعرف لغة البلاد . حتى إذا جاءت ثيابهم غير مطابقة فإن الضرر لن يكون كبيراً ؛ إذ إن إدارة الأمن قد قامت بتجربة ذات مغزى ، عندما تركت فى أحد شوارع لندن ضابطاً يرتدى زى طيار ألمانى ، راح يجول ساعة كاملة دون أن يفطن إليه أحد . وكانت هذه الصورة ، كثيراً ما تراود الجنرال (باتس) فى أحلامه .

وجاء فجر يوم ٢٦ من أبريل أخيراً ، إذ كانوا ينتظرونه بنفاد صبر مشوب بالحمى والقلق !

فى ذلك اليوم – كان على الفرقة الرابعة أن تقوم بتجربة الهجوم على شاطئ (أوتاه) . وكانت هذه المناورة ستجرى عند (سلابتون ساند) ، وهو أحد الشواطئ الإنجليزية الذى بين (دارموث) و (بلايموث) حيث كانت وحدات سلاح المهندسين قد عملت عدة أسابيع لبناء تحصينات مشابهة تماماً للتحصينات الألمانية فى قطاع (أوتاه) .

وبعد كل تلك الشهور التى انقضت بين حفيف الأوراق لوضع المخططات المختلفة ، وإعداد الإحصائيات – فإن يوم ٢٦ من أبريل هذا كان يوماً يبعث على السرور والارتياح تماماً مثلما يشعر المرء عندما يخرج من نفق مظلم طويل . هذا فضلاً عن الأهمية التى تنطوى عليها معرفة كيف تكون حالة عملية (أوفرلورد) ، ذلك الوحش التجريدى عندما يمشى على الأرض ،

ولقد كان فى إمكان سلاح الطيران الألمانى فى صباح ذلك اليوم السادس والعشرين من أبريل ١٩٤٤ – أن يمحو من الوجود هيئة أركان حرب الحلفاء بقنبلة واحدة يلقيها على الطوف المسطح الذى يحمل رقم ٤٩٥ ؛ فقد كان آيزنهاور عليه منذ السادسة صباحاً ، ومن حوله مجموعة ضخمة من الجنرالات الذين تكدسوا فوق ظهر ذلك القارب ، مما خيل معه أن جميع نجوم السماء قد سقطت واصطفت على أكتافهم !

وكان الأم بالنسبة لكل جنرال منهم – كما لو أنه سوف يشهد طفله الأول ، وهو يخطو خطواته الأولى فى الحياة !

وبدأ القصف المدفعى من البحرية فى الساعة السابعة ، ثم انطلقت قاذفات القنابل فوق الشاطئ متقدمة بقليل الدبابات البرمائية ، وقطاعات الهجوم .

ووحدات المهندسين المكلفة بإزالة العوائق ، إلا أن ساعة الصفر كانت محددة فى الساعة السابعة والنصف .

وفى الساعة ١٥ , ٧ أصبح معروفاً أن المناورة تسير سيراً سيئاً : ذلك أن الدبابات البرمائية لم تكن قد نزلت إلى الماء بعد ، وكانت ستصل إلى الشاطئ متأخرة ، وفى شيء من الضيق شاهدها من فى الطوف رقم ٤٩٥ أخيراً وهى تهبط الواحدة فى إثر الأخرى من فوق الزوارق الضخمة التى تحملها ثم تطفو فوق الوسائد الضخمة من الهواء المضغوط .

وغطست إحدى الدبابات فور هبوطها ، فحل بدلاً من المرح شعور واضح بالاستياء تحول بدوره إلى ذعر وفزع عندما فطنوا فى الساعة ٣٠ , ٧ إلى أنه مامن جندى واحد قد وضع قدمه بعد على الأرض . فلقد كانت الزوارق المحملة حتى آخرها بالرجال تدور فى دائرة بدلاً من أن تتجه رأساً إلى الشاطئ وكان ذلك أمراً لا تفسير له .

لقد طرأ عطل على الآلة ، ولكن أحداً من الواقفين على الطوف ٤٩٥ لم يكن يدرى لماذا ؟

* * *

وأخيراً ، وفى بطء يبعث على الذهول - أنزلت موجة الهجوم الأولى على رمال الشاطئ ، وأمكن العملية أن تبدأ .

ولقد أحس الجنرال آيزنهاور الذى كان يرقب مع الجنرال (برادلى) القصف الجوى ، بشيء من العزاء لدقة هذا القصف : فقد كان هامش الأمن المقدر له ١٥٠٠ متر بين بساط القنابل وفرق الهجوم نتيجة لمزيد من الحذر ولكن فى اللحظة التى هم فيها آيزنهاور أن يقول لبرادلى - إنه سوف يخفض هذا الهامش إلى ٥٠٠ متر فقط - إذا بقاذفة قنابل تلقى حمولتها على مسافة تقل عن هذه

الأمتار الخمسمائة ، مما جعل الرجلين يتطلعان بعضهما لبعض فى صمت أبلغ من أى كلام .

إن كل ما كان يحدث على الشاطئ كان يستحق استرعاء انتباههما : ذلك أن فرق المهندسين لم يكونوا قد انتهوا من نسف العوائق . وانتظاراً إلى أن يتم تطهير الشاطئ كانت الدبابات تجول ذاهبة آتية ، ومحركاتها دائرة . ولو أن ذلك قد حدث يوم الهجوم الحقيقى لكان أسعد يوم لرجال المدفعية الألمان ، لأن كل قذيفة لهم سوف تصيب ذلك الهدف الضخم الذى يتمشى بلا مبالاة على الشاطئ القريب .

أما القوات المهاجمة فإنها بدت مهلهلة غير متماسكة ، وكان واضحاً أن ضباطها أقل مستوى من المهمة الموكولة إليهم ، وقد سجل (هارى باتشر) ، الياور البحرى للجنرال آيزنهاور فى مذكرته مساء يوم ٢٦ من أبريل الملاحظة التالية : « إننى أشعر بالقلق من جراء عدم الصلابة وعدم الحيوية لدى الشبان من الضباط الأمريكيين الذين رأيتهم فى المناورة : فالكثيرون منهم تبدو الطراوة عليهم كما لو كانوا من الحملان فكيف سيكون سلوكهم فى أثناء القتال ؟ وكيف سيصبحون بعد ثلاثة أشهر ؟ ثم إن أكثر الكولونلات لا يكادون يرون ما يدور أمامهم ، فهم سمان وثقال ، كما لو كانوا شيوخاً ! » .

ولحق (هارى باتشر) بعد الظهر بالقطار المخصص لهيئة الأركان ، وكان واقفاً فى محطة تراونتون . وكانت علامات رتبته العسكرية غير كافية ، لكى تفسح له مكاناً فى الطوف رقم ٤٩٥ ، على حين كان يشعر بنفاد الصبر لمعرفة الأسباب التى أدت إلى فشل المناورة .

ولدى وصوله كانت تجرى مناقشة حامية بين آيزنهاور ومارشال الجو (تيدر) والجنرالين برادلى وجيرو ، غير أنهم لاذوا بالصمت لدى دخول باتشر ، ثم سأله

آيزنهاور : هل يعلم من الذى قدم ساعة الصفر ؟ فأجاب ياوره فى ذهول : بأنه كان سيطرح فى التو السؤال نفسه .

لم يكن أحد يعرف من الذى أصدر هذا الأمر ، بل لم يعرف أحد إذا ما كان قد صدر أمر من هذا القبيل على الإطلاق !

ثم كانت العودة إلى لندن وسط جو يسوده الحزن ؛ فقد كان واضحاً أن (أوفر لورد) قد أفلت من رقابة وسيطرة الذين خلقوه ؛ فلقد أعدوا وصنعوا آلة ضخمة ذات تروس من الكثرة والدقة ، مما جعلها ترقى فوق مستوى البشر .

لقد كانت مشروعات وخطط (أوفر لورد) على الورق أهم عملية برمائية وضعت طوال التاريخ العسكرى ، ولكنها فوق رمال (سلابتون ساند) أسفرت عن فشل ذريع .

* * *

ثم جاءت أقسى الضربات فى المساء : فلقد علم آيزنهاور بتأخير قدره سبع عشرة ساعة – أن عدداً من زوارق الطوربيد الألمانية قد هاجمت قافلة بحرية كانت قادمة نحو (سلابتون ساند) فأغرقت منها سفينتين وأعطبت ثالثة . وسقط فى ذلك ٧٠٠ بين قتيل ومفقود من القوات التى كانت عليها .

وقد ظلت هذه المأساة التى وقعت قبل الفجر فى خليج (ليم) القريب من (سلابتون) مجهولة طوال المناورة لا يعلم بها جنرالات الحلفاء . ثم ساد شعور من الذهول فى لندن من جراء جسارة ونجاح البحارة الألمان فى توجيه هذه الضربة القاتلة . فإذا كان هؤلاء قد استطاعوا اختراق ستار سفن الحراسة ، وتوجيه طوربيداتهم داخل خليج إنجليزى – فما الذى سوف يصنعونه فى عرض البحر أمام سواحل فرنسا ؟

وانتهى يوم ضباط أركان الحرب بهذه النتيجة المحزنة ، أما إدارات الأمن فإنه كان مجرد بداية :

فلقد كانت البحرية البريطانية تجرى تحقيقاً حول الظروف الدقيقة للهجوم الألمانى ، ووعدت بتقديم تقرير عنه قبل منتصف الليل ، وراح الجميع ينتظرون هذا التقرير فى قلق ، فلما جاء تنفسوا الصعداء ؛ إذ جاء فيه أن الألمان لم يأخذوا أسرى ، وأن زوارقهم قد حوصرت بنيران سفن الحراسة البريطانية ، فأسرعت بالانسحاب بعد أن وجهت ضربتها .

وقد سوى ذلك المشكلة ، عدا رجل واحد هو (مونتجومرى) ، فلم يكن على ثقة مما جاء فى هذا التقرير ، ولذلك فإنه بادر بإرسال ضابط من أركان حربه هو (رالف إنجرسول) إلى الميناء الذى سحبت إليه السفينة المعطوبة ، حيث استجوب اثنين من ضباط الدبابات شاهدا الاشتباك .

وروى الرجلان أنه بعد أن أغرق الألمان السفينتين وأعطبوا الثالثة — اقتربوا بزوارقهم إلى أقل من مائه متر ، وأضاءوا كشافاتهم بكل جرأة ، فظهر على أضوائها الأحياء وهم يتخبطون فى مياه البحر . وتوقفت الزوارق الألمانية عدة دقائق بين هؤلاء الأحياء ، ثم انطلقت ماضية بغير أن يعكر صفوها شىء ! ولم يذكر الضابطان إذا كان العدو قد أخذ أسرى أم لا ، ولكن من المرجح أنهم فعلوا ذلك .

وكانت هذه الرواية ما أكد شكوك مونتجومرى من أنه لم تكن هناك حراسة حول السفن .

* * *

وتتلخص مخاوف (مونتجومرى) فى أن الجنود الذين ربما يكون الألمان قد أخذوهم قد يدلون فى أقوالهم بما يكشف عن المناورة التى جرت فى

(سلابتون ساند) ، وعن أن تحصينات قد أقيمت هناك تشبه تحصينات شاطئ (أوتاه) . ولكن هذه المخاوف هدأت قليلاً عندما تبين أن هجوم الزوارق الألمانية وقع قبل القيام بهذه المناورة بعدة ساعات ومن ثم فإن الجنود الأسرى لا يعرفون شيئاً عنها .

غير أن قلقه قد تضاعف عندما اتضح أن عشرة من الضباط المتزمتين كانوا فى عداد المفقودين فهنا أدرك (مونتجومرى) أن الكارثة أصبحت محققة. ذلك أن الألمان الذين يجيدون الطرق التى تنطلق بها ألسنة أسراهم سوف يتوصلون إلى خطة (الغزو) . وفى اليوم التالى فكرت لندن فى إلغاء عملية (أوفر لورد) كلية .

ولم يستسلم الجنرال (باتس) ورجاله : فقد بدءوا عملية واسعة النطاق ، الغرض منها صيد جثث القتلى من البحر ، وبعثوا بعشرات من القوارب إلى خليج (ليم) حيث دارت المعركة ، وإذ كانت التيارات البحرية متجهة إلى عرض البحر كان من المؤكد أن أغلب جثث الجنود السبعمائة قد اختفت ، ولا أمل فى العثور عليها . ولذلك تركز البحث على جثث الضباط العشرة .

ولم يسبق قط أن جرى تعقب أجسام موتى بمثل هذه الحرارة قط . ونتيجة لذلك فإنهم عثروا على أربع جثث ، ثم الخامسه ، والسادسة ، وأصبح البحث مثيراً للأعصاب ، إذ إن كل مرة يعثر فيها الرجال على جثة ينتابهم الحماس ، ويشعرون بالأمل . والواقع أنه لم يسبق أن راح رجال يغرسون خطافاتهم فى لحم بشرى لإخوان لهم بمثل هذا الشعور بالارتياح .

وانتشلت سبع جثث ، ثم الثامنة ، والتاسعة ، فهل يتحتم تأجيل الغزو لتخليص قارة بأكملها ، من أجل جثة رجل واحد ؟

كلا ، فإن البحر قد أعاد الجثة العاشرة ، وهى مكبلة بحزام النجاة . وبينما كان الجنود الذين اختفوا إلى الأبد يعدون بالمئات فإن القدر كان رفيقاً بالجنرال (باتس) فأعاد له « المتزمتين » العشرة .

كانت هذه معركة انتصر فيها ، ولكن الحرب السرية كانت لاتزال مستمرة ، الأمر الذى جعل النوم يطير من عيون (باتس) وكان ذلك حقيقة وليس مجازاً . فبعد انقضاء عشرين عاماً على هذه الأحداث اعترف هذا الجنرال العملاق بأن الأسابيع التى سبقت يوم الهجوم على نورماندى كانت بالنسبة له كابوساً مستمرًّا . فكيف كان يصدق أن الألمان يمكن أن يفشلوا فى معرفة سر الهجوم ، على حين أن جميع الفرص متاحة لهم ؟

لقد كان أمامهم الكشف الجوى ، وغارات الكوماندوز والبحارة المحايدون العاملون على سفن تلقى مراسيها فى الموانى الإنجليزية ويرون ما يجرى من استعدادات ، ثم إغراءات الثرثرة عندما يتقاسم السر الواحد المئات من الرجال . .

وهناك أيضا – بطبيعة الحال – الجواسيس الألمان العاملون فى بريطانيا .

* * *

ترى هل يعرف أحد ما الفرق بين البقرة عندما تمضغ العشب ، وبين الأمريكى وهو يلوك اللبان ؟

هذه هى الأحجية التى كان الإنجليز يطرحونها على أنفسهم قبيل عملية النزول فى نورماندى عندما يشعرون بالضيق من جراء تدفق التعزيزات الأمريكية على الجزيرة البريطانية التى قال البعض مازحاً : إنه لولا البالونات التى ترتفع فى سمائها وقد ارتبطت حبالها بالأرض – لغرقت من ثقلهم تحت مياه المانش !

ويرد الإنجليزى العادى على الأحجية قائلاً : « الفرق بينهما أن البقرة تبدو عليها ملامح الذكاء ! »

غير أن الفرق الحقيقي كان مثار الحديث بعد ذلك ببضعة أيام عندما اعتقل فى بريطانيا جاسوس ألمانى كان مرتدياً ثياب ضابط أمريكى قتل وهو يقوم بمهمة خاصة فى فرنسا ، فانتحل الألمانى شخصيته . وإذ كان قد عاش فترة من الزمن فى أمريكا فإنه أجاب بصورة مرضية على الأسئلة التى وجهت إليه كانت حرية بأن تزيل عنه كل مظنة ، لولا أن المحقق كان يعرف جيداً الفرق بين البقرة وبين الأمريكى الأصيل .

وبينما كان الجاسوس واثقاً تماماً من أنه سيخلى سبيله إذا بالمحقق يقول له : « آسف إذ آمر باعتقالك ، فأنت غير أمريكى ! » .

وسأل الألمانى فى دهشة : « ولماذا ؟ »

فأجاب المحقق : « لأنك تمضغ اللبان بطريقة البقر ، وليس بطريقة الأمريكى ! فالأولى تمضغ بعض الوقت ، ثم تتوقف . أما الأمريكى فلا يتوقف عن المضغ أبداً وأنت كنت تتوقف كلما تكلمت ،وهذا ما لا يفعله أى أمريكى ! » .

والواقع أنه لولا العلم والذكاء اللذان يتمتع بهما رجال المخابرات البريطانية لكان الجواسيس الذين بعث بهم (فيلهلم كاناريس) قائد إدارة التجسس التابعة للجيش النازى إلى بريطانيا قد قلبوا الأوضاع فيها رأساً على عقب . كان هؤلاء الجواسيس يدخل أغلبهم إلى الأراضى البريطانية عن طريق التسلل وسط اللاجئين القادمين من البلاد المختلفة ، أو فى صورة متطوعين ، غير أن القليلين منهم هم الذين يصمدون أمام الاستجواب الذى يتعرضون له ، وهو الذى يجرى فى صبر وأناة فى مبنى (المدرسة الوطنية) حيث يوجه أى قادم من القارة يكون غير معروف بعد للمخابرات البريطانية . ويقوم بهذا الاستجواب ضباط يحيطون علماً بأمور كثيرة ، ولديهم جمهرة من المعلومات .

وبهذه المعلومات أمكنهم كشف النقاب عن أعداد كبيرة من الجواسيس ؛ كما أنهم كثيراً ما تظاهروا بأن لاشيء لديهم ضد من يستجوبونه برغم أنه جاسوس ، ويتركونه يتنقل فى البلاد بكل حرية ، لكى يضعوا أيديهم على من قد يكون له من شركاء .

* * *

والقصص كثيرة حول أنواع الجواسيس الذين دربهم (كاناريس) وأرسلهم إلى بريطانيا ، وهم مزودون بكل ما يجعلهم بمنأى عن عيون أو ذكاء إدارات مكافحة الجاسوسية ، ولكنهم سقطوا فى الشرك لارتكابهم هفوات صغيرة كان فى استطاعتهم التفادى منها .

ومن ذلك قصة شاب صغير السن لم يتجاوز الخامسة والعشرين تقدم ذات صباح إلى شباك التذاكر فى محطة صغيرة للسكة الحديدية فى أسكتلندا بين (آبردين) و (داندى) ، طالباً شراء تذكرة إلى أدنبرة . كانت لهجته لاغبار عليها ، ويرتدى الثياب السائدة نفسها فى المنطقة ، وله وجه مماثل تماماً لوجوه سكان المنطقة ، وتتدلى من رأسه خصلات من الشعر الأشقر المائل إلى الحمرة الذى هو طابع الأسكتلنديين .

وأجابه عامل التذاكر ببساطة دون أن يساوره أى شك فيه : « عشرة وستة » ، وهو ثمن التذكرة التى طلبها ، وتردد الشاب لحظة واحدة ، ثم دس يده فى جيبه ، وأخرج نقوده ، ثم وضع فى الشباك عشرة جنيهات إسترلينية وستة شلنات ، أخذها العامل دون أن يهتز له جفن . وسلمه التذكرة .

وعندما وصل الشاب إلى أدنبرة فوجئ برجلين تبين أنهما من (سكوتلنديارد) يستقبلانه ، ويضعان الأصفاد فى يديه . وكانت لحظات الحرية التى تمتع بها هذا الجاسوس الألمانى قصيرة للغاية ، منذ أسقطوه بالمظلة فى

أسكتلندا ، فلم تتجاوز بضع ساعات ، نتيجة لإهمال بسيط فى المعلومات التى لقنها إياه مدربوه .

فهم لم يقولوا له مثلا : إن عبارة (عشرة وستة) فى بريطانيا . . معناها عشرة شلنات وستة بنسات وإذ فطن عامل التذاكر أنه إزاء رجل غريب عن المنطقة يحاول الظهور بمظهر أهلها – فإنه اتصل فور قيام القطار بإدارة البوليس ، وأعطاها أوصافه ، والمكان الذى هو ذاهب إليه .

ويقلب الكولونل (دانسى) فى الملفات الكثيرة للجواسيس الألمان الذين تم القبض عليهم ، ثم يسرح بأفكاره إلى الأميرال (كاناريس) الذى يدخل معه فى حرب الجاسوسية ، وهو يقول لنفسه : « لكم أود أن أقابل هذا الرجل ذات يوم فإنه برغم كل شيء ذكى وجنتلمان » .

غير أن هذه الأمنية لم تتحقق قط ؛ لأن كاناريس تورط فى العام نفسه فى مؤامرة اغتيال هتلر ، وقتله رجال الجستابو .

الفصل السابع

الحرب الطاحنة .. بين أجهزة المخابرات

كانت ألمانيا تعلم – ولا شك – بأن هجوماً سوف يقع على القارة يجرى الإعداد له على قدم وساق : فالحشود الضخمة من القوات البريطانية والأمريكية فى بريطانيا ، وهى ما نقلته حتماً (الحقائب الدبلوماسية) – كانت دليلاً واضحاً على ذلك .

لكن المشكلة بالنسبة للألمان كانت معرفة موعد ومكان الهجوم الذى يعد له ، ومن هنا كانت تلك الحرب المكثفة بين العملاء الألمان وإدارة مكافحة الجاسوسية البريطانية . . .

ونجح الرجل النرويجى القادم من (أوسلو) فى أن يقفز بسلام من طائرة يونكرز الألمانية التى كانت تحلق فى الظلام فوق الأراضى البريطانية ، وراح يهبط فى رفق نحو أرض أسكتلندا .

ووضع فوق هذه الأرض قدماً واحدة ، فتحطمت ، وانتهت بذلك المهمة التى جاء من أجلها ، فقد جاءت الشرطة المحلية لتتلقفه فى الفجر ، ثم عالج الطبيب كسوره ، وبعدها أدانته المحكمة ، ولف الجلاد الحبل حول عنقه !

ومع ذلك فإن الذى دربه على القفز من الطائرة كان قد علمه أن من الضرورى أن يضم قدميه معاً عندما يلمس الأرض ، بحيث يتوزع ثقل جسمه عليهما ، فتمتصان الصدمة . ومن المرجح أن الرجل النرويجى قد نسى ذلك ، فباعد بين ساقيه ، مما جعل كل ثقله يقع على القدم التى لمست الأرض أولاً .

ولو أنهم جعلوه يقفز قبل مجيئه عدة مرات ما حدث له ما حدث .

إن قضية الجاسوسية الألمانية فى بريطانيا مسألة بدأت بداية سيئة : ففى البداية أرسلت إليها شبكتان ، وكان ذلك عام ١٩٣٧ .

أما الشبكة الأولى فلم يكن تتضمن غير عملاء ثانويين ، وبخاصة بضع مئات من الفتيات الألمانيات الجميلات اللاتى يعملن خادمات ، ويكلفن العملَ لدى عدد من الشخصيات البريطانية ، ويفتشن جيوب هؤلاء السادة !

وقد استرعت هذه الوجبة الصغيرة اهتمام إدارة مكافحة الجاسوسية البريطانية ، وحولت أنظارها عن الجواسيس المحترفين فى المكتب الثانى الألمانى الذين تلقوا أمراً بعدم بدء نشاطهم إلا بعد بداية الأعمال الحربية . وكان عددهم جميعاً حوالى ثلاثة آلاف عميل ، من بينهم خمسة وثلاثون من كبار الجواسيس .

وبدأت مطاردة إدارة الأمن البريطانية لهم ليلة ٤ من سبتمبر ١٩٣٩ ، ثم استمرت عدة أسابيع . فقام ألفان من رجال البوليس بفحص أسماء ٧٣٢٣٥ شخصاً اعتقلوا منهم ١٠٠٤ جواسيس ، وحددوا إقامة ستة آلاف طوال سنوات الحرب من المشتبه فيهم

ونتيجة لهذه المطاردة الكبرى تم فى ضربة واحدة القضاء على الشبكة الأولى ، وهو ماكان متوقعاً ، وكذلك على أكثرية أعضاء الشبكة (الثانية) وهو ما لم يكن متوقعاً ؛ لأن الجواسيس المحترفين الذين كانت تتكون منهم كانوا قد اختيروا بعناية فائقة ، ثم قامت إدارة التجسس الألمانية بتدريبهم فى مركز التدريب فى (همبورج) . وقد طبق الجانب الأكبر من هؤلاء بكل دقة الدروس التى تلقوها ، وبصفة خاصة تلك التى لقنها إياهم (هانس ستولز) .

والواقع أن هذا البروفسور الشاب الذى تخرج من (أوكسفورد) كان مكلفاً بتعليمهم كيف يتحدثون ؟ وكيف يرتدون ثيابهم ؟ وكيف يأكلون ويشربون

وينامون تماماً كما يفعل الإنسان الإنجليزى ؟ ومن بين أساليبه الذكية أنه كان يوصى تلاميذه بأن يودع كل منهم مدخراته عندما يرسل للعمل جاسوساً فى بريطانيا – صندوق التوفير كما يفعل الإنجليز ، ثم بعد ذلك عليه أن يدعى أنه فقد الدفتر الخاص به ويبلغ قسم البوليس ذلك ، فيكون له من هذا التصرف ما يضفى عليه الثقة ويدفع عنه أى شك ! كما يحيطه بالتقدير باعتباره من الأثرياء فى نظر هذا الشعب الذى يقدر الإنسان وفقاً لرصيده فى البنوك !

فما الذى كان يمكن أن يحمل الجواسيس الألمان على عدم اتباع نصائح هذا المدرب البارع ، وهو الذى يدلهم على ما يبقيهم بعيداً عن الشكوك ؟ وكيف كان فى استطاعتهم أن يكتشفوا أن (هانس ستولز) هذا فى الحقيقة عميل بريطانى بالغ الدهاء تمكنت المخابرات البريطانية من تزييفه إلى أن أدخلته كمدرب فى مدرسة الجاسوسية الألمانية فى (همبورج) ؟ وكيف كانوا يعرفون أنهم مطاردون خفية ، وأن كل (اتصالاتهم) موضوعة تحت المراقبة ، وتحركاتهم كلها مسجلة ، منذ اللحظة التى يذهبون فيها إلى قسم البوليس للتبليغ عن دفتر التوفير الضائع المزعوم ؟

* * *

بعد هذه العملية الرائعة كانت لندن مقتنعة بأنها محت كل أثر للتنظيمات الألمانية للتجسس . أما برلين فإنها كانت على العكس ترى أنها ناجحة ؛ إذ إن اتصالها اللاسلكى ظل مستمراً مع أولئك العملاء ، ولو أنهم أصبحوا قلة ، ويعتريهم الخوف ، ولا يستطيعون الحصول على أى معلومات .

وهكذا بدأت المخابرات الألمانية عام ١٩٤٠ نشاطها الجديد من الصفر مستخدمة فى ذلك عنصراً بشرياً من بين الذين جمعتهم من الأراضى المحتلة . فراحت تبعث إلى بريطانيا بأناس لا يعرفون كيف أصبحت بعد الحرب ؟

ولا يتحدثون جيدا اللغة الإنجليزية ، بل إن بعضهم لم يضع فيها قدمه قط قبل ذلك !

لقد كان هؤلاء بمثابة فرق التجسس الانتحارية الذين تدفقوا على الأراضى البريطانية فى مثل عظمة (الكاميكاز) اليابانيين أى أولئك الجنود الذين يجعلون من أجسادهم قذائف ناسفة تنطلق لتصيب وتفرق سفن الأعداء !

ومن بين هؤلاء الجواسيس الانتحاريين الهولندى (كارل ماير) والألمانى (رودلف فالدبرج) اللذان أنزلتهما إحدى السفن سراً على الساحل الجنوبى لإنجلترا بالقرب من (رومنى مارش) ليلة ٢ من سبتمبر ١٩٤٠ .

فنى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى – دق (ماير) على باب إحدى الحانات ، وطلب شراء زجاجة من شراب السيدر ، وفى يوم ١٠ من ديسمبر ١٩٤٠ ، تم إعدامه شنقاً : ذلك أن الذين دربوه فى ألمانيا لم يقولوا له : إن الحانات والمقاهى لها موعد قانونى لا تفتح قبله ، هو الساعة العاشرة .

أما (فالدبرج) الذى اعتقل بعد (ماير) بأربع وعشرين ساعة فقد شنق فى اليوم نفسه ، فإنه لم يعرف كلمة إنجليزية واحدة ، وهو ما حد من الفرص المتاحة له فى الحياة .

ومن الجواسيس الانتحاريين كذلك (شارل ألبرت فان دين كيبورن) ، وهو هولندى وصل على السفينة التى جاء عليها نفسها الآخران ، وقد علق على عود المشنقة يوم ١٧ من ديسمبر ١٩٤٠ ؛ فقد أنزلوه إلى جوار معسكر إحدى الوحدات العسكرية ، فاعتقلوه على الفور .

ودخل جاسوس رابع مطعماً لتناول الغذاء ، وبعد أن تناوله ناول الخادمة أحد كوبونات التموين التى زودوه بها فى برلين ، وهم يجهلون أنه أصبح من غير الضرورى فى لندن إعطاء الكوبونات فى المطاعم الإنجليزية .

وكذلك ألقوا (كارل ريختر) التشيكى بالمظلة فى منطقة (هيرتفورد شاير) يوم ١٣ من مايو ١٩٤٢ ، فظل مختبئاً يوماً وليلة فى إحدى الغابات ، ثم جازف وخرج إلى الطريق العام ؛ وتوقف إلى جانبه سائق سيارة ضل عن طريقه ، لكى يسأله عن المكان . وما كانت لهجته الغريبة تسترعى نظر السائق لو أنه كان يرتدى الثياب العسكرية ؛ إذ كانت هناك قوات تشيكية فى بريطانيا . ولكن برلين لم تفكر فى ذلك .

وهناك حالة (كارل دروك) الألمانى ، و (فرنر وايلتى) السويسرى ، ثم (فيرا إريكسون) ابنة المهاجرين الروس الذين جاءت بهم طائرة مائية حتى الساحل الأسكتلندى ، عند منطقة (موراى فيرث) . ووصل الثلاثة إلى الشاطئ فجر يوم ٣٠ من سبتمبر ١٩٤٠ ، بغير أن يعرفوا أين هم ؟ فمشوا حتى أقرب محطة للسكة الحديدية ، ليتعرفوا من اسمها على اسم المكان .

لكنهم فى ألمانيا لم يقولوا لهم إنه نظراً لدواعى الأمن عمدت بريطانيا إلى نزع جميع اللافتات التى تحمل أسماء المحطات . ولذلك لم يجد الجواسيس الثلاثة بداً من أن يسألوا : « أين هم ؟ » ، فكان ذلك آخر عهدهم بالحرية ، وبالحياة معاً ، فشنق الرجلان يوم ٦ من أغسطس ١٩٤١ ، وأنقذت (فيرا) عنقها بأن قبلت العمل لحساب الإنجليز !

* * *

وعمد الألمان إلى تغيير خطتهم هذه بعد العدد الكبير من جواسيس الانتحار الذين جعلوا الجلاد الإنجليزى يعمل دون انقطاع ، ولجئوا إلى عملاء يتسمون بالبراعة فى المهنة .

ومن المقطوع به أن أشد أنواع الرقابة لم تمنع وصول رجال المقاومة الأوربية إلى بريطانيا ، سواء كان وصولهم يتم بالسفن أو باستخدام الطريق الملتوى الذى

يمر بإسبانيا ، إلا أن شيئاً من الخير قد ينتج عن هذا الشر الكثير ، لو أمكن جعل بعض العملاء المتخفين فى زى رجال المقاومة ينزلقون وسط هذا الخضم المتدفق على بلاد الإنجليز.

كانت الفكرة بارعة ، ولكن جهل الألمان الكامل بظروف الحياة فى بريطانيا أدى إلى أن الجواسيس استمروا فى الوصول إليها ، تماماً كما وصل رواد الفضاء إلى القمر : أى وهم لم يعلموا عنها شيئاً قط . وقد انقضت شهور طويلة قبل أن تسمع برلين عن شيء اسمه « المدرسة الوطنية » التى يستجوب فيها الإنجليز كل من تطأ قدمه أرض الجزيرة البريطانية ، وشهور طويلة أخرى قبل أن تعرف ما يدور فيها ! .

وفى خلال هذه الفترة اعتقل الإنجليز أكبر جاسوس ألمانى وهو (تيمرمان) ، وعدداً آخر من زملائه المحترفين .

إنه بلجيكى يدعى (ألفونس يوجين تيمرمان) وصل إلى لندن فى شهر أبريل ١٩٤٢ ، بغير أن يعرف أنهم سوف يسوقونه أولاً إلى « مدرسة فيكتوريا الوطنية الملكية » ، حيث يقوم اثنان وثلاثون ضابطاً من مكافحة الجاسوسية بعملية (غربلة) للقادمين الجدد .

وقد كان يجهل كذلك أن منقولاته وثيابه سوف تبسط فوق مائدة طويلة يسمونها « الكشاف » ، حيث يفحصونها الساعات الطوال ! ولو أنه كان على علم بذلك ، ما كانوا قد عثروا فى حافظة أوراقه على ظرف يحتوى على بودرة (ألبيراميدون) ، وعلى بعض القطن المتشرب ، وأعواد صغيرة من الخشب . فبدلاً من أن يأتى معه بهذه الأشياء التى تتيح له الكتابة بالحبر السرى - كان يمكنه ببساطة شراؤها من أى صيدلية فى لندن !

ولقد شنق (تيمرمان) يوم ٧ من يوليو ١٩٤٢ حتى بغير أن يقوم صائدو

الجواسيس الإنجليز بمراجعة سجله بوصفه من رجال المقاومة . فهل كان هذا السجل أكثر إقناعاً من سجل مواطنه (بيير نيوكرمان) الذى وصل إلى لندن يوم ١٦ من يوليو ١٩٤٣ ، وشنق يوم ٨ من يونية ١٩٤٤ ؟ إن اتصالاً لاسلكيًا بسيطاً بين بريطانيا والشبكات البلجيكية كان كافياً لإثبات أن نيوكرمان بعيد كل البعد عن (المقاومة) ؛ وإنما هو من المتعاونين مع الألمان .

ثم جاءهم جاسوس يعلم مقدماً بقصة « المدرسة الوطنية » واستعد لها ، ويدعى (مينهير درونكرز) الذى روى لهم قصة محبوكة عن فراره من أيدى الألمان ، فتسلل فى قارب من ميناء (روتردام) .

وفى الاستجواب وجهوا إليه أولاً الأسئلة الروتينية ، وأولها كيف حصل على القارب ؟ وأجاب بأنه اشتراه من صيد سمك ، التقيا فى روتردام ! وسئل فى أى مكان كان اللقاء ؟ فقال : فى مقهى (أتلانتا) .

وقد شنقوه يوم الأول من يناير ١٩٤٣ ؛ إذ إن برلين لم تكن تدرى أن صائدى الجواسيس فى بريطانيا ينتمون إلى جنسيات مختلفة ، بحيث إن الذى يستجوب أى قادم جديد يكون من جنسيته نفسها ، وكان الكولونل (بينتو) الذى تولى استجواب (درونكرز) يعرف ميناء روتردام جيداً ، ويعرف كل مقهى فيها . ولما كان الزعم بأن صياداً للسمك يستطيع الاقتراب من مقهى (أتلانتا) – يعادل القول بأن هذا الصياد قد دخل فندق (ماكسيم) فى باريس ، أو جلس فى نادى القمار فى شيراتون القاهرة – فإن معنى ذلك أن (درونكرز) جاسوس !

غير أنه كان على الضابط أن يقدم دليلاً مادياً على صحة ما ذهب إليه ، وهو ما أمكنه القيام به عندما فحص بالميكروسكوب قاموساً للغتين الإنجليزية والهولندية كان مع الجاسوس بحجة دراسة لغة البلاد ، وراجع صفحاته

السبعمائة ، فعثر على ثقب دقيق لا يرى بالعين المجردة تحت بعض الحروف . وإذ جمع هذه الحروف بعضها إلى جوار البعض تكون منها عنوانان : أحدهما فى لشبونة والآخر فى ستوكهولم ، حيث كان على (درونكرز) أن يبعث بتقاريره !

* * *

وجاء دور (سورنسون) الملقب بأبرع الجواسيس ، وفريقه المكون من أربعة ، استطاعوا للمرة الأولى أن يعبروا عتبة « المدرسة الوطنية » خارجين منها . وللمرة الأولى كذلك – أدرك الخبراء البريطانيون أنهم إزاء مجموعة من عتاولة فن الجاسوسية .

والواقع أن (سورنسون) كان بطلاً فى إدارة المخابرات الألمانية : ففى عام ١٩٣٦ استطاع أن يصور كل يوم أحد الوثائق السرية التى فى خزانة القنصلية الفرنسية فى همبورج التى التحق بالعمل بواباً لها ، وكان يقوم بعملية التصوير فى الفترة التى يقضيها القنصل فى الكنيسة لأداء الصلاة .

وعندما جاء السفير الفرنسى (فرنسوا بونسيه) فى زيارة لألمانيا استطاع (سورنسون) أن يصور وثيقة سرية للغاية كانت مع السفير تحتوى على أسماء جواسيس المكتب الثانى الفرنسى العاملين فى ألمانيا . ثم تمكن من نسف عدد من السفن الإنجليزية فى ميناءى (روتردام) و(أنفرس) عندما كانا لا يزالان محايدين ، وذلك قبل أن يبعثوا به للعمل فى البلقان .

ولم يفشل هذا الجاسوس الكبير إلا فى عملية واحدة عندما لم يتمكن من تفجير الطائرة البريطانية التى كانت تعمل بين ستوكهولم وأسكتلندا ، وعلى متنها عدة شخصيات هامة . وعلى غير العادة لم يحاسبه رؤساؤه الألمان على هذا الفشل الوحيد !

أما زملاؤه الأربعة فهم (بدرو) و (براون) و (ميوى) و (كوخ) .

والقصة التى جاءوا بها بسيطة للغاية ، هى أنهم فروا جميعاً من الجيش الألمانى ؛ لأنهم ملوا الحرب !

وبدأت المعركة بين هؤلاء الجواسيس من ناحية ، وبين صائديهم من ناحية أخرى ، واستمرت ثمانية أشهر . وقد لجأ الإنجليز فيها إلى الاستعانة ببعض اللاجئين الألمان من المناهضين للنازية الذين يعيشون فى بريطانيا من مدة طويلة قبل الحرب .

وإذ كان (سورنسون) قد ادعى بدوره أنه جندى ألمانى هارب من الخدمة – فإنهم قد عرضوا عليه خلال استجوابه أنواعاً مختلفة من الثياب الداخلية المستخدمة فى الجيش الألمانى ، وطُلِبَ منه الإجابة عن التاريخ الذى زود الجنود بكل نوع منها .

وكان الإنجليز يعرفون التاريخ الصحيح ، وكذلك كان (سورنسون) ، فلقد قال لهم : إنه كان مجنداً فى اللواء ٣٨٨ المرابط فى جزيرة (فجورد) بالقرب من مدينة أوسلو ، فعرضوا عليه صورة التقطت من الجو لمعسكر هذا اللواء ، وطلبوا منه أن يتعرف على أكشاكه المختلفة ، ثم قدموا إليه صورة أخرى ، التقطت أمام القيادة العامة الألمانية فى أوسلو ، وسألوه : « هل تعرف الشخص الذى يبدو فى الصورة ؟ » فأجاب : « كلا ، لا أعرفه » .

وبهذه الإجابة كان (سورنسون) يحصل على رتبة (أستاذ الجواسيس) ذلك أن تلك الصورة كانت تمثله شخصياً ، وقد التقطها عميل من المقاومة النرويجية ، على حين كان هو خارجاً من القيادة العامة . إلا أنه لم يهتز له جفن وهم يعرضونها عليه ، كما أنه ظل ثابت الجنان ؛ إذ أدرك أنهم جميعاً كانوا مراقبين ، وتقتفى آثارهم .

ولقد أنقذته شجاعته ، وساعدته رباطة جأشه : ذلك أنه فطن إلى أن هذه

الصورة فيها اهتزاز خفيف ، فركز على ذلك ، واستطاع إقناعهم بأنها ليست له . وأدرك الإنجليز أنهم أمام جاسوس بارع لا قبل لهم به ، لا يستطيعون برغم تيقنهم من حقيقته العثور على أقل دليل يمكنهم به تقديمه إلى المحاكمة .

وإذ عجزوا عن إثبات أى شىء عليه ، وكذلك على المجموعة التى تعمل معه – فإنهم لم يجدوا بداً من الاكتفاء بإرسالهم إلى أحد معسكرات الاعتقال ، حيث ظلوا فيه إلى نهاية الحرب .

* * *

كانت قصة (سورنسون) وزملائه نجاحاً للمخابرات الألمانية ، غير أنه كان نجاحاً سلبياً ؛ لأنها لم تحصل من ورائه على الفائدة التى كانت تنشدها ، ولو أنها سجلت أول هزيمة لمكافحة الجاسوسية فى بريطانيا .

وهناك جاسوس ألمانى آخر أنزل بها مثل هذه الهزيمة ، هو (هانس شميت) الدانمركى الذى عرف باسم « جاسوس يوم الأحد » ، وكان بدوره من مفاخر المخابرات الألمانية .

والواقع أن هذا الجاسوس كان من البراعة بحيث استطاع أن يدوخ مكافحة الجاسوسية أربع سنوات كاملة عجزت خلالها عن إيقاعه فى شباكها ؛ كما أنه تمكن من الاندماج تماماً فى المجتمع الإنجليزى ، واتخذ لنفسه زوجة منه ، وأصبح أباً لطفل من رعايا صاحب الجلالة الملك البريطانى !

غير أن نجاحه هذا كان على حساب فاعليته : فهو باندماجه فى الجمهور الإنجليزى كان حقيقة يبتعد عن عيون مطاردى الجواسيس ، لكنه كان يفقد بدوره إمكان مد العدو بأى شىء . فكيف كان يتسنى له – وهو الذى لم يجد أمامه عملاً سوى العمل فى مزرعة يقود فيها جراراً – أن يتطلع إلى ما يدور فى مكاتب لندن ، أو أن يحصل منها على وثيقة ما ؟

لقد كانت الفرصة (الوحيدة) التى يمكنه فيها محاولة ذلك هى أيام الأحد التى لا يكون فيها جالساً على مقعده فى الجرار ، فيروح يبحث عن الأماكن القريبة التى احتشدت فيها القوات ؛ لكى يستنتج منها إذا كان الهجوم على أوربا سوف يقع فى رأس (كاليه) ، أم فى نورماندى .

فهل استطاع أن يتوصل إلى ذلك ؟ كلا . . لأن بريطانيا كانت حافلة بالقوات المحتشدة فى كل مكان إلى حد قيل معه : إنه لا يمكن المرء أن يمشى من ساحلها الجنوبى حتى أسكتلندا ساعة واحدة إلا تصطدمه أسلاك شائكة تعزل أحد المعسكرات !

حتى إذا كان (الغزو) سيكون هدفه رأس (كاليه) فإن جنوب غربى إنجلترا سوف يظل مكتظاً بالجنود . وكذلك فإن اختيار نورماندى لن يكون من شأنه إخلاء جنوبيها الشرقى مما فيه من قوات ، فإن هذه القوات من الكثرة ، بحيث أصبحوا لا يجدون لها مكاناً تستقر فوقه ! ولكى تظهر الاستعدادات العسكرية فى بريطانيا مكان الهجوم الذى اختاره قادة الحلفاء كان يتعين معرفة أين أفضل الجنرالات ، وأفضل الفرق تزوداً بالعتاد وأكثرها تدريباً على القتال ، والوحدات المدرعة التى خصصت لمعارك الشواطئ ؟

وربما لم يكن ذلك أمراً مستحيلاً ، ولكنه كان فى جميع الأحوال خارج إمكان الجاسوس الألمانى الذى اختار مجالاً لعمله الزراعة والحقول !

* * *

لم يقتصر مجهود المخابرات البريطانية على الكشف عن الجواسيس الألمان ومحاكمتهم وتسليمهم إلى الجلاد ، أو على تحييد من لم تستطع أن تقيم عليهم الأدلة الكافية لكى تبعث بهم إلى العالم الآخر ، وإنما عملت على تحويل دهاة الجواسيس للعمل لحسابها ، فأفادت من ذلك أن ضللت الألمان عن حقائق

كثيرة ، في مقدمتها توجيه أنظارهم إلى منطقة أخرى غير التى تقرر أن تكون مسرحاً لعملية (أوفر لورد) .

فبدلا من أن تحشد ألمانيا أفضل قواتها فى نورماندى – اقتنعت تماماً بأن هجوم الحلفاء سيكون فى رأس (كاليه) ، فوجهت إلى هناك خيرة فرق الجيش النازى ، وأبرع جنرالاته للقيام بالهجوم المضاد الذى كان حريًّا بأن يدمر قوات الغزو لو أنها نزلت فعلاً هناك !

غير أن الحشود الألمانية العاتية كانت عند بدء الهبوط فى نورماندى على بعد أكثر من ثلثمائة كيلومتر ، وهى مسافة كانت هذه الحشود فى حاجة إلى عدة أسابيع لقطعها بعتادها الثقيل ، قبل أن تصل إلى ميدان المعركة . ولكن هذه الفترة كانت كافية للحلفاء ، لا لكى تثبت مواقع أقدام جيوشها فوق الساحل الفرنسى فحسب ، بل لتمهد الطريق لانتصارات لم يكن أحد فى قيادتهم العليا يتوقعها !

الفصل الثامن

الخلاف يدب ... بين حلفاء الغرب

تلك الآلة الحربية الهائلة التى أنشأها وأعد لها البريطانيون والأمريكيون الشهور الطوال فى نوع وثيق من التعاون والمشاركة – لم تبدأ دورانها إلا بعد أن زمجرت تروسها ، وبدا كأن الخلاف الذى نشب بين الذين أنشئوها سوف ينتهى حتماً إلى القطيعة بينهم ! وقد احتاج الجنرال آيزنهاور القائد الأعلى للقوات المتحالفة إلى كل دبلوماسيته ؛ لكى يضع الزيت اللازم لتليين تلك التروس !

فلقد كان سيحدث أن تجرى عمليتان للهبوط فى فرنسا يوم ٦ من يونية ١٩٤٤ ؛ ذلك أن رؤساء أركان حرب القوات المشتركة كانوا يتمنون أن تقتسم عملية الهبوط فى (نورماندى) المجد الذى ستسجله فى ذلك اليوم مع عملية هبوط أخرى تتم فى جنوبى فرنسا . وفى خلال هذه العملية يقوم جيش صغير مكون من فرقتين اثنتين تؤخذان من القوات العاملة فى البحر المتوسط باحتلال موضع قدم له بين المبانى الفاخرة المتناثرة على الكوت دازور .

وكان اسم (السندان) الذى أطلق على هذه العملية الإضافية اسماً ملائماً ، غير أنه بينما كان الغرض منها تسهيل عملية (أوفر لورد) ، إذا بها توشك أن تتسبب فى فشلها ، بالإضافة إلى تسميم العلاقات بين بريطانيا والولايات المتحدة .

والواقع أن المجابهة بين الدولتين قد بدأت فى وقت مبكر من ذلك العام عندما أراد آيزنهاور ومونتجومرى زيادة القدرة الهجومية لعملية أوفر لورد ، وذلك بإضافة خمس فرق جديدة مع توسيع نطاق المنطقة التى سوف تنزل فيها قوات الغزو على الساحل الفرنسى .

غير أن رؤساء أركان حرب القوات المشتركة فى واشنطون قد حذروا من أن ذلك على وجه التحديد – لن يترك لهم فرصة كافية للنجاح !

* * *

كانت النتائج التى ترتبت على هذه القرارات جسيمة : فالخطة التى وضعها رئيس أركان حرب القيادة العليا للحلفاء – كانت تقضى باستخدام ٣٣٢٣ سفينة من كل نوع لإنزال القوات على الشاطئ ، بالإضافة إلى ٤٦٧ سفينة حربية ، و١٥٠ من كاسحات الألغام .

وقد تعين مضاعفة عدد كاسحات الألغام ، وإضافة حوالى ١٠٠٠ سفينة إنزال أخرى إلا أن هذه السفن – وخاصة الزوارق الكبيرة منها – كان فيها عجز ؛ لأن بريطانيا لم تكن لديها الوسائل الكفيلة ببنائها ، وكان الأمريكيون يضعون تحت تصرفهم كل الاحتياطى منها .

وفى هذه الفترة كان الأميرال (كنج) قد بدأ هجوماً بحرياً فى المحيط الهادى بغير أن يلقى بالاً إلى هذا القرار الذى يقول : « أوربا أولاً » ، وهو الذى اتخذ فى واشنطون عام ١٩٤١ .

واتخذ الجنرال مارشال – وهو المدافع الأول عن أولوية أوربا والرئيس المباشر للجنرال آيزنهاور – موقفاً غريباً من هذا البرنامج الجديد : فقد كان يعتقد نظراً لأنه كان يؤيد دائماً الهجوم عبر بحر المانش – مثله مثل آيزنهاور – أن عملية (السندان) قد يكون فيها دعم لعملية (أوفر لورد) ، ولكنه كان يشك فى أن البريطانيين قد يعمدون إلى استخدام العتاد الأمريكى الخاص بإنزال القوات للقيام بمغامرة فى البحر المتوسط .

أما تشرتشل وجنرالاته فكانوا مقتنعين بأن (بطن أوربا اللينة) – إنما يُهيئ أمامهم فرصاً ثمينة ، وبدا لهم أن عملية السندان غير معقولة ؛ لأنه سوف

يُستخدم فيها رجال وعتاد لازمان ليس فقط لعملية (أوفر لورد) ، ولكن كذلك فى إيطاليا ، حيث المعارك آخذة فى الاتساع .

وبالنسبة للجنرال مارشال فإن الاعتراضات البريطانية لم تكن سوى محاولة لتجنب القيام بالهجوم عبر المانش . وفى شهر يناير ١٩٤٤ ، كان الحلفاء يريدون إنزال جيش فى (أنزيو) بإيطاليا وراء الخطوط الألمانية بغية تسهيل تقدمهم صوب روما ، وأوشك هذا الجيش أن يُقذف به فى البحر . وتسمرت قوات أنزيو فى الأرض ، وكانت فى حاجة إلى جانب كبير من القوات البحرية العاملة فى البحر المتوسط ، لكى تمدها بما تحتاج إليه من تموين .

كان آيزنهاور يعتمد على عملية السندان قائلاً : إن الجيش الفرنسى المرابط فى شمالى أفريقيا يمكن – إذا هو هبط فى فرنسا – أن يخفف عبء الحلفاء فى نورماندى . إلا أنه إزاء هذه الصعاب وإلحاح مونتجومرى الذى كان يريد عملية (أوفر لورد) على أقوى ما تكون – أعلن نيته على التخلى عن الهبوط فى جنوبى فرنسا .

وعارضه مارشال فى ذلك ، فلما كان شهر فبراير وجه إليه ضربة على أصابعه ، لأنه استجاب لضغط البريطانيين ، وكتب إليه قائلاً : « وأرجو ألا يكون ضغطهم قد أفسد حكمك على الأمور ! » .

إن البريطانيين لم يستسيغوا قط عملية (السندان) ، ولكن ما كانوا يريدونه هو استمرار الحرب فى إيطاليا ، والاستيلاء على روما . وقالوا فى ذلك : إنه إذا كان لا بد من فتح جبهة (ثانية) فى البحر المتوسط فما الذى يمنع من الهبوط فى مكان آخر غير الجنوب الفرنسى الذى يسهل على الألمان الدفاع عنه ؟

* * *

وفى يوم ٩ من فبراير بعث تشرتشل خطاباً إلى روزفلت يقول له فيه : « إننى

أشعر بمنتهى القلق إزاء الخلاف الفكرى الذى يتصاعد بين هيئتى أركان الحرب فى بلدينا ، فى مثل هذه اللحظات الهامة . فالمسألة ليست مقصورة على معرفة احتمال أن فرقة محمولة على قوارب الإنزال يتعين نقلها من عملية السندان إلى عملية أوفر لورد برغم أن ذلك يبدو أمراً مرغوباً فيه . ولقد طلبت من هيئة الأركان البريطانية أن تدرس من وجهة نظر الإمدادات العسكرية – مسألة تحريك فرقتين أو ثلاث من المغرب . ولسوف يكون هذا الجيش قريباً جداً من ميدان القتال ، وقد يمكن قياداتنا استخدامه فى أى وقت وفى أى مكان فى بحر المانش ، أو على ساحل الأطانطى ، حيث يرون ضرورة لذلك » .

ولكن الأمريكيين لم يستسلموا ، وبذلك تفاقم النزاع ، واضطر آيزنهاور أن يعترف فى شهر مارس بأن « عدم الاستقرار قد أصبح ملحوظاً لدى جميع أولئك الذين يتولون مخططات عملية أوفرلورد ، أو يعدون العدة لتنفيذها » .

ثم كان من شأن الفشل الذريع الذى سجل فى التدريب على إنزال القوات فى منطقة (أوتاه) الذى أجرى فى (سلابتون ساندز) . وأسفر عن غرق عدة زوارق ثمينة – أن تحتم تأخير عملية (السندان) ، إذ تم سحب جميع العتاد الذى كان معداً لتنفيذها من مسرح العمليات بالبحر المتوسط ، ونقله إلى (أوفر لورد) .

وكما لو أن ذلك لم يكن كافياً ، إذ بذلت جهود لإقناع الأميرال (كنج) بأن يبعث بجانب من احتياطياته ، وأن يأخذه من معدات الهجوم القادم الذى كان يزمع القيام به فى المحيط الهادى . غير أنه أصر على ضرورة الاحتفاظ بقوارب الإنزال لعملية (السندان) . وهو ما سبب صدمة للبريطانيين ، مما جعل الجنرال آلان بروك رئيس لجنة رؤساء أركان الحرب يعلق على ذلك قائلاً : « إن التاريخ لن يغفر للأمريكيين أنهم ساوموا على هذا العتاد فى مقابل

إستراتيجية معينة ، وأنهم حاولوا إجبارنا على قبول هذا الاتفاق بتهديدنا بحجب هذا العتاد عنا ! ».

وساء الأمريكيين بدورهم - أن يضع البريطانيون أيديهم على السفن المصنوعة فى الولايات المتحدة ، لكى يستعملوها لتحقيق أهداف خاصة بهم فى البحر المتوسط . ثم تدهورت الأمور إلى حد جعل تشرتشل يثور ، ويرسل برقية إلى الجنرال مارشال يقول له فيها : « إن كل الصعاب التى تنطوى عليها هذه المشكلة إنما ترجع إلى النقص المخزى الذى نعانيه فى زوارق إنزال الجنود ، فكيف نسمح بأن تنهار مخططات بريطانيا والولايات المتحدة نتيجة لمائة أو مائتين من هذه الزوارق ؟ إن التاريخ لن يهضم ذلك ! » .

عند ذلك أمكن التوصل إلى حل وسط وضع حداً لهذا النزاع ، وبموجبه اتفق على أن عملية (السندان) سوف تنفذ مساندة للهبوط فى نورماندى ، ولكن هذا التنفيذ لن يتم إلا فى شهر يوليو . وإلى جانب ذلك فما من قرار سوف يتخذ فى البحر المتوسط قبل أن تسقط روما ، وهو ما يتيح لتشرتشل الزهو بنصر يحققه البريطانيون .

ولما كانت قوات الجنرال ألكسندر لم تدخل العاصمة الإيطالية إلا فى اليوم السابق مباشرة ليوم الهجوم فى نورماندى فإن عملية (السندان) التى فقدت الكثير من قيمتها لم تتم إلا فى شهر أغسطس ، بعد أن تغير اسمها إلى (دراجون) أى التنين بناء على رغبة تشرتشل الذى شعر بالارتياح لانتصاره على الأمريكيين !

* * *

وإلى جانب هذه القصة التى أحدثت خيبة أمل لدى آيزنهاور - نشأت قضية أخرى مؤسفة بين الحليفتين ، هى الخاصة بقاذفات القنابل الإستراتيجية ،

وهى السلاح الساحق الذى كان يعتمد عليه الحلفاء . وقد اشتد النزاع بينهما لهذا السبب إلى حد كاد يتحول إلى نتائج مدمرة ، سواء على المستوى السياسى أو العسكرى .

فلقد كان آيزنهاور يثق ثقة كاملة بسلاح الطيران الذى اعتبره سنداً حاسماً فى العمليات البرية . وقد سبق له أن طبق مفهومه هذا فى البحر المتوسط بالتعاون مع كل من مارشال الجو (تيدر) والجنرال (كارل سباتز) من سلاح الطيران الأمريكى ، حيث سحق تماماً تحت قنابله تجمعات العدو ، ودمر له طرق مواصلاته ، فقطع عنه أى تعزيزات ، وذلك بتعاون هذا السلاح مع القوات العاملة على الأرض .

وبوصفه قائداً عاماً فقد كانت له السيطرة المطلقة على القوات الجوية فى ذلك الوقت ، وكان من غير المشكوك فيه أن الأمريكيين سيطالبون بالوضع نفسه ، بالنسبة لعملية أوفر لورد .

ففى يوم ٦ من نوفمبر ١٩٤٣ كتب مارشال الجو (شارلز بورتال) رئيس أركان حرب القوات الجوية الملكية البريطانية إلى ونستون تشرتشل ؛ ليخطره بما يأتى : « إننى أود أن أخبركم أننا سوف نتلق طلباً من واشنطون يتضمن أن يعهد بمجموع قاذفات القنابل الإستراتيجية البريطانية والأمريكية إلى القائد الأعلى لعملية (أوفر لورد) ، وسيكون ذلك على الأرجح بعد تعيينه مباشرة ابتداء من اليوم الرابع عشر قبل يوم الهجوم . وأعتقد أنك تتفق معى على أن هذا الطلب لن يكون أمراً مقبولاً ، مثله مثل قيادة الأسطول البريطانى ! » .

والمعروف أن الأسطول البريطانى هو الرمز الأسمَى للسيادة البريطانية ولم يكن الوضع فى بريطانيا مثله فى البحر المتوسط : فقد كانت القيادة الساحلية تشن على الغواصات المعادية معركة حاسمة ؛ كما أن مارشال الجو المخيف (آرثر

هاريس) قائد القوات الجوية الإستراتيجية البريطانية كان يقوم منذ عام ١٩٤٣ بهجوم جوى عنيف على ألمانيا . وكان سلاح الجو الملكى البريطانى — ومعه اللواء الجوى الأمريكى الثامن — يطبقان تحت قيادته تطبيقاً تاماً البرنامج الذى تحدد فى مؤتمر الدار البيضاء ، والذى ينص على « تدمير وتفكيك الجهاز العسكرى والصناعى والاقتصادى فى ألمانيا ، مع القضاء على الروح المعنوية لدى الشعب الألمانى ، إلى الحد الذى يفقد فيه قدرته على المقاومة المسلحة » .

وكان المارشال هاريس يعتقد أن القوات المختارة التى وضعت تحت قيادته يمكنها وحدها أن تكسب الحرب ، وكان الجنرال (كارل سباتز) قائد اللواء الجوى الأمريكى الثامن يشاطره هذا الرأى . وقد أعلن الاثنان أن ثلاثين يوماً من العمليات التى يقومان بها — تكفى سقوطَ الرايخ الثالث ، فكان من المقطوع به أن (هاريس) لن يتخلى بسهولة عن قيادة قاذفاته وخاصة أنه كان يعتبر دكتاتوراً ، واشتهر بأنه لا يقبل أى توجيه يأتيه من الخارج .

وقد رد تشرتشل الذى لم يكن يشارك فى مخاوف (بورتال) و (هاريس) ، قائلا : « لست واثقاً من أن فى وسعنا مقاومة الجنرال مارشال إذا كان هو القائد العام ، وإذا طلب منا أن يشرف على جميع القوات الإستراتيجية لقاذفات القنابل خلال الفترة التى تستغرقها عملية أوفر لورد ؛ لأنها جزء جوهرى من العملية نفسها ، فهى من ثم تابعة له ، ولكن بطريقة ليست بالتأكيد ما يسرى على الأسطول البريطانى . غير أننا سوف ننتظر حتى يتم إعداد هذا الطلب ؛ لكى نقبله فقط ، عندما يكون فى التسوية كلها ما نرضى عنه » .

وقد تفجر النزاع بشأن هذا الموضوع ابتداء من شهر يناير ١٩٤٤ ، عندما تحدد الهيكل العام للقيادة المشتركة .

* * *

والواقع أن هيئة أركان حرب القوات الجوية البريطانية لم تكن ترى فى عملية أوفر لورد سوى مسرح عمليات من بين سائر مسارح العمليات الأخرى . وفى الخطاب الذى بعث به (بورتال) يوم ٦ من نوفمبر ١٩٤٣ إلى تشرتشل كان يفكر فى عدم تحويل قاذفات القنابل عن أهدافها الأخرى إلا خلال فترة قصيرة للغاية . وكان قد أوضح النقطة التالية : « إنه من غير المحتمل – على الأقل نظرياً – أن تنصرف هذه القاذفات انصرافاً كاملاً عن الهجمات التى تقوم بها فوق ألمانيا قبل الفترة السابقة على عملية أوفر لورد التى يرجح أنها خمسة عشر يوماً قبل بدايتها » .

غير أن آيزنهاور يؤيده مساعده فى القيادة مارشال الجو (تيدر) ومارشال الجو (لى مالورى) الذى كان نائباً له بوصفه قائداً للقوات الجوية الخاصة بالغزو – كان يعرف أنه لكى يؤمن نجاح (أوفر لورد) سوف يكون فى حاجة إلى قدر أكبر من الطائرات أكثر بكثير مما يمكن أن توفره المجموعة الثانية للقوات الجوية التكتيكية البريطانية واللواء الجوى التكتيكى الأمريكى التاسع ، حتى مع طائراتها المقاتلة القاذفة الحديثة .

ذلك أنه كان ينتظر إسهاماً أكبر من جانب معاونة السلاح الجوى تمكنه من عرقلة جميع تحركات العدو ، وهذا ما يتطلب أن تكون للقاذفات الإستراتيجية السيطرة الكاملة على السماء فوق ميدان المعركة .

وفى شهر فبراير ١٩٤٤ بدأ المارشال (تيدر) يعرب عن مخاوفه قائلاً : « إننى أخشى قيام بعض الصعاب الخطيرة التى من شأنها الإضرار بالتعاون البريطانى الأمريكى فى عملية أوفر لورد إذا اتخذ رئيس أركان حرب القوات البريطانية ورئيس الوزراء تشرتشل فيما يتعلق بموضوع قيادة قاذفات القنابل موقفاً يحول دون توحيد القيادة ؛ ذلك أن أى فجوة فى مسألة القوات الجوية يمكن أن

يترتب عليها – وخاصة أن المسألة مطروحة بكل وضوح – حدوث قطيعة بين الجانبين لا يمكن إصلاحها » .

* * *

هذا الخلاف فيما يتعلق بقيادة القوات الجوية – كان ينبع عن اختلاف خطير فى المفهوم الخاص بإستراتيجية الخطة التى تقوم عليها عملية (أوفر لورد) : فلقد كان بديهياً أن عمليات القصف المركز والكثيف على ألمانيا – سوف يساعد بصورة غير مباشرة على نجاح هذه العملية عن طريق إضعاف مقاومة العدو . غير أنه كان لا بد من تقرير استخدام قاذفات القنابل خلال الأشهر الثلاثة التى ستسبق يوم الهجوم .

وكان كل من (هاريس) و (سباتز) موافقين على أن أسراب طائراتهما عليها أن تسحق دفاعات العدو قبل بدء إنزال القوات على الساحل الفرنسى ، ولكنهما لم يستثيغا أن يستخدما لثلاثة أشهر أفضل أطقم من الطيارين لديهما فيما كان يسميه مارشال الجو (هاريس) باحتقار « تقديم العون للقوات البرية » ، معترضاً بذلك على (تيدر) و (لى مالورى) اللذين كانت خطتهما التى وضعاها ، وأسمياها « خطة تدمير المواصلات » تهدف إلى التدمير الكامل للخطوط الحديدية فى شمالىّ فرنسا

وكانت هذه الخطة تقوم على تحليل علمى وضعه البرفسور (زوكرمان) الذى درس الآثار الناجمة عن قصف الحلفاء لجزيرة صقلية وجنوبى إيطاليا ، فأقنع بالنتائج التى توصل إليها (تيدر) من أن تدمير الشبكة الحديدية وورشها له أثره الحاسم فى شل حركة التعزيزات الألمانية .

أما مارشال الجو (آرثر هاريس) فلم يكن من هذا الرأى ؛ إذ كان يرى فى مجرد تدمير ورش السكك الحديدية نوعاً من التبذير ، بل وجريمة تشكل خطأ

لا يغتفر ، لأن فى ذلك تحويلاً لأفضل سلاح عن وظيفته الحربية التى أعد لها ودرب عليها ، إلى القيام بأعمال تافهة لا يمكنه القيام بها بفعالية . وفى ذلك أسوأ خدمة يمكنه أن يقدمها للقوات البرية ، بالتظاهر زوراً بأنه يعاونها ، ولكنه فى الحقيقة ينزل بها كارثة مباشرة !

لم يكن تشرتشل بدوره مقتنعاً بفاعلية « خطة تدمير المواصلات » ، وكان يقول : إن مثل هذا القرار الخاطئ من شأنه أن يتيح للقوات الجوية الألمانية أن تلتقط أنفاسها ، وتجعل العدو يعزز دفاعاته عن الرايخ . والواقع ان عدداً من الإحصائيات التى أجريت دلت على أنه برغم الغارات المكثفة على ألمانيا فإن طائرات القتال الألمانية قد زاد عددها .

غير أن ما كان يعنى آيزنهاور هو أن (أوفر لورد) لها الأهمية العليا . وقد لجأ إلى أسلوبه المعتاد فى التهديد ، فأبلغ تشرتشل أنه إذا لم يحصل على ما يريد فإنه سوف « يعود إلى بيته ! » . . .

* * *

وهنا تدخل (بورتال) بدبلوماسية استرعت الأنظار ، فاستطاع أن يوفق بين وجهتى النظر ، وأنشأ مع آيزنهاور وتيدر لجنة خاصة مهمتها أن تحدد الأهداف التى يتعين تدميرها ، وهو ما أتاح له أن يتخطى (هاريس) المخيف .

ولكى يختبر فعالية قاذفات القنابل من طراز لانكستر على هدف من هذا النوع فقد أصدر أمراً بالقيام بغارة تجريبية أجريت يوم ٦ من مارس ١٩٤٤ على مركز (تراب) الحديدى . وقد أسفرت هذه الغارة عن تدمير ستين قاطرة ، وشل الحركة لعدة أسابيع فى محطة الفرز .

وبعد ذلك اعتقد بورتال أنه جعل الجميع يوافقون على ما اقترحه عليهم من انه ما دامت قائمة الأهداف قد قبلت فإن قيادة العمليات يتولاها القائد

الأعلى : أى آيزنهاور .

ولكن ذلك لم يكن كافياً لآيزنهاور ، ولا لواشنطون : فى يوم ٢٢ من مارس سجل آيزنهاور فى يومياته : « إذا لم أحصل على رد مرض فإننى سوف أتخذ قراراً عنيفاً بتبليغ رؤساء أركان القوات المشتركة أنه إذا لم تتم تسوية فورية فسأطلب إعفائى من القيادة ! » .

وهذا الرد المرضى لم يحصل عليه إلا بعد ذلك بخمسة عشر يوماً على حين لم يبق أمامه سوى شهرين للقيام بعملية (أوفر لورد) .

وخلال ذلك كان باقياً الاتفاق على اختيار الأهداف . وقد استعان (بورتال) بكل ما فى جعبته من دبلوماسية ، فعمل على استدعاء الطيارين التابعين للقيادة المشتركة . وتم الاجتماع يوم ٢٥ من مارس ، وكانت مواجهة عنيفة بين الفرقاء المتعارضين ؛ إذ كان (هاريس) يصر على متابعة غاراته على المراكز الصناعية الألمانية على حين رأى (سباتز) أن أفضل ما يستخدم فيه لواؤه الجوى الثامن – هو ضرب احتياطيات الوقود فى الرايخ ، وقال : « ليس هناك سوى أربع وعشرين مصنعا للبترول الصناعى ، فإذا نحن دمرناها واحداً وراء الآخر أصبحت الدبابات الألمانية بغير وقود ، فتضطر للتوقف عن القتال » . لكن تيدر ولى مالورى اعترضا بأن النتيجة لن تظهر قبل مضى وقت طويل .

* * *

وإذ حصلت خطة « تدمير المواصلات » على تأييد آيزنهاور فإن ذلك ترتب عليه نزول مجلس الحرب البريطانى إلى الحلبة . وقد سأل تشرتشل « كم من الفرنسيين الذين هم حلفاؤنا سوف تؤدى هذه الخطة إلى قتلهم ؟ » ثم أضاف أن هذه الخطة على المستوى العسكرى قد وضعت بطريقة جميلة . ولكن أن تقتل قاذفات القنابل الثقيلة آلاف المواطنين الفرنسيين سوف يلطخ اسم سلاح الطيران

الملكى البريطانى بالوحل أمام العالم كله !

وقدمت إدارة أبحاث العمليات أرقامها فى هذا الصدد فقالت : إن عدد الذين سوف يقتلون يتردد بين ٨٠٠٠٠ و ١٦٠٠٠٠ شخص ، مما أدخل الرعب على قلب تشرتشل على حين صاح إيدن قائلاً : « لسوف تكون فى ذلك فرصة عظيمة لجوبلز ، لكى يسوئ سمعة الحلفاء ! »

وطلب مجلس الحرب البريطانى أن يقتصر القصف بالقنابل على أهداف لا تؤدى إلى وقوع أكثر من مائة أو مائة وخمسين قتيلاً من بين المدنيين ، ولكن الأمر الذى دعا إلى الدهشة هو أن الجنرال (كونيج) مندوب الجنرال ديجول فى قيادة القوات الفرنسية الحرة فى بريطانيا لم يبد أى اعتراض ! أما تشرتشل فقد حرص قبل أن يتخذ قراره على أن يستشير روزفلت الذى جاء رده صريحاً لا لبس فيه . إذ قال : « مع أسفى على الأرواح البشرية فإننى لا أعترض على ما يراه العسكريون » .

وهكذا بدأت عملية الضرب بقنابل الطائرات الهادفة إلى عزل نورماندى منذ شهر أبريل . فأسقط عليها أكثر من ٧٠٠٠٠ طن من القنابل استهدفت شبكات السكك الحديدية ، وعطلت المواصلات الألمانية ، ونسفت جميع الجسور . ودمرت عدداً كبيراً من المطارات . غير أن الحلفاء دفعوا ثمن ذلك غالياً . إذ فقدوا فى الفترة من ٢٨ أبريل إلى يوم ٦ من يونية ١٩٥٣ طائرة ، و ١٢٠٠٠ رجلٍ من العاملين عليها .

وفى خلال ذلك خرجت الطائرات المتحالفة فى ٢٠٠٠٠٠ طلعة ، أسقطت خلالها ١٩٥٤٠٠ طن من القنابل . وبينما اختفت طائرات السلاح الجوى الألمانى تقريباً من سماء الغرب فإن المدفعية الألمانية المضادة للطائرات كانت تزمجر بأقصى قوتها خلال الإعداد ليوم الهجوم .

الفصل التاسع

لعبة الاستغماية مع العدو الألمانى

كانت لندن تتلقى أولاً بأول أنباء متفرقة يبعث بها سرًّا رجال المقاومة فى فرنسا الذين كانت مهمتهم (الوحيدة) رصد ومراقبة تحركات قوات العدو فى الأراضى المحتلة . ومن هذه الأنباء المتفرقة كان الحلفاء يعرفون على وجه التحديد مضمون أمر القتال الألمانى . .

وكان الفيلد مارشال جيرد فون رونشتت القائد الأعلى للجبهة الغربية ينتظر بأقدام ثابتة فى قيادته العامة فى (سان جرمان آن ليه) هبوط الحلفاء على الشاطئ الفرنسى الذى كان كل شىء ينبئ بأنه سيتم خلال هذا العام ١٩٤٤ ، وبالتأكيد قبل مقدم فصل الخريف :

ذلك أن الإجراءات التى اتخذها مجلس الحرب البريطانى ، وبموجبها حظَر الدخول إلى المناطق الساحلية ، وألغى امتياز السفارات الأجنبية باستخدام الحقيبة الدبلوماسية - كانت فى ذاتها كافية لإقناعه بقرب هذا الهبوط .

كان هذا الجندى العتيد الذى أثقلته الحرب العالمية الأولى ، والذى تربى منذ نعومة أظفاره على التقاليد العسكرية البروسية لا يرى فى هتلر أكثر من جاويش بوهيمى ! وهذا تلميح يشوبه الاحتقار إلى أن هذا العريف البسيط فى الجيش الإمبراطورى الألمانى القديم قد ولد فى إحدى مدن النمسا ، فلم يكن فون رونشتت يبالى بإخفاء عدائه إزاء نظام حكم يصدم مفاهيمه الأرستقراطية ، ولو أن روح الجندية التى انطبع عليها كانت تحتم عليه أن يخضع له ؟

ولما كان قد أحيل إلى المعاش عام ١٩٣٨ فإنه وافق بعد ذلك بقليل على أن

يستدعوه مرة أخرى للخدمة ، فأثبت بخبرته أنه سيد الحرب فى بولندا ، ثم فى فرنسا ، وأخيراً فى أوكرانيا ، حيث كان واعياً تماماً لنظرية (البليتزكريج) : أى فنون الحرب الخاطفة .

ولأن حكمته كانت تجعله يخشى مخاطر الحرب فى الشتاء فى روسيا - فإنه قدم استقالته من الخدمة ، ولكنه أطاع هتلر عندما عينه لتولى قيادة الجبهة الغربية ، ولسوف نراه خاضعاً لمفهوم النظام نفسه ، عندما سيصبح عضواً فى المحكمة التى مثل أمامها الذين بقوا على قيد الحياة ممن اشتركوا فى مؤامرة ٢٠ من يوليو ١٩٤٤ ضد هتلر برغم أنه كان عليه أن يحاكم العديدين من رفاقه فى السلاح !

ومن حيث قوة الأخلاق - فإن التقويم الذى خضع له منذ شبابه خلق منه إنساناً آليًّا داخل الزى العسكرى .

وفى ربيع عام ١٩٤٤ - كان يتولى ومعه الجنرال (بلومنتريت) الذى اختاره لرئاسة أركان حربه الإشراف على رئيسى مجموعتى الجيوش (ب) و (جـ) ، وكان يرأس المجموعة الأخيرة الجنرال (بلاسكوفيتش) الذى عليه أن يقاوم أى محاولة لنزول قوات الحلفاء على ساحل الأطلنطى ابتداء من (هنداى) حتى الضفة اليسرى لمصب نهر (اللوار) ، بالإضافة إلى الساحل الفرنسى المطل على البحر المتوسط ، حيث لا ينتظر وصول العدو .

* * *

أما مجموعة الجيوش (ب) ، فكان يتولى قيادتها الفيلد مارشال روميل الذى يتمتع بمكانة رفيعة فى ألمانيا منذ انتصاراته فى ليبيا ، وكذلك لدى الحلفاء وبصفة خاصة لدى الجنرال مونتجومرى الذى قيل : إن صورة القائد الألمانى لم تفارقه قط ؛ لكى يتبين ويستشف من ملامحه نواياه فى المعارك .

وكان رونشتت يسميه بعجرفة « المارشال الشاب » ، ليس فقط لأنه يصغره

بستة عشر عاماً ، وإنما لأن روميل الذى خرج من صفوف الشعب كان من بين الأوائل الذين انضموا إلى الحزب النازى ، بعد أن حارب بدوره وببسالة فى الحرب العالمية الأولى .

ولم يكن رونشتت يجهل أن خصمه الشاب وزميله فى الرتبة قد ارتكب هفوة بانتمائه إلى (فرق الهجوم) ، وهى التشكيل الشبيه بالعسكرى الذى أنشأه هتلر منذ عام ١٩٢١ ، وارتكب الكثير من أعمال العنف والقتل ، قبل أن ينضم إلى الجيش برتبة ميجور فور تولى هتلر الحكم .

ثم انطلق بعد ذلك ركضاً قافزاً الرتب المتالية ، فكان قائداً لامعاً للفرقة المدرعة السابعة فى أثناء معركة فرنسا ، ثم قائداً للفيلق الأفريقى الذى أنشئ حديثاً .

ويقول رونشتت : « لا شك فى أن روميل جعل البريطانيين يكابدون حياة شاقة طوال عامين ، ولكنه اضطر أن يخفض أعلامه أمام مونتجومرى فى العلمين ، وأن يتراجع حتى تونس ، ومن هناك استدعى إلى أوربا قبل الكارثة الكاملة التى تحمل فون آرمين مسئوليتها باستسلامه يوم ١٢ من مايو ١٩٤٣ . فروميل إذن فى السن التى يتولى فيها قيادة من الجيوش - فإننى تسلمت لتوى منصب قائد مجموعة من الفرق » .

وفى ذلك اعتبار له مغزاه فى النظام الرئاسى العسكرى .

* * *

وعندما عاد روميل إلى برلين لم يلبث أن لاحظ أن الوضع فيها قد تغير كثيراً منذ سافر لتولى القيادة فى ليبيا .

وفى البداية كلفه هتلر التفتيش على الدفاعات الساحلية التى تبدأ من (سباجيراك) حتى الحدود الفرنسية الإسبانية ، وهى الدفاعات الجديدة التى

عرفت باسم « الحائط » الذى لم تكف دعاية جوبلز من القول بأنه غير قابل إلى الاقتحام !

ونظراً إلى أن التقرير الذى قدمه روميل كان قاسياً فإن هتلر قد عينه – تحت إمرة رونشتت – على رأس مجموعة الجيوش التى كلفت الإشراف على الأقاليم الواسعة التى تبدأ من عند الطرف الغربى لبريطانيا حتى الحدود البلجيكية الهولندية ، وتضم هذه المجموعة الجيش الخامس عشر الذى يقوده الجنرال فون سلموث الذى أقام مقر قيادته العامة فى (توركوان) ، والجيش السابع الذى يقوده الجنرال دولمان الذى جعل مقر قيادته فى (رين) .

وكان ذلك يشكل – فوق الورق – عدداً يعتد به من الفرق . إلا أن روميل عندما راح يفتش عن قرب الجيش السابع اكتشف فيه عدداً من المرضى والمصابين فى سيقانهم الذين تم إخلاؤهم من الجبهة الشرقية ، فضلاً عن عناصر متنافرة بعضها مشكوك فيه ، فكيف مثلاً يمكن الوثوق بجنود من الألزاس أو من التشيك أو الهولنديين والبولنديين واليوغوسلاف والرومانيين والهنغاريين الذين أجبروا على ارتداء الزى العسكرى الألمانى ؟ وما القول فى أولئك الأرمن والتتار والتركمانيين والقوقازيين ، الذين جمعهم الجنرال الروسى (فلاسوف) الذى انضم إلى صفوف الجيش الألمانى عام ١٩٤٢ ، من معسكرات الأسرى . وجعل منهم جيشاً يحمل اسمه ؟

وعلى العكس من ذلك – كانت الفرق المدرعة الست التى رابطت إلى الشمال من نهر (اللوار) مدربة أعلى تدريب ، ومزودة بعتاد يفوق بكثير الدبابات الهجومية التى لدى الحلفاء ، ومثلها الفرق المدرعة الأربع التى وقفت كقوة احتياطية جنوب ذلك النهر .

بيد أن هذه الفرق الست – وكذلك الفرق الأربع – ما كان يمكن أن

تتحرك إلا بأمر خاص من هتلر يرسل إلى الجنرال جير فون شيبنبورج الذى يتولى قيادة مجموعات دبابات الغرب ، والذى يتصل مقر قيادته العامة مباشرة بالقيادة العليا للجيش الألمانى . وكان هتلر ينوى أن يحرك وفقاً لمشيئته هذه القوات الثمينة على رقعة المعركة المنتظرة التى يتوقف عليها مصير الحرب .

* * *

ولقد كان مقرراً أن ينشئ روميل قيادته العامة فى (فونتين بلو) ، إلا أن هذه المدينة ذات الاسم المشهور بدت له بعيدة عن الشواطئ التى عليه تولى الدفاع عنها ، ولذلك وقع اختياره على مبنى تمتلكه أسرة (روشفوكو) ، وهو فى روش جويون فى مكان ما على نهر السين بين (مانت) و (فيرنون) ، وأقام فيه يوم ٩ من مارس ١٩٤٤ .

وما إن استقر هناك حتى وجه على الفور الدعوة لعقد اجتماع قمة كان يأمل من ورائه إطلاق يده فى استخدام القوات المدرعة . وقد حضره كل من رونشتت وفون شيبنبورج ، وكذلك الجنرال هاينس جودريان المفتش العام للقوات المدرعة الذى سبق له أن كان رئيساً عمل روميل تحت إمرته فترة وجيزة فى معركة فرنسا عام ١٩٤٠ : وعلى الفور بدأ الرجال الأربعة يجابه بعضهم بعضاً .

وبدأ روميل الحديث فقال : « إن من الجوهرى منع العدو من تدعيم مواقعه إذا هو نجح فى احتلال موقع قدم له على الشاطئ . ولعمل ذلك فإن على دباباتنا من طراز تايجر وبانتر أن تكون على أهبة الاستعداد للتدخل المباشر ؛ فمن المهم إذن أن نعد على الفور مدرعاتنا لتقف وراء الشواطئ التى يمكن أن يهبط فيها العدو . فمن الأكثر أهمية أن يكون تحت تصرفنا فرقة مدرعة جاهزة فى ميدان

المعركة فى القطاع الذى يقع فيه الهجوم – عن أن نتلقى ثلاث فرق بعد وقوعه بثلاثة أيام !

لقد كان رونشتت يقول عن زميله الشاب : « إننى أرى فيه رجلاً شجاعاً ، وقائداً قديراً فى العمليات الصغيرة ، ولكنى أعتقد أنه لا يصلح لتولى أى قيادة أعلى » ، ولذلك فإنه رأى فيما قاله روميل الدليل على حكمه عليه ! وقد انبرى للرد على ما أدلى به قائلاً : « معنى ذلك أنك تريد تجميد قواتنا المدرعة . فهل فكرت فى أن الحلفاء يمكنهم مهاجمتنا فى أى نقطة من القطاع الذى توليته ؟ إن من رأيى أن من البديهى أن هذا الهجوم سوف يقع فى منطقة رأس كاليه ، بحيث يصل بسرعة إلى وادى الرور . ثم إن لدى الحلفاء سبباً آخر يحملهم على ذلك ؛ فإن هجماتهم المتكررة على مواقع إطلاق صواريخنا من طراز ف – ١ ، تدل على خوفهم من هذه القذائف على دفاعهم الجوى ، ولست أوافق بكل تأكيد على تجريدى من قوة احتياطية متحركة » .

وقال فون شويبنبورج : « لسوف يكون من الجنون تقريب مدرعاتنا من الشواطئ » . فهل تريد لها أن تسحق بقنابل الإنجليز والأمريكيين ؟ إن علينا أن نقيها الهجوم الجوى ، وذلك بوضعها فى الغابات المحيطة بباريس ، وألا نجعلها تبدأ هجومها إلا بعد أن يتوغل العدو فى الأراضى الفرنسية » .

وهنا أجاب روميل : « إن الجنرال شويبنبورج قد تكون له معرفة بالبريطانيين فى زمن السلم ، ولكنه لم يواجههم – مثلى – فى ميدان القتال . فهل فكر فى أن سلاح الطيران الألمانى قد اختفى فعلاً من سماء فرنسا ؟ لو أن مدرعاتنا كان عليها – كما يقترح – أن تقطع مسافات طويلة على الطرق لأبادها طيران الأعداء قبل أن تضرب طلقة مدفع واحدة ! » .

وتدخل جودريان فى النقاش فقال : « يا عزيزى روميل ، هل دار فى

ذهنك أننا إذا وضعنا دباباتنا وراء الشواطئ فإنها قد تصبح فى وضع سيئ إذا أنت أخطأت فى تقدير القطاع الذى ينوى العدو أن يهاجم فيه ؟ »

وانفض الاجتماع دون اتخاذ أى قرار !

غير أن فون شويبنبورج طار إلى برخستجادن فى محاولة لإقناع هتلر بوجهة نظره ، ولكن زيارته هذه أسفرت عن حل وسط يقضى بوضع الفرق المدرعة الست المرابطة فى شمال نهر (اللوار) تحت القيادة المباشرة لفون رونشتت ، على حين أن الفرق الأربع الأخرى لا يمكن تحريكها بغير موافقة خاصة من القيادة العليا .

ولم يُرض هذا الحل أحداً ، بل وامتعض منه رونشتت الذى اقترح نقل مجموعة الجيوش (جـ) التى يقودها الجنرال بلاسكوفيتش شمالاً حتى خط نهر اللوار ، لتشكل احتياطيًا قويًا مستعدًا فى أى وقت للتحرك إلى أى قطاع يتعرض للتهديد . وكان ذلك يعادل إخلاء كل الجنوب الفرنسى . فاعترض هتلر على الاقتراح . ورفضه بعنف .

* * *

على أنه فى خلال ذلك – كانت الدفاعات الساحلية تتدعم نتيجة لقوة الدفاع النشيطة من جانب روميل .

والواقع أن الفيلد مارشال الذى خرج من صفوف الشعب الألمانى البسيط كان بحق هو الشعلة التى تشجع البعض ، وتبث الحماس ، وتضاعف من سد الثغرات فى حائط الأطلنطى ، وتكثر من العراقيل التى تعترض سفن الغزو المحتمل . ولقد كان يود لو أنه صنع أكثر من ذلك مائة مرة ، أو ألف مرة ، لولا أن وسائله المادية كانت محدودة .

إن المعروف الآن أن فكرة تجسيد هذا (الحائط) – إنما خرجت من ذهن

هتلر شخصياً . فقد كشف الوزير الألمانى ألبرت سبير عن أنه هو - أى الفوهرر - الذى صمم بنفسه الأنواع المختلفة من التحصينات ، وكان يفعل ذلك عادة بعد منتصف الليل . وكان يجتهد حتى يجىء بناء الحائط بحيث يغطى بصورة مثالية الاحتياجات كافة .

ولقد أقيمت المراكز الحصينة والقلاع وفقاً لرسوم وضعها هو شخصيًّا . شملت كل شىء ابتداء من (أعشاش المدافع الرشاشة) إلى مواقع مقاومة الدبابات التى يستطيع أن يعمل فيها جندى واحد بكفاءة إلى الحصون التى تضم قوة احتياطية متحركة ، إلى تجمعات المقاومة التى تضم قوة ضاربة تعمل فيها كتيبة كاملة .

وفيما حول منطقة (جرى نيه) - يمكن حتى اليوم مشاهدة هذه الأعمال الهندسية الضخمة القادرة على مقاومة أقوى أنواع القنابل . على أن ذلك « الحائط » لم يكن جديراً حقا بهذا الاسم إلا فى المسافة التى فيما بين (كاليه) و(بولونى سورمير) ، حيث تراصت ١٣٢ قلعة حصينة ثقيلة . فى حين لم يكن فى منطقة (نورماندى) سوى ٤٧ منها . غير أن المدافع التى وضعت فيها كانت من الغنائم التى حصل عليها الجيش الألمانى خلال هجومه الخاطف على الدول المختلفة التى غزاها ، الأمر الذى لم يكن من شأنه تسهيل مهمة رجال المدفعية ، ولا عملية تزويدها بالقذائف التى بلغت ٢٨ عياراً مختلفاً .

وإزاء هذا التفاوت فى الدفاعات ، وفى نوع المدافعين . بالنظر إلى أن أفضل القوات قد تجمعت فى القطاع الذى توفرت له أفضل حماية - فإن روميل قد توصل إلى أن محاولة إنزال الحلفاء لقواتهم على الساحل الفرنسى سوف تتم إلى الغرب من نهر السين .

وقد وجد نصيراً غير متوقع يؤيده فى هذا الرأى ، هو هتلر نفسه الذى

لا يمكن أى أحد أن ينكر أنه نفسه كان يتخذ أحياناً من القرارات ما يجعل الجميع يؤمنون بعبقريته . فقد وقف أمام خريطة الساحل الفرنسى فى غرفة العمليات ، ثم وضع أصبعه على البقعة التى تبين مصب نهر (أورن) ، ثم قال بكل ثقة أمام جنرالاته الملتفين حوله : « هنا سيكون الهجوم » .

* * *

ولكن الفيلد مارشال كيتل ، وهو القائد الأعلى بالاسم للقيادة العامة للجيش الألمانى والرجل الذى عرف بطاعته المطلقة للفوهرر – تجرأ هذه المرة وأظهر شيئاً من التردد فى قبول هذا التقدير ، غير أن هتلر لم يعبأ كثيراً بكل ما ساقه من حجج اعتراضاً على ذلك ، وقضى على هذه الاعتراضات بإيماءة من يده .

غير أن الفوهرر كان فى حاجة إلى أكثر من هذه الإيماءة ؛ لكى يقنع فون رونشتت بفكرته ، فوافق « الأومباشى البوهيمى » على أن العدو ربما يعمد إلى القيام بهجوم تضليلى فى المنطقة التى بين نهر السين و (وكونتنتان) . ولكن هجومه الرئيسى لا يمكن منطقيًّا أن يحدث إلا فى منطقة رأس كاليه .

وإذ سارع روميل إلى تأييد وجهة نظر هتلر فإن الفيلد مارشال العجوز راح يوجه إليه نقداً ساخراً وقال : « إن المارشال الشاب ما زال يعتقد أنه فى الصحراء ؛ فهو يفكر بوصفه رجل تكتيك ، على حين أن الأمر هنا يتطلب الالتزام بالقواعد الإستراتيجية . فما أهمية الأرض التى يحتلها العدو بصورة مؤقتة ؟ إن المهم هو معرفة أين ينوى حقيقة أن يهاجم ، حتى لا يجتذبنا إلى شرك ينصبه لنا ؟ وعلى ذلك فإن قواتنا الاحتياطية يتعين أن تظل متحركة حتى اللحظة التى تتحدد نهائيًّا على وجه الدقة . وهذا ما يفترض معه أنها فى حاجة إلى مجال تتحرك فيه » .

وكرر روميل ما سبق أن قاله من أن السيادة الجوية أصبحت الآن فى أيدى الحلفاء ، وهو ما أقر رونشتت بأن قائد مجموعة الجيوش (ب) الشاب محق فيه . ومع ذلك - فإن الجواب على ملاحظته هذه كان جاهزاً لدى الفيلد مارشال المحنك ، وهو أن الحلفاء برغم سيادتهم الجوية سوف يلتزمون حتماً بتضييق مجال عمل سلاحهم الجوى وخاصة بالنسبة لطائراتهم المقاتلة ، بحيث تكون المنطقة التى تعمل فيها غير بعيدة عن المطارات التى تقلع منها ؛ ضماناً لتغطية جوية كافية .

والواقع أن هذه النظرية بالذات هى التى جعلت مارشال الجو البريطانى شلوتو ذوجلاس يعترض من أجلها على مشروعات الأميرال مونتباتن ، وما قرره الحلفاء على إثرها من عدم استطاعتهم توسيع مدى هجومهم الجوى . إلى أكثر من المنطقة المحيطة برأس (كاليه) .

* * *

واستطرد فون رونشتت فى شرح توقعاته الإستراتيجية ، فقال : إنه حتى إذا لم يقتصر الحلفاء على ما ذهب إليه من تضييق مجال عملياتهم الجوية فإن الهجمات المتتالية التى لا تتوقف ، التى يوجهونها إلى قواعد إطلاق الصواريخ الألمانية (ف - ١) ؛ وتقوم بها أسراب من الطائرات البريطانية القاذفة المقاتلة - إنما تدل على أنهم يدركون تماماً مدى الخطر الرهيب الذى يحلق فوقهم .

هذا بالإضافة إلى شعور الرهبة الذى ينتابهم من جراء الهجوم الألمانى بالقنابل الطائرة على المدن البريطانية الموجهة لا سلكيًّا الذى يحول دونهم وإمكان القيام بأى حشد لقواتهم فى الموانى التى جنوبى الجزيرة ، على الأقل فى المنطقة الموازية لشربورج .

ولما كانت منطقة مصب نهر السين هى التى وضعت فيها قواعد إطلاق الصواريخ الألمانية بكثافة – فإن الحلفاء يهمهم فى المقام الأول أن يتوصلوا إلى السيطرة عليها بأسرع ما يمكنهم ذلك .

غير أن كل هذه الحجج مجتمعة لم تكف إقناع روميل . وقد استغل ما تنبأ به هتلر عندما وضع إصبعه على نقطة ما فى الخريطة ، وانتزع منه قراراً يقضى بأن توضع تحت إمرته ثلاث فرق مدرعة كاملة ، هى الفرق الثانية والسادسة عشرة والحادية والعشرون .

وحصل فوق ذلك على تفويض بأن يجعلها ترابط بالقرب من ساحل (نورماندى) السفلى ، ولكنه تعهد بالحصول على موافقة مسبقة من هتلر قبل أن ينفذ ذلك ، وقبل أن يزج بها فى المعركة .

ولم يقف روميل عند هذا الحد : ففى يوم السبت ٣ من يونية ، قصد دون سابق إنذار إلى قيادة فون رونشتت العامة فى (سان جرمان آن ليه) ، لكى يبلغ رئيسه أنه قرر السفر صباح اليوم التالى إلى ألمانيا حيث يستقبله هتلر بناء على طلبه ، وسوف يعود إلى مقر قيادته يوم ٩ من يونية .

ولا يدرى أحد شيئاً عما دار من حديث بين روميل ورونشتت ، لكن المعتقد أن المارشال الأكبر سنًّا ، والذى يعتبر رئيساً للآخر ولا يكنّ له التقدير الذى يستحقه فعلاً ، وتحتم عليه طبقته الأرستقراطية أن ينظر إليه من عليائه مما جعله يستهين بنظرياته العسكرية وإن كانت صائبة – لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير طول وقت هذا اللقاء فى أن المارشال الشاب إنما يعد شيئاً ينوى تنفيذه من وراء ظهره .

والواقع أن روميل كان يأمل أن يعود من ألمانيا ، ومعه التفويض اللازم لكى يبعث إلى (نورماندى) باثنتين من الفرق المدرعة الثلاث التى وضعت

تحت قيادته . وبلواء كامل من الدفاع الجوى ، وكتيبة من صواريخ ف - ١ الرهيبة ، لكى يدعم ما بها من قوات ، فلقد أدى به تفكيره العميق إلى أن هبوط الحلفاء لا بد أن يحدث فى هذه المنطقة بالذات ، وليس فى أى مكان آخر .

ولكن فون رونشتت لم يكن يشاركه فى هذا الرأى . . .

الفصل العاشر

أثر المفاجأة فى الانتصار فى الحروب

لقد شكلت المفاجأة منذ عرفت الإنسانية تاريخ الحروب ، العنصر الأكبر فى الانتصار فى أية معركة .

ولكن كيف يمكن إحداثها ؟ وكيف يمكن أن يباغت بها العدو ؟ . . . لقد كان المتبع فى ذلك أن يعمد جانب إلى أن يدخل فى روع الجانب الآخر اعتقاداً يريد له أن يستقر فى أعماقه ، ويصوره له على أنه الحقيقة التى لا حقيقة غيرها . . . !

هكذا انهمكت هيئة أركان حرب فون رونشتت بدورها فى تطبيق ما يسمى اليوم بعملية (التضليل) ، وذلك بأن عمدت إلى تسريب بعض الرسوم التى تمثل « حائط الأطلنطى » سرًّا إلى سويسرا ، كما لو أن شبكات المقاومة هى التى حصلت عليها ، على غرار ما قام به (رينيه دوشيه) الذى رأيناه فى الحلقة الأولى يستولى من شركة تودت الألمانية فى باريس على نسخة من الخريطة الحقيقية لهذا الحائط .

لكن الألمان خلطوا فى الرسوم التى سربوها شيئاً من الحقيقة ، والكثير من التزييف ، تماماً كما يفعل القصاب (أى الجزار) عندما يبيع لحم الخيل على أنه لحم الجاموس !

وكان جواسيس (شيلينبرج) يحدوهم الأمل فى أن تقع هذه الخرائط والرسوم المزيفة فى أيدى خصومهم من الجواسيس الإنجليز ، فيلتهم الحلفاء بذلك الطعم الذى أعدته لهم مخابرات الألمان !

وكان على أركان حرب فون رونشتت كذلك أن تخدع المراقبين الذين لا يحصى لهم عدد ، والذين ينتمون إلى المقاومة الفرنسية التى تقتطع منها كل يوم رءوس كثيرة ، ولكنها سرعان ما تنمو رءوسٌ بدلٌ منها ، وذلك عن طريق مضاعفة الأوامر لتنقلات القوات ، واللجوء إلى جعلها تسلك طرقاً معقدة ، وتمر بالنقط نفسها مرتين أو أكثر ، وتنتظم فى قوافل متعددة الأشكال ، بحيث يتضخم عددها فى عيون هؤلاء المراقبين !

وكانت هيئة الأركان تمزج بين الفرق التى لها وجود بالفرق الوهمية بنوع من الأستاذية ، مما جعل الجنرال (بلومنتريت) يصرح بأن ضباط القيادة الغربية الذين يعملون تحت إمرته يجيئون بأنفسهم إليه للتعرف على القوات التى يتولون رئاستها ، ويدونون على خرائطهم بقلم أحمر حجم القوات الحقيقية ، وبقلم أزرق القوات التى لا وجود لها . . . !

* * *

ولم تكن عملية التضليل التى يقوم بها الألمان موجهة إلى الحلفاء فحسب ، وإنما كانوا يبعثون كذلك إلى سفير اليابان لدى المارشال الفرنسى (بيتان) عن طريق مراسلات « سرية للغاية » بخرائط عليها تأشيرات خاصة بأوامرالقتال ، بحيث يوحون إليه بالثقة ، والتأثير على الدول المحايدة وعلى الفرنسيين الذين هو على اتصال بهم .

وفيما يتعلق بشبكات التجسس التابعة للحلفاء - فإن الألمان بتقليلهم من قيمة الملاحظات التى يحصل عليها أعضاؤها كانوا يساعدون على أن تصل إلى لندن معلومات حقيقية كثيرة .

ولقد كان عدم دقة البيانات التى بعث بها أعضاء هذه الشبكة وكان من نتائجها مضايقة قوات الحلفاء يوم هجومها على الساحل الفرنسى يوم ٦ من يونية

١٩٤٤ – ما يعتبر قليلاً فى هذا المجال ، ولكن هذه النسبة من الخطأ ترجع إلى عمليات الاعتقال التى تعرض لها أعضاء الشبكة فى الأيام التى سبقت الهجوم مباشرة ، أو إلى تأخير غير متوقع فى توصيل بعض المعلومات .

وعندما طلب الكولونل (باسى) من رئيس الشبكة العاملة فى فرنسا لحساب الحلفاء ، وهو الذى يعرف باسم (ريمى) أن ينشئ فرعاً جديداً للبريد الحربى – تبين لهذا الأخير الحجم الكبير للمعلومات التى يتلقاها هذا الفرع من المجموعات العاملة فى فرنسا المحتلة ، وتصل يومياً إلى لندن . وقد اضطر أن يُخصِّص لهذا الفرع مبنى كبيراً من عدة طوابق فى (بالاس ستريت) ، حيث بدأ العمل عدد كبير من الضباط المتخصصين فى قراءة الرسائل السرية ، ومن خبراء المحفوظات وتبويب المعلومات ، والكتبة على الآلة والرسامين والمصورين ، وجميعهم يكونون الجهاز الوسيط ، والسرى للغاية ، بين قيادة الحلفاء فى العاصمة البريطانية ، وبين العملاء المنتشرين فى جميع أنحاء فرنسا .

وقد بلغت الحصيلة الشهرية لهذا الفرع ٢٠٠٠٠٠ رسالة ، و ٦٠٠٠٠ رسم أو تخطيط ، فضلاً عن ١٠٠٠٠ صورة تلتقط خلسة للمنشآت العسكرية الألمانية .

وبإضافة هذه المعلومات وهذه الصور إلى ماتأتى به طائرات الاكتشاف الجوى ، وهو عادة أفلام مصورة مصحوبة بتعليقات المراقبين الجويين لما يرونه بأنفسهم – فإن قيادة القوات المشتركة أصبحت قادرة على أن توزع على الوحدات التى ستقوم بالهجوم على (الحائط) مجموعة من الوثائق والخرائط والرسوم تبين لها حقيقة ما سوف تواجهه عندما يحين يوم الهجوم .

* * *

وليس هناك أى جدل فى حقيقة ثابتة ، هى أن عمليات « التضليل » سلاح

ذو حدين : بمعنى أن الجانب الذى تحاك له يستطيع أن يستفيد منها ، باستخدامها لحسابه .

ولقد أثبت عملاء المخابرات البريطانية براعتهم فى فن نشر المعلومات الزائفة بطرق تصل إلى آذان العدو . وكانت المخابرات الألمانية لا تفتأ تضع التقارير فوق التقارير عن أنها علمت أن محاولة هبوط قوات الحلفاء سوف تتم فى الدانمرك ، ثم راحت بعد ذلك تؤكد أنها ستحدث فى بلجيكا ، إن لم تقع فى النرويج ، أو فى خليج (جاسكونيا) . بل إنها توقعت لها أن تجرى فى برزخ (تاج) مع هجوم وهمى على جزر (بليار) وساحل (براقا) الإسبانى .

وفى الفترة التى كان فيها المارشال روميل يزور مقر قيادة فون رونشتت ، أى يوم السبت ٣ من يونية ١٩٤٤ - التقى هناك وضابطٌ ألمانى يدعى الكابتن (كرامر) أطلق سراحه مؤخراً على أثر تبادل لأسرى الحرب الإنجليز والألمان . وقد روى لروميل أنه خلال فترة احتجازه فى بريطانيا استطاع أن يلتقط بعض الأحاديث التى كان يتبادلها الضباط الإنجليز ، وسجلها فى ذاكرته .ومن ذلك أنه كان واثقاً تمام الثقة من أن محاولة الهبوط على الساحل الفرنسى التى سيقوم بها الحلفاء - سوف تكون على جانبى مصب نهر (السوم) ، وإن أية شائعة غير ذلك ما هى إلا ذرٌّ للرماد فى العيون .

ولم يهمل الكابتن المذكور فى إبلاغ ذلك إلى فون رونشتت الذى رأى فى ذلك ما يدعم اعتقاده ، ولكنه رفع حاجبيه دهشة لدى سماعه فكرة أن العدو سوف ينزل قواته كذلك غرب نهر السوم ، ولذلك فإنه لم ير فى ذلك سوى مناورة فجة للخداع والتضليل وضعت لصرف انتباهه عن النقطة الرئيسية التى سيقع فيها الهجوم ، والتى لا يمكن أن تقع إلا فيما بين (بولونى) و (كاليه) ؛ كما قال هو دائما ، وما لم يصدقه فيه أحد !

ولقد استمتعت لندن كثيراً بإيقاع الألمان فى الحيرة بين الافتراضات التى اختلفت اختلافاً كبيراً . غير أنها لم تلبث أن وجدت نفسها عاجزة عن منعهم من التوصل إلى نوع من اليقين بأن الهجوم سوف يحدث بالضرورة فى مكان ما على سواحل بحر المانش :

ذلك أن أغبى المراقبين لم يكن يفوتهم فى ربيع عام ١٩٤٤ - ملاحظة أن هناك حشوداً ضخمة من الرجال والعتاد قد تجمعت جنوبى بريطانيا ، وأنها تحتل الساحل بطوله من الغرب إلى الشرق . وكانت عمليات النقل البحرى ذات المسافات الشاسعة اللازمة لهذا الجيش الضخم - تتطلب وسائل هائلة لا قبل لأية دولة بامتلاكها ، وهى فى الوقت نفسه تشكل فريسة ممتازة للأسطول الألمانى الذى يقوده الأميرال دوينيتس !

ولا شك فى أن غواصات هذا الأسطول كانت معرضة منذ بعض الوقت لخسائر فادحة ، ولكن المحيط الأطلنطى يتيح لها الآن مجالاً للمناورة أكثر اتساعاً مما لا يتيح للحلفاء القضاء عليها وإبادتها .

وأخيراً - فإن برلين بدون حاجة بها إلى أى عميل - كانت على علم بذلك الحظر الذى أحدث ضجة على الناحية الأخرى من بحر المانش ، والذى فرضته حكومة صاحب الجلالة البريطانية على جميع الاتصالات الخارجية ، سواء عن طريق التليفون أو البرق أو البريد ، ثم امتد فشمل التمثيل الدبلوماسى ، مثلها مثل الأفراد العاديين .

فلقد تبادر إلى الأذهان على الفور أن هذا الإجراء لا يمكن أن يعنى إلا أن هناك عملية من الحجم الكبير توشك أن تقع . وقد أضفت هذه العملية المنتظرة كل ثقلها على الإعلان الذى وزعته يوم ١٠ من مايو القيادة العامة للجيش الألمانى ، وجاء فيه : أنه يتعين توقع حدوث محاولة لهبوط قوات حليفة فى

نورماندى يوم ١٨ مصحوبة بعملية خداعية على شاطئ بريتانى .

كان هذا النبأ صادراً عن المكتب الثانى التابع للبحرية الألمانية الذى قال : إن لديه من الأسباب ما يجعله يأخذ ذلك على أنه نبأ مؤكد ، وكان اعتدال الطقس الذى يسود فى هذا الوقت يؤكد ما ذهب إليه .

والواقع أن المكتب الثانى للبحرية الألمانية لم يكن على خطأ تماماً ، وفيما عدا عملية النزول الوهمية فى (بريتانى) - فإن نبوءته كانت ستتحقق خلال بضعة أيام لو لم يحدث أن النقص الذى لا حظه آيزنهاور فى عدد السفن قد دفعه إلى تأجيل عملية (أوفر لورد) شهراً كاملاً . ومع أن هذا التأجيل قد أثار ثائرة ونستون تشرتشل - فإنه أسفر عن فائدة مزدوجة للحلفاء :

فنى الجانب الألمانى كان الجميع يتوقعون أن يجابهوا الهجوم يوم الخميس الموافق ١٨ من مايو ١٩٤٤ ، غير أن اليوم انقضى دون أن يحدث شىء ، فيما عدا الغارات الجوية التى أصبحت الشغل اليومى الشاغل لمجموعة الجيوش الألمانية (ب) ، وبصفة خاصة للجيش الخامس عشر الذى يتولى قيادته الجنرال (فون سلموث) الذى بدا كأنه مقصود شخصيًّا بهذه الغارات .

ولما كان على هذا الجنرال أن يدافع عن المنطقة التى بين (بولون سورمير) وكاليه - فإن الأثر الذى أحدثته هذه الغارات كان تأكيد اعتقاد فون رونشتت الذى استقر فى نفسه أنه برغم تنبؤات ذلك « الأومباشى البوهيمى » - فإن العدو سوف يركز مجهوده الأكبر فى هذه المنطقة ، أما فيما عدا ذلك فهو لهوٌ يليق بذلك « المارشال الشاب » !

ثم إن تلك العصبية التى سادت لأسبوع صفوف المدافعين عن (الحائط) - أعقبها نوع من الاسترخاء العسكرى الذى يحدث عادة بعد التوتر العصبى : فقد راحوا يقولون : إنه إذا كان الحلفاء قد تخلوا عن محاولتهم برغم الظروف الجوية

الملائمة – فمعنى ذلك أنهم غير مستعدين للهجوم ، أو أنهم ترددوا أمام الشهرة التى اكتسبها (الحائط) نتيجة لدعاية الدكتور (جوبلز) ، الذى صوره للعالم على أنه قلعة يستحيل الاقتراب منها !

* * *

وإذا كان روميل هو الذى يعرف حقيقة حائط الأطلنطى أفضل من أى شخص آخر – فإنه كان بذلك يتفق مرة واحدة تمام الاتفاق مع فون رونشتت الذى كان يقول عن الحائط : « إنه خرافة ! فهو لا يعدو كونه (ديكوراً) ، لا ينتظر منه إلا أن يصمد أربعاً وعشرين ساعة فحسب ! » .

ولذلك فإنه تنفس الصعداء وهو يقرأ مذكرة بعثت بها إليه هيئة أركان حرب القوات البحرية الألمانية ، وفيها يبلغه الأميرال (رايدر) أن خبراءه يؤكدون أن حالة المد والجزر فى الأيام المقبلة لن تسمح للحلفاء بالقيام بأية محاولة لإنزال قواتهم فى القارة قبل شهر أغسطس التالى .

لقد كان هؤلاء الخبراء يقيمون تقديراتهم على المد المرتفع ؛ إذ اقتنعوا أن هذا المد ضرورى لاجتياز العوائق المقامة على الشواطئ ، ونتيجة لذلك فإن روميل قال لنفسه : إن الفترة التى أكدوا عدم حدوث أية محاولة للنزول فيها سوف تتيح له أن يضاعف من عدد هذه العوائق ، وأن يوسع من حقول الألغام ، وأن يدق فى المناطق الخلفية مئات الخوازيق التى من شأنها أن تحول دون هبوط أية طائرة .

وبينما تتم هذه الأعمال – تكون لديه الفرصة لكى يقفز بسرعة إلى ألمانيا ، فينتزع من هتلر موافقة على مده بالمزيد من العتاد الذى يحتاج إليه .

وهكذا أعقب مشاعر القلق التى كانت تضغط على أعصاب وقلوب الألمان جميعاً منذ يوم ١٠ من مايو ١٩٤٤ – شعور خادع بالتفاؤل ، وهم ينظرون إلى

هذا البحر – بحر المانش – الذى بسببه حرم الجيش الألمانى قبل ذلك بأربعة أعوام إحراز النصر الكامل فى الغرب ، على أنه أصبح الآن صديقاً لهم ؛ إذ يقوم لهم بدور الذرع الواقية .

ومن ناحية أخرى – فإن المهلة التى تتيحها لهم لعبة المد والجزر سوف تهيئ لهم فرصة زيادة دفاعات (الحائط) ، فضلاً عن الأسلحة السرية التى تحدث عنها الفوهرر للمرة الأولى فى ميدان الرياضة ببرلين التى ستكون خلال هذه الفترة جاهزة للاستخدام .

* * *

والواقع أن هتلر قد تحدث عن هذه الأسلحة السرية بعد الكارثة التى حاقت بالجيش السادس الذى كان يقوده فون باولوس فى مدينة (ستالنجراد) السوفيتية ، يوم ٣١ من يناير ١٩٤٣ فى محاولة منه للتقليل من فداحة تلك الكارثة .

وفى ذلك الوقت قال : « إن ألمانيا تمتلك الآن أسلحة سرية ذات قدرة لم يسبق أن عرفها أحد من قبل ، ولها آثار تدميرية رهيبة ، وسنستخدم الآن هذه الأسلحة » .

إنها الأسلحة الانتقامية التى أعدت للرد على الغارات الجوية التى عانت منها ألمانيا التى كان المارشال جورنج قد أقسم أنه ما من طائرة واحدة للعدو سوف تجرؤ على تدنيس سمائها ، وجاءت ردا على الغارات الألمانية التى وقعت فى شتاء ١٩٤٠ – ١٩٤١ على مدينتى لندن وكوفنترى ، وما زالت آثارها باقية حتى اليوم .

وبلغ صدى ما أعلنه هتلر بريطانيا ، وعلى ذلك قامت طائرات سلاح الطيران الملكى البريطانى يوم ١٨ من أغسطس التالى بالهجوم على قاعدة ألمانية

سرية فى (بينموند) على بحر البلطيق تصنع فيها الصواريخ ف ١ ، ف ٢ فدمرتها وسحقتها سحقاً ، بيد أن صناعة الصاروخين استمرت بسرعة محمومة فى مصنع آخر مقام فى باطن الأرض فى (دورا) على حين راحت شركة (تودت) تبنى قواعد إطلاقها على الشواطئ القريبة من رأس كاليه ومصب نهر السوم .

وفى يوم ٢٢ من ديسمبر ١٩٤٣ - اجتمع رجال أطقم السرب رقم ١٤٠ التابع لسلاح الطيران الملكى البريطانى فى قاعة المحاضرات فى مطار (تورمى) ، وراحوا يستمعون إلى مايقوله نائب مارشال الجو بازيل إيمبرى الذى وقف إلى جانبه رئيسهم المباشر الكابتن شارلز بيكارد وهو يشرح لهم معنى الغارة التى كانوا على أهبة القيام بها ، فقال : « أيها السادة ، لقد قرأتم منذ بضعة أشهر بياناً لما قامت به طائراتنا من قاذفات القنابل الثقيلة على هدف مقام على بحر البلطيق ، وقد أسقطت لنا فى هذه الغارة سبع وأربعون طائرة ، كان هدفها تدمير إحدى محطات التجارب ، حيث يقوم العلماء الألمان بإعداد قذائف من نوع جديد . ومن هذه القذائف ما يشبه الطائرة المحشوة بمادة ناسفة ، وقد دخلت الآن فى دور الصناعة فى مصانع بنيت تحت الأرض فى الرايخ ، وقد أبلغنا عملاؤنا فى فرنسا أنه تم بناء منشآت تجعلنا نتوقع قرب إطلاق هذه القذائف الطائرة على بريطانيا ، إنها فى منطقة رأس كاليه ومصب نهر السوم ، وقد حددنا مواقع مائة وسبع وستين من هذه المنصات عن طريق الاكتشاف الجوى . ونظراً لضيق الحيز الذى به الهدف لابد لكم من الهجوم على ارتفاع منخفض ، وطائرات (موسكيتو) وحدها هى التى فى استطاعتها تدميره . إن أول هجوم سنقوم به على هذا الهدف اليوم ، ومن الضرورى أن تكون أول طلعاتكم ناجحة » .

وكان نائب مارشال الجو مرتدياً بذلة الطيران ؛ مما يعنى أنه سيخوض

شخصيًّا المعركة قائداً لهؤلاء الرجال الذين شرح لهم المهمة التى هم على أهبة القيام بها .

* * *

وأخذت قاذفات القنابل البريطانية الثقيلة تدمر قواعد إطلاق الصواريخ الألمانية الواحدة فى إثر الأخرى . إلا أن الألمان استماتوا فى إعادة بناء قواعد غيرها مستنزفين فى ذلك الاحتياطى الهائل الذى كانت تقدمه « إدارة العمل الإجبارى » من الأيدى العاملة التى كانت تجمع من جميع أنحاء أوربا ، وكذلك من معسكرات الاعتقال التى تعج بأسرى الحرب الروس الذين يساقون إلى ألمانيا لصنع قذائف الموت التى كانوا يعرفون أن كل واحدة منها تؤخر لبعض الوقت يوم التحرير !

وفى شهر مايو ١٩٤٤ كان البدء فى إطلاق الصواريخ الألمانية غير باق عليه سوى أسابيع قليلة ، ولذلك فإن ماكان يسلم به الجميع هو أنه ما إن تبدأ فى الانطلاق حتى يصبح من المستحيل أى تجمع للسفن على الساحل الجنوبى لبريطانيا ، الأمر الذى يقضى مقدماً على أية محاولة للنزول على الشاطئ الفرنسى .

ولقد أخذ الجانب الألمانى يتساءل فى هذا الوقت عما يمكن أن تكون الوجهة التى تقصد إليها تلك المكعبات الضخمة التى يبدو أنها صنعت من الأسمنت المسلح ، والتى اكتشفت على إثر عمليات استطلاع قامت بها الطائرات الألمانية ، وشوهدت خلالها عائمة على الماء بالقرب من رأس (دونجنيس) ، فى مواجهة (بولونى) ؟

غير أن الخبراء توصلوا بعد الدراسة والبحث إلى أنها نوع من العائمات التى لا تصلح فى جميع الأحوال لأى استخدام حربى . والواقع أنها كانت صناديق

ضخمة نقلتها قاطرات من نهر التاميز حيث رآها جاسوس ألمانى يدعى (ڤانهوف) خلال تركيبها على أرصفة الميناء دون أن يعيرها اهتماماً . وكانت هذه الصناديق جزءاً من معدات ميناءين صناعيين قررت القوات المتحالفة أن تأخذها معها عند الغزو ، ولو أنها كانت مثاراً لتعليقات ساخرة فى لجنة رؤساء أركان الحرب البريطانيين .

* * *

ولكن ماذا لو اتضح فى نهاية الأمر أن كل هذا الجهاز الضخم الذى تجمع فى بريطانيا لم يكن سوى خدعة ، وأن كل إجراءات الحظر ومنع أى اتصال بالخارج – مجرد عمل مقصود به جعل هذه الخدعة تبدو كالحقيقة ؟ ثم ألا تكون هذه الخدعة تمويهاً لهجوم سوف يقع فعلاً فى قطاع بعيد تماماً عن قطاع بحر المانش ؟

كل هذه الأسئلة كانت تدور فى أذهان الألمان ، فلقد كان معروفاً فى برلين بكل تأكيد – أن الجنرال مونتجومرى قد وضعه آيزنهاور على رأس القوات البرية فى الحملة التى يعدها الحلفاء . وهى تعلم كذلك أن مونتجومرى التقى مؤخراً وحاكم جبل طارق ، ثم قصد بعد هذا اللقاء إلى الجزائر ، لكى يجتمع هناك والجنرال ميتلاند ولسون القائدُ الأعلى لقوات الحلفاء فى مسرح عمليات البحر المتوسط .

فما معنى ذلك ؟

ألا تعنى هذه التحركات التى تبدو غير متفقة مع المهام التى ألقيت على عاتقه فى هيئة قيادة حرب عرف أنها تعد للنزول بقواتها على الشاطئ الفرنسى المطل على بحر المانش – أن مونتجومرى سوف يتولى قيادة عملية أوسع نطاقاً على السواحل الجنوبية من شأنها تسهيل تقدم قوات الحلفاء فى إيطاليا بهدف إيقاع

مجموعة الجيوش الألمانية (جـ) التى يقودها الجنرال كيسلرنج فى كماشة ؟ .

إذا كان الأمر كذلك فإن كل القوات التى أضفى عليها سمة الهجوم فى بريطانيا – ليس لها إذن من هدف إلا جعل الجيش الألمانى مضطرًّا لإبقاء عدد كبير من قواته فى شمالى فرنسا ، على حين أنه من الأفضل استخدامها فى مكان آخر .

فأين هذا المكان ؟ . . .

الفصل الحادى عشر

قلوبنا محطمة ... فاعزف لنا لحناً جديداً !

لم يقف المارشال فون رونشتت طويلاً أمام ذلك الافتراض الذى يقول إن القوات المحتشدة فى جنوبى بريطانيا ليس لها من هدف إلا لاستبقاء جانب كبير من الجيش الألمانى فى شمالى فرنسا . . .

وقد كان ذلك رأيه الذى لا يحيد عنه عندما طالب بصعود مجموعة الجيوش (جـ) التى يقودها الجنرال بلاسكوفتش إلى أقصى نقطة فى شمالى فرنسا بدلاً من بقائها فى الجنوب :

ذلك أنهم سبق لهم فى برلين أن اكتووا بنارٍ بعملية خداع رهيبة ، هى التى عرفت باسم عملية (ألبيون) التى انساقوا فيها خلال شهر سبتمبر ١٩٤٣ وراء قصة زائفة من هذا النوع عندما التقطت صور الاستطلاع الجوى الألمانى مثل هذه الحشود فى إقليمى «كنت» و «سوسكن» جعلت فون رونشتت يتوقع هجوماً عاجلاً -- على ساحل رأس كاليه بطبيعة الحال -- مع أن سلاح الطيران الملكى البريطانى كان يقوم فوق شمالى فرنسا بنشاط فاق كل نشاط له قبل ذلك .

غير أن الليلة المعهودة التى كان مؤكداً أن يقع فيها الهجوم ، وهى ليلة ٩ من سبتمبر – قد انقضت بغير أن تطلق دفاعات الساحل الألمانية طلقة واحدة ، ثم لاح الفجر والبحر هادئ ساكن بصورة تدعو إلى السخرية .

ولكن على بعد ألف وخمسمائة كيلو متر جنوب مكان الانتظار – إذا بالقوات البريطانية والأمريكية تهبط فى هذه الليلة بالذات فى (سالرنو) بإيطاليا عقب استسلام الجيش الإيطالى مباشرة ، وذلك لكى تقطع الطريق على

القوات الألمانية المنسحبة بعد أن جلت عن صقلية ، تلك الجزيرة التى نزلت فيها جيوش آيزنهاور بغير جهد كبير على حين كانت برلين تنتظره فى (بيلو بونيز) بعد أن يقوم بهجوم تضليلى على جزيرتى سردينيا وكورسيكا .

* * *

ولقد كان جليًّا تماماً أن عملية « الشعلة » – وهو الاسم الكودى لنزول قوات الحلفاء يوم ٨ من نوفمبر ١٩٤٢ فى شمالى أفريقيا لا يمكن إلا أن يكون مرحلة أولى تسبق الهجوم على جنوبى أوربا . وكانت المشكلة بالنسبة للمخابرات الألمانية هى معرفة النقطة التى ستقوم القوات التى حشدت على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط بالهجوم عليها .

وقد توصلت هيئة أركان حرب هتلر إلى أن هذه النقطة ستكون (صقلية) ، ولم تكن مخطئة فى ذلك ، غير أن واحداً من العاملين فى إدارة المخابرات البريطانية اقترح الفكرة التالية : « ماذا لو أننا رتبنا الأمور ، بحيث نوصل إلى أيدى الألمان وثائق سرية مزورة تجعلهم يعتقدون أن الغزو سيكون فى مكان آخر ؟ » .

وقيل له : إن ذلك سيكون عملاً هاما ، ولكن كيف يمكن تنفيذ هذه الفكرة ، وخاصة جعلَهم يصدقون أن الوثائق التى ستوصلها إليهم – وثائق حقيقية . . ؟

غير أن صاحب الفكرة كان لديه الجواب جاهزاً ، فقال : « إن العدو يعرف أن مواصلاتنا الجوية مع الجزائر عن طريق جبل طارق – مواصلات هامة للغاية ، أفلا ترون أن فى الإمكان جعله يعتقد أن إحدى طائراتنا قد تعرضت لعطب وهى فى الجو فوق البحر ، غير بعيد عن الساحل الإسبانى ؟ »

وقيل له : « وما الذى يترتب على ذلك ؟ »

قال : « يترتب عليه أن تظهر جثة طافية على سطح الماء ، هى جثة (حامل حقيبة) ربطت فى يده الحقيبة التى تحتوى على الوثائق المذكورة ! » .

* * *

وبدت الفكرة مقبولة ، فأخذت طريقها للتنفيذ .

وإذ كانت العملية من النوع الذى ينال إعجاب اللورد مونتباتن الذى كان فى ذلك الوقت رئيساً للعمليات المشتركة فإنها رفعت إليه لأخذ رأيه ، فقال : إن تحقيقها لن يتم إلا إذا هى بدت كاملة من جميع الوجوه ، ولن يتأتى ذلك إلا بعمل جماعى رائع .

وكانت النقطة الأولى أن أى حامل حقيبة يقوم بنقل وثائق من النوع « السرى للغاية » ، لا ينفصل لأى سبب كان عن الحقيبة التى تحتوى عليها ؛ لأنه يربطها بسلسلة فى حزام معطفه الواقى من الماء الذى لا يفارقه أبداً ! وتستتبع ذلك ضرورة وضع الجثة داخل هذا المعطف .

وقال أحد أعضاء الفريق الذى عهد إليه بتنفيذ الفكرة : « إن ذلك سوف يثير مشكلة : فالذى يرتدى المعطف الواقى من الماء يجب أن يبدوكأنه طفا على السطح ، ومعه الحقيبة المربوطة فيه بعد أن غرق ! إلا أن أى غريق تكون رئتاه ممتلئتين بالماء ، على حين أن الجثة التى تلقى فى البحر لا يدخل رئتيها أى ماء ، نظراً إلى أنها لا تتنفس ، فما الذى يحدث إذا عمد الألمان إلى تشريح الجثة التى سوف يعثرون عليها؟ إنهم سيكتشفون حتماً الخدعة ، وهو ما يقضى على العملية ؛ بل إن الأدهى أنها سوف تنقلب علينا ؛ لأن العدو عندما يدرك أننا حاولنا جعله يعتقد أن الغزو سيكون فى مكان آخر غير (صقلية) – فإنه سوف يستخلص من ذلك أن الهجوم سيقع فيها بالفعل ، ويرتب أموره من ثَمَّ على إقناعنا بأنه وقع فى الشرك . »

والواقع أن الحجة كان لها وزنها ، فتقرر اللجوء إلى أحد الأطباء العاملين بالإدارة لأخذ رأيه ، فقال : « إن من يموت بمرض الالتهاب الرئوى تمتلئ رئتاه بسائل مصلى يمكن أن يؤدى المهمة . وسوف تعثرون فى أحد المستشفيات على (الموضوع) الذى تحتاجون إليه » .

ولقد عثروا على الموضوع بالفعل فى شخص رجل إنجليزى فى أواسط العمر توفى بهذا المرض . وعندما قيل لأهله : إن الحصول على جثته سوف يؤدى للحكومة البريطانية خدمة جليلة — وافقوا على تسليمها لهم ، بشرط واحد هو أن تظل شخصية المتوفى مجهولة .

وبكل تكتم تم نقل الجثة إلى ثلاجة شديدة البرودة لإمكان حفظها سليمة ؛ حتى يحين الوقت الذى تستخدم فيه .

* * *

وإذا تم العثور على حامل الحقيبة بقى أن يعثر له على شخصية . وقد اختير له لقب دارج هو (مارتن) الذى ينتشر كثيراً فى بريطانيا ، كما فى فرنسا تيمناً بأحد القديسين . ثم قرنوا اللقب باسمه الشخصى ، وهو (وليام) ، ثم أعطوه رتبة الكابتن فى البحرية الملكية ، وجعلوه يعار إلى قيادة « العمليات المشتركة » .

وأمر اللورد مونتباتن ، فاستخرجوا لوليام مارتن جواز مرور خاصًّا من قيادته العامة ينتهى مفعوله يوم ٣١ من مارس ١٩٤٣ ، ووضع هذا الجواز مع بطاقته من البحرية الملكية ، التى تقول : إنه فى السادسة والثلاثين ، ومن مواليد كارديف .

ولما كانت كل بطاقة شخصية لا بد لها من صورة فوتوغرافية ، وكان من غير المقبول طلب هذه الصورة من أسرة المتوفى لعدم استثارة أحزانها فقد أخذت له عدة صور بعد أن فتحوا عينيه ، ولكن نظرتها كانت جامدة . وشاء الحظ أن

يعثروا على ضابط يشبه وليام مارتن شبهاً تاما فأخرجهم من هذا المأزق .

وكانت جيوب حامل الحقيبة بلا شك ستكون موضع فحص دقيق ، فرئى إعطاؤها مزيداً من العناية ؛ حتى تؤكد المهمة المزعومة التى يقوم بها . لقد كانت صورة بديلة تظهر وجهاً جميلاً ، عليه مسحة من ذلك الحزن الذى تعجب به النساء ، فقيل : إن اصطناع حبيبة له سوف يتمم جوانب شخصيته . وقد قصدوا فى ذلك إلى إحدى السكرتيرات الجميلات ، فكتبت بخطها رسالتين رقيقتين تذوبان غراماً ، ووقعت عليهما باسم (بام) ، وهو اسم الدلع الذى يطلق عادة على أية فتاة تدعى (باميلا) .

وقد دُست هاتان الرسالتان فى حافظة قديمة على أنها حافظة وليام مارتن .

وإذ أبلغت (بام) الحادثَ الذى أودى بحياة حبيبها فإنها بدت وكأن قلبها قد تحطم ، وهو إحساس عثروا فيه على الاسم الكودى للعملية . وقد احتفظت هى – عزاء لها – بالخاتم الذى كان قد أهداه إليها ، والذى وضعوا فاتورة شرائه فى أحد جيوب بذلته العسكرية ، ومعها إشعار من البنك الذى يعامله ينبئه بكياسة أن حسابه أصبح مكشوفاً .

وبطبيعة الحال كان الإشعار مزيفاً مثله مثل الفاتورة ! . . .

* * *

لقد جرت العادة على أن كل عميل سرى يذهب فى مهمة إلى بلد يحتلها العدو يمر بفحص دقيق الغرض منه التيقن من أنه لا يحمل أى أوراق ، ولا أى شىء من شأنه أن يستدل منه – إذا هو وقع فى أيدى ذلك العدو – على أنه قادم من بريطانيا .

وكانوا يهتمون فى هذا الفحص بصفة خاصة بتذاكر الأتوبيس التى على العكس من تذاكر مترو لندن يتعين إعادتها عند الخروج – يميل البعض إلى

الاحتفاظ بها ، وكذلك بعلب الثقاب ، وعلب السجائر ، والإشارات التى تحمل أسماء صناع الثياب التى تشترى من لندن .

غير أنه لما كان مقرراً أن وليام مارتن ذاهب إلى جبل طارق فإنهم اتبعوا معه عكس هذه الإجراءات تماماً ، مما يستدل منه على أنه قادم من لندن بغير أن ينسوا أن يضعوا معه حلقة المفاتيح التى من بينها واحد يفتح الحقيبة .

وتنهد أحد الضباط وهو يتطلع إلى الصورة التى تمثل (باميلا) المزعومة لإضافتها إلى خطابيها ، وقال : « لو أننى كنت محل (مارتن) لصحبت بام بكل تأكيد إلى المسرح فى الليلة السابقة لسفرى » .

وبدت هذه الملاحظة بارعة ، فتقرر استكمال محتويات جيوب حامل الحقيبة المزيف بتذكرتين فى مسرح يعرض مسرحية مؤسيقية عنوانها (اعزف لنا لحناً جديداً) كانت فى تلك الأيام أشهر ما يعرض فى لندن ، ووضعت عليهما أرقام المقاعد وتاريخ الدخول ، مع قطع طرفيهما كما يحدث عادة عند أبواب المسرح ! .

* * *

وإذ اتخذ وليام مارتن الوهمى كياناً ملموساً تعين الالتفات إلى الناحية الجوهرية : أى الحصول على موافقة السلطات العليا على العملية ، ومدها بالوثائق التى من شأنها أن تحقق الهدف المنشود منها . ونظراً لما فيها من احتمالات خطيرة فإن التصريح بها كان لا بد أن يصدر من أعلى المستويات متمثلاً فى ونستون تشرتشل شخصياً .

والواقع أن هذه المغامرة المثيرة استحوذت على اهتمام رئيس الوزراء البريطانى ، ونشطت لديه قدراته على التخيل ، فلم يطلب إلا تحفظاً واحداً ، هو ضرورة الحصول على موافقة الجنرال آيزنهاور الذى كان حينئذ قائداً عاما

لجيوش الحلفاء فى شمالىّ أفريقيا ، وأول المهتمين بنجاح الهبوط فى صقلية . ولما وازن (آيك) بين ما لهذه العملية التى عرفت منذ ذلك الحين باسم « القلب المحطم » وما عليها – أعطى موافقته بغيرٌ تردد .

وبعد الحصول على الضوء الأخضر انتقل العمل إلى إعداد الأوراق التى سوف يحملها المدعو وليام مارتن ، وينقلها فى حقيبته . وقد قدمه اللورد لويس منتباتن على أنه خبير فى عمليات إنزال القوات وملحق بقيادة العمليات المشتركة ، وعلى ذلك أملى رسالة يوصى فيها الأميرال (أندرو براونى كاننجهام) القائد العام للقوات البحرية فى شمالى أفريقيا ، وأضاف بخط يده فى ذيلها العبارة التالية : « عندما تعيده إلىّ أفلا يمكنك أن ترسل لى معه بعض علب السردين ؟ إننا لا نحصل عليها هنا إلا ببطاقات التموين » .

وكان يهدف من وراء هذه العبارة جعل الخواطر تنتقل إلى الألمان ، فيلمحون فى كلمة (السردين) ما يجعل أذهانهم تتجه إلى جزيرة سردينيا .

وصاغ مونتباتن رسالة ثانية إلى الجنرال آيزنهاور أرفق بها نشرة دعائية موجهة إلى الجنود ، وطلب منه أن يعد لها مقدمة لإتقان الطعم الذى أشار إليه فى رسالته إلى كاننجهام .

أما الجنرال آرشيبالدنى نائب رئيس أركان حرب القوات الإمبراطورية فقد حرر لصديقه الجنرال جورج ألكسندر قائد مجموعة الجيوش الثامنة عشرة العاملة فى شمالى أفريقيا . رسالة شخصية يشكو له فيها من أن لجنة رؤساء أركان الحرب قد عارضت طلباً خاصًّا له . وقد تعمد أن يجعل مضمونها غامضاً بعض الشىء ، كما لو أنه يخشى أن تقع فى أيد غريبة إذ قال فى عبارات مستترة : إن هذا الرفض جاء نتيجة لأن صقلية مجرد هدف للتضليل ، الغرض منها تحويل الأنظار عن النقطتين اللتين سيتّم فيهما الهجوم الذى يجرى إعداده ، وإحداهما

(بيلوبونيز) والأخرى جزيرة ما فى الحوض الغربى للبحر المتوسط .

ولم يذكر اسم الجزيرة ، حتى ينشط خيال كل من يسترق قراءة الرسالة ، فيدور حول علب السردين التى طلبها مونتباتن .

* * *

لم يبق بعد ذلك إلا تحديد شخصية العدو الذى تجرى المحاولة لجعله يبتلع هذه القصة .

وقد تبين من محفوظات إدارة مكافحة الجاسوسية التابعة للمخابرات البريطانية إن هناك رجلاً ألمانيًا يقيم فى (هويلفها) ، وهى مدينة بالقرب من الحدود الإسبانية البرتغالية عند مصب نهر ريو تينتو ، وعلى مسافة قصيرة من ميناء (بالوس) الصغير الذى أبحر منه كريستوفر كولومبس عندما كان يعتقد أنه سيصل إلى الهند ، وأن هذا الرجل الألمانى له نشاط فى الجاسوسية .

ودلت دراسة تيارات خليج قادش على أنها سوف تدفع إلى الشاطئ جثة المدعو وليام مارتن التى ستحملها إحدى الغواصات لتلقى بها على مقربة من الخليج .

ومن أجل هذه العملية الدقيقة وقع الاختيار على الغواصة (سيراف) التى يقودها الكابتن (جيويل) ، وسبق لها أن قامت بمهام خطيرة فى البحر المتوسط بنجاح . وتقرر أن تقوم هذه الغواصة بالإبحار إلى مالطة فى منتصف شهر أبريل ١٩٤٣ ، وهو موعد يوحى إلى العدو بأن لديه الوقت لاتخاذ الترتيبات التى تنتظر منه على اعتبار أن هبوط قوات الحلفاء فى جزيرة صقلية سيحدث فى شهر يوليو . وترتيباً على ذلك فإن تذكرتى المسرح الذى سيعرض « قلوبنا محطمة . . . فاعزف لنا لحناً جديداً » جعل تاريخها يوم ٢٢ من أبريل .

وانتقلت الجماعة بعد هذا إلى عملية وضع « الميت » داخل الثياب التى

سيرتديها ، فكان أصعب ما فيها إدخال قدميه فى الحذاء ، فا ستعانوا على ذلك بجهاز إشعاع كهربى أضفى على هاتين القدمين المتجمدتين المرونة الكافية ، وبعد أن مُلئت جيوب الثوب بالحاجات التى سبق إعدادها أدخل فى معطف واق من الماء ، ثم ربطت فى حزامه الحقيبة التى تحتوى على الوثائق المزيفة !

وعند ذلك أرقدوا الجثة فى تابوت معدنى فرشت أرضيته بالثلج ، ووضع عليه غطاؤه بعد ملء الفراغات بثلج مجروش .

ونقل التابوت إلى ظهر الغواصة « سيراف » ، التى أبحرت يوم ١٩ من أبريل مساء ، ومهمتها المحددة إلقاء الجسد العائم فى اليوم الثلاثين قبل الفجر بقليل فى نقطة على بعد حوالى ميل من الشاطئ الإسبانى بعد أن ربطوا حوله صديرى النجاة الذى ينتفخ تلقائيّاً ، واستكملوا المشهد بزورق من المطاط من النوع المستخدم فى سلاح الطيران الملكى البريطانى . وقد أوصى (جيويل) رجاله بألا يزودوا هذا القارب إلا بمجذاف واحد . . .

* * *

فى الساعة المحددة من يوم الجمعة ٣٠ من أبريل ١٩٤٣ طفت الغواصة « سيراف » على سطح الماء ، وقد بذل البحارة بعض الجهد لإخراج جثة وليام مارتن المتجمدة من التابوت المعدنى ، ونقلت إلى ظهر الغواصة ، ثم وضعت على لوح من الخشب ليسهل غمرها بالماء ، وأمسك الكابتن (جيويل) قائد السفينة بكتاب الصلوات ، وأخذ يقرأ منه بصوت خفيض صلاة الموتى ، ثم أنزل مبعوث المخابرات البريطانية الخاص إلى الماء الذى كان يضرب فى رفق مقدمة الغواصة .

وقد اكتشفت الجثة بعد بضع ساعات عائمة قرب الشاطئ وعلى الفور أبلغ الصياد الذى رآها الحرسَ المدنى . وجاء بوليس (هويلفا) ، فنقل الجثة إلى

المشرحة حيث شرّحها الطبيب الشرعى ، وقرر أن الوفاة كانت نتيجة للاختناق غرقاً !

وقبل ذلك كان « الميت » قد جرد من حقيبته ومن محتويات جيوبه ، بما فى ذلك حلقة المفاتيح . وفى يوم الأحد ٢ من مايو دفنت الجثة بحضور نائب قنصل بريطانيا العظمى فى احتفال عسكرى صغير ، وأنزل وليام مارتن فى قبر بسيط بعيد عن أرض الوطن .

وفى اليوم التالى تسلم نائب القنصل البريطانى نفسه ظرفاً من سفارة بريطانيا فى مدريد ، كتب عليه « سرى للغاية » ، أخرج منه خطاباً سريًّا جاء فيه : إن « الميجور وليام مارتن كان يحمل معه وثائق على جانب كبير من الأهمية ، موضوعة داخل حقيبة برجاء طلبها على عجل من السلطات الإسبانية » .

ونجح مسعى الدبلوماسى البريطانى ، ولكن بعد تسعة أيام ، إذ سلمت مدريد حقيبة وليام مارتن وأوراقه إلى الملحق العسكرى البريطانى الذى قال له رئيس أركان حرب البحرية الإسبانية وهو يسلمها له : «كن على ثقة من أن كل هذه الأشياء قد وضعت فور عثورنا عليها فى مكان أمين ! » .

وابتسم الملحق العسكرى – الذى لم تطلعه لندن على شىء من سر هذه العملية – ابتسامة مهذبة ، بدا فيها اقتناعه بأن أحداً لم يعبث على الإطلاق بتلك الأوراق .

غير أن الجاسوس الألمانى الذى يعمل فى هذه المدينة الإسبانية الصغيرة (هويلفّا) كان يجيد عمله تماماً ، وقد قام به على خير وجه .

* * *

ولم تلبس برلين أن تصرفت على وجه السرعة : فقد أصدرت الأوامر إلى فرقة مدرعة مرابطة فى جنوبى فرنسا للانتقال فوراً إلى (بيلو بينيز) ، حيث

عكفت القوات الألمانية على إقامة دفاعات قوية على حين عمدت القيادة العامة للجيش الألمانى إلى حشد عدة جيوش فى جزيرتى سردينيا وكورسيكا ، وعززت من ناحية أخرى الاستحكامات العسكرية على الساحل الشمالى من جزيرة صقلية احتمالاً لقيام الإنجليز والأمريكيين الحمق بتوجيه هجوم تضليلى فى تلك المنطقة .

وقبل أن يشن الحلفاء هجومهم على الساحل الجنوبى لصقلية بيوم أو بعض يوم صدر أمر لأسطول الغواصات الألمانى الذى كان مرابطاً فى هذه المنطقة باتخاذ طريقه إلى اليونان .

ولقد اكتشف بعد انهيار ألمانيا الهتلرية فى محفوظات القوات البحرية الألمانية ملف خاص كان قد أرسل إلى الأميرال دوينتس ، يحتوى على الوثائق التى عثر عليها فى حقيبة (الميجور وليام مارتن) ، ومعها مذكرة من العميل الألمانى العامل فى « هويلفا » ، يقرر فيها صحة هذه الوثائق !

وقد عثر الحلفاء على المذكرات الشخصية للفيلد مارشال روميل الذى علق على غزو القوات المتحالفة لجزيرة صقلية ، فقال بأسف : إن هذا الغزو قد وقع حيث لم يكن منتظراً ، إذ كانت الوسائل الدفاعية للجيش الألمانى مبعثرة ، « نتيجة للعثور على جثة حامل حقيبة بريطانى ، لفظها البحر على سواحل إسبانيا » .

وفى مقبرة مدينة (هويلفا) الصغيرة يقوم قبر لا يزوره أحد أبداً وقد كتب على شاهده اسم الميجور وليام مارتن ، وتحته تاريخان :١٩٠٧ – ١٩٤٣ .

أما باقة الزهور التى وضعتها على هذا القبر (باميلا) ، منذ خمسة وثلاثين عاماً فقد تلاشت واندثرت منذ زمن بعيد . واليوم ، لم يعد هناك سوى عدد قليل من الناس يعرفون حقيقة الرجل الذى يرقد فى هذا التراب الإسبانى ! . .

الفصل الثانى عشر

صورة طبق الأصل للجنرال مونتجومرى

أقسم أدولف هتلر الذى أوقعه الحلفاء فى شراكهم مرتين : الأولى فى صقلية والأخرى فى سالرنو - على ألاينخدع أبداً للمرة الثالثة .

ولكن . . ترى ما الذى يجعل هذا الجنرال « مونتجومرى » يذهب إلى جبل طارق وبعدها الجزائر على حين أنه القائد العام للقوات البرية فى حملة الحلفاء التى حشدت جنوبى بريطانيا ، وفى مواجهة « الحائط » ؟

الواقع أن الحلفاء كانوا يعدون فعلاً عملية خداع جديدة ، على غرار عملية « القلب المحطم » ولكنها أوسع نطاقاً وأكثر شمولاً .

ونحن لا نخطئ كثيراً إذا قلنا : إن العملية الجديدة جاء السيناريو الخاص بها من بنات أفكار رجل غير عسكرى ، هو على وجه التحديد الممثل السينمائى الإنجليزى (ديفيد نيفن) الذى كان من الناحية الشكلية ضمن من عبئوا للعمل فى الأفلام الحربية . ولكنه فى الحقيقة خدم فى القسم الخامس التابع للمخابرات العسكرية ، وهو القسم المختص بمكافحة الجاسوسية .

وقد نبتت الفكرة لدى ديفيد نيفن ذات يوم على حين كان يقرأ صحيفة « نيو كرونيكل » فرأى فيها صورة لضابط إنجليزى ، وتحتها العبارة التالية : « إنك مخطئ فهذا هو الملازم كليفتون جيمس » .

وتفرس ديفيد فى الصورة فإذا وجه هذا المدعو كليفتون جيمس الذى وضع على رأسه (البيريه) الأسود الذى يرتديه الجنود فى أطقم الدبابات ، والذى

اعتاد الجنرال مونتجومرى أن يظهر به ، وقد بدا يشبه تماماً وجه قائد معركة العلمين الشهيرة الظافرة .

واتصل ديفيد نيفن على الفور باستعلامات المخابرات مستفسراً عن هذا الضابط . فأبلغوه أنه زميل له فى مهنة التمثيل . وهو يخدم حاليًّا فى القسم الإدارى التابع لوزارة خزانة الشئون العسكرية .

* * *

واستدعى ديفيد نيفن هذا الضابط الصغير ، وراح يتفحصه بعين الخبير فى مهنة التمثيل ، ثم سأله فجأة : « هل تعرف لماذا استدعيتك إلى هنا ؟ » فقال الزائر : إنه يعتقد أن الجيش قد قرر الانتفاع بقدرته فى التمثيل ، وهو يتوقع أن يختاروه للظهور فى فيلم دعائى .

ولكن نيفن قال : «ليس الأمر كذلك . ولكنك ستكون « دوبليرا » أو بديلاً للجنرال مونتجومرى فى أحوال سوف يبنيها لك الكولونل ليستر الذى سأقدمك حالاً إليه » .

وقال الجنرال ليستر بعد أن راقبه طويلاً : « جيمس . إ. هل يساورك أى شك فى أن الغزو سوف يقع بين يوم وآخر ؟ »

فأجاب الرجل : «كلا ياسيدى »

فمضى الكولونل يقول : « إننا واثقون من أن الألمان بدورهم يعرفون ذلك ولكنهم يجهلون موعد الغزو ومكانه ، إن لنا مصلحة بطبيعة الحال فى تحويل انتباههم نحو نقطة بعيدة بقدر الإمكان عن النقطة الحقيقية . وما سأعرضه عليك الآن يعتبر سرياً للغاية ، فيجب أن تتعهد أمامى بألا تتحدث عن ذلك مع أى شخص كان » .

ووعده جيمس بألا يفعل ، وعند ذلك استطرد الكولونل ليستر قائلاً :

« إننا نريد أن ندخل فى أذهان الألمان أن الجنرال مونتجومرى قد عين سراً فى منصب آخر غير منصبه الحالى ، وأنه سوف يتولى قيادة عملية إنزال قوات فى مكان آخر غير بحر المانش ، ولذلك فإننا فى حاجة إليك ، وابتداء من هذه اللحظة فأنت تحت تصرفنا تماماً »

وتوقف الكولونل برهة قصيرة ليرى وقع كلامه على الممثل الصغير ، ويبدو أنه ارتاح لما رأى ، فراح يستكمل شرح خطته قائلاً : « ولكى تتعرف على أعماق هذه الشخصية وتحيط علماً بالأساليب التى يتصرف بها الرجل الذى سوف تقوم بدوره — فإننا سنعرض عليك جميع الشرائط السينمائية التى أمكننا جمعها عنه . كما سنعطيك جميع التحقيقات التى لدينا لتقرأها على مهل . وعليك أن تدرس كل ذلك بكل دقة ، كما لو أنك ستقوم بتمثيل شخصيته فى أحد الأفلام . وقد تقرر تخصيص اثنين من المعاونين لك . وسنفعل اللازم لكى يبدو أن الجهة التى تعمل بها قد أوفدتك فى مهمة خاصة »

فقال كليفتون جيمس : «سوف أفعل كل ما بوسعى يا سيدى» .

وهنا قال الكولونل : « هذا حسن جدًّا . ولقد نسيت أن أبلغك أنك سوف تحصل طوال قيامك بهذه المهمة — على مرتب جنرال » .

* * *

وانصرف كليفتون جيمس بكل طاقته إلى العمل . حتى إذا كانت الأيام الأخيرة من شهر أبريل ١٩٤٤ جعله مدربوه يرتدى ثوب ضابط صف . وزودوه بأوراق مزيفة . وقالوا له : « إنك منذ الآن تعمل فى القسم الخامس من إدارة المخابرات العسكرية ، ومهمتك حماية شخص الجنرال مونتجومرى الأمر الذى يتيح لك البقاء إلى جواره باستمرار . ولسوف يذهب فى مهمة

تفتيشية ، فحاول ألا يلحظك أحد ، وانتهز هذه الفرصة لترى جيداً كيف يتصرف ؟ »

وفى اليوم التالى . الأربعاء ٢٦ من أبريل ١٩٤٤ كان سيجرى تدريب إنزال قوات هو الذى أشرنا إليه فى حلقات ماضية ، ومسرحه شاطئ سلابتون ساندز ، وقد اختير جنوبى (ديڤون) لوجوه الشبه بينه وبين الشاطئ الذى أطلق عليه اسم (أوتاه) فى خطة أوڤر لورد ، وهو على الساحل الفرنسى .

وفى الفجر اتخذ كليفتون جيمس مكانه فى سيارة جيب ضمن طابور من السيارات اتجهت إلى حيث يقيم مونتجومرى فى بورتثموث ، فاستقل (مونتى) سيارة رولز رويس بعد أن حياً الذين سيرافقونه ، على الفور اتخذت الجيب مكانها خلفه مباشرة .

ومعروف أن هذا التدريب أسفر عن فشل ذريع ؛ إذ جرى بأسلوب سيئ للغاية . غير أنه أتاح لجيمس أن يرى تدرج الانفعال لدى مونتجومرى . ولاحظ أنه لم يشعل سيجارة واحدة طول اليوم . وقد أبلغه مدربوه أن القائد الكبير لايدخن إطلاقاً ، ولايذوق الخمور من أى نوع .

وفى مناسبات أخرى عديدة استطاع كليفتون جيمس أن يلاحظ سلوك الرجل عن قرب ، فدرب نفسه على أن يحاكيه فى كل حركاته ولفتاته . وعندما رأى مدربوه أنه أصبح جاهزاً رتبوا له زيارة لمونتجومرى فى مكتبه وما إن شاهده القائد العام للقوات البرية فى حملة الحلفاء حتى علت وجهه ابتسامة خفيفة . أوحت لشبيهه على الفور بالثقة .

وسأله (مونتى) : « هل تقرأ كل صباح بعض آيات الكتاب المقدس ؟ » ولم يكن كليفتون جيمس قد فكر فى ذلك ، فوعد بأن يستوفى هذا النقص !

ولما كان (مونتى) آيرلنديًّا ، وابن أحد رعاة الكنيسة الذى أصبح أسقفاً فى

أستراليا البعيدة حيث قضى طفولته -- فإنه أبدى سروره ، إذ علم أن بديله قد نشأ بدوره فى تلك القارة .

وراقبه كليفتون جيمس وهو يتكلم ، فلاحظ أن عباراته قصيرة موجزة ، وأنه يتحدث بصوت أنفى بعض الشىء . وقال مونتى لزائره « دعك من أى قلق ، وكن دائماً هادئاً ، فسوف تسير الأمور على مايرام »

ثم مد له يده مودعاً .

* * *

وبعد بضعة أيام من ذلك ، ارتدى المجند الجديد فى القسم الخامس من المخابرات العسكرية البريطانية بذلة ميدان ، كان قماشها وتفصيلها من النوع الذى يرتديه نفسه جميع رجال الجيش ، إلاأن أكتافها حملت شعاراً يجعل صاحبه حاملاً لأعلى رتب الجنرالات .

ووضع البيريه على رأسه ، وحرص على أن يكون مائلاً على أذنه اليمنى . إنه البيريه الأسود الذى يرتديه رجال المدرعات ، لكنه مشبوك فيه علامتان يتحلى بهما مونتجومرى دائماً : العلامة الأولى لدبابة يعلوها التاج الملكى الإمبراطورى ، والأخرى قطعة مدفعية فوقها إكليل من الغار يجمعها الأسد البريطانى .

وكان المدربون قد حرصوا على أن يضعوا فى جيوبه أشياء مماثلة لتلك التى يحملها مونتجو مري ، وسلم الكولونل إلى كليفتون جيمس (دستة) من المناديل الكاكية اللون طرز على حرف كل منها الحروف (ب ل م) ، وهى الحروف الأولى من اسم برنار لو مونتجومرى ، وأوصاه بعدم استخدامها إلا فى اللحظات التى سيلقنونه أنها هى اللحظات الضرورية لذلك .

واتخذ الملازم السابق فى القسم الإدارى بوزارة خزانة الشئون العسكرية ،

وعن يمينه مساعده العتيد الجنرال (هيوود) ، وعن يساره ضابط عتيد أيضاً هو الكابتن (مور) الذى يقوم بدور ياوره الخاص - اتخذ مكانه من مطار نورثولت الحربى فى الطائرة الخاصة برئيس الوزراء وسط مجموعة منتقاة من كبار الضباط الذين ليسوا على علم بهذا السر ، فلم يشك أى منهم فى شخصيته ، مما جعله يتقمص هذه الشخصية تماماً .

وهبطت الطائرة فى صباح اليوم التالى فى مطار جبل طارق ، حيث كان الجنرال إيستوود حاكم « الصخرة » فى استقباله بمراسم التكريم التى تليق بالزائر الكبير . وإذ كان معروفاً أن هناك صداقة قديمة تربط بين هذين الرجلين فإنهما تصافحا فى ود ، ولكن كليفتون جيمس استخدم لهجة مونتجومرى الموجزة تماماً كما أوصوه ، وقال لصديقه الحاكم : « كيف حالك يا روستى ؟ » وروستى هذه هى الاسم المختصر الذى ينادى به الجنرال إيستوود أصدقاؤه المقربون .

كان رجال المخابرات العسكرية قد أعدوا العدة من قبل ؛ لكى يصل نبأ وصول مونتجومرى إلى جبل طارق ، إلى آذان المسئولين فى برلين ، فأقام الجنرال إيستوود حفل استقبال حضره علية القوم فى الجبل ، وفى مقدمتهم اثنان من رجال البنوك الإسبانية ، كان معروفاً أنهما يعملان لحساب الجاسوسية الألمانية .

وإذ كان مونتجومرى المزيف واثقاً من أن هناك من يستمع إلى كل كلمة يقولها فإنه راح يلمح أمام صديقه (روستى) الذى كان يحثه على أن يطيل بقاءه بعض الشىء فى « الصخرة » إلى أن وراءه مهامَّ ضخمة تتعلق بالخطة رقم ٣٠٣ ، مما يضطره إلى متابعة رحلته بالطائرة !

ومن نبذ الحديث الذى دار بعد ذلك بين الصديقين استطاع رجلا برلين أن يستخلصا بسهولة أن مرحلة مونتجومرى التالية هى الجزائر ، وأن سبب تحركات القائد البريطانى هى الخطة رقم ٣٠٣ ولم تمض ساعة حتى كانت هذه المعلومات

فى « جحر الذئب » ، ومن هناك طيرها (شيلنبرج) مدير المخابرات الألمانية إلى عملائه فى الجزائر ، لمتابعة رحلة مونتجومرى فى الشمال الأفريقى .

* * *

وقد اتخذ الجنرال ميتلاند ويلسون إجراءات كثيرة لحماية أمن بطل العلمين كما أنهم أخذوه ليجول فى كل مكان !

وخلال ذلك لم يضيعوا أى فرصة لتبادل الحديث معه ، وهو يعرف أن كل كلمة يقولها تتلقفها الآذان المصغية بانتباه عظيم . ثم تناقشوا بعد ذلك فى أواخر شهر مايو فى موضوع نقله بالطائرة إلى القاهرة ، حيث يظل مختبئاً إلى أن يحين وقت نزول القوات فى نورماندى ، ويصبح حقيقة واقعة .

وليس من المستحيل أن يكون هذا الفصل من التمثيلية ، أى جعل كليفتون جيمس يذهب إلى العاصمة المصرية على أنه مونتجومرى ، وهو الفصل الذى نفذوه بإتقان تام - قد أسهم إلى حد بعيد فى استبقاء قوة المدرعات الألمانية الرهيبة التى كانت مرابطة جنوبى فرنسا حيث هى طوال الأيام الثمينة ذات الأهمية البالغة التى استقر فيها رأس الجسر الذى عبرت عليه جيوش الحلفاء إلى الساحل الفرنسى .

وهكذا أمكن أن يقال إن جميع وسائل الحيطة والحذر قد اتخذت من أجل الحفاظ على سرية (أوفرلورد) . غير أن هذا الحساب فى الواقع لم يدخل فى اعتباره عامل الصدفة ، وهو العامل الذى يتخذ أشكالاً شتى، ويمكن أن يتسبب فى جعل كل ما يشيده الرجال ينهار فجأة كما لو كان قصوراً من الرمال !

وقد طرأ هذا العامل فى شهر مايو ١٩٤٤ بالذات عندما اتخذت الصدفة شكل تيار هوائى رطب جميل هب على لندن فى تلك الأيام :

وتفصيل ذلك أنه فى خلال هذا الشهر - كان الجو صافياً ، ودرجة الحرارة

ثابتة ،كما رأينا عندما صدر إنذار كاذب عن المكتب الثانى التابع للبحرية الألمانية . والواقع أن الطقس كان حارا فى لندن ، بل إن هذه الحرارة كانت شديدة الوطأة فى شارع (وايت هول) الذى تقوم على جانبيه جميع الوزارات البريطانية ، وفيه النصب التذكارى لقتلى الحرب العظمى ، ويبدأ من ميدان الطرف الأغر حتى قوس وزارة البحرية .

وكان العاملون فى مكاتب وزارة الحرب المواجهة لمبنى حرس الفرسان يكادون يختنقون من شدة القيظ ، مما جعلهم يفتحون النوافذ على مصراعيها ، على أمل أن تدخل منها نسمة من الهواء .

وفجأة هب تيار قوى من الهواء على إثر فتح باب مواجه لهذه النوافذ ، فطارت معه اثنتا عشرة نسخة كانت تعدها إحدى الإدارات « المتزمتة » ، من وثيقة من نوع « بالغة السرية » ، وخرجت من النوافذ مبعثرة فى الهواء .

وراح الضباط المسئولون يقفزون درجات السلم أربعةً أربعةً هابطين إلى الشارع ، للبحث عن الأوراق الثمينة ، فتمكنوا من جمعها كلها عدا نسخة واحدة ، لم يعثروا لها على أى أثر ... !

* * *

وانقلبت الدنيا رأساً على عقب فى وزارة الحرب .

وعندما استجوبوا الديدبان الذى يقوم على حراسة سور مبنى حرس الفرسان المواجه للوزارة ، وقد فعلوا ذلك أخيراً ، إذا به يقول : إنه قد سلم هذه الورقة إلى مقر الحرس حيث وضعوها فى مكان أمين ، بعد أن شاهد أحد المارة يلتقطها من الأرض ، ثم يعطيها إياه ، ويمضى فى طريقه دون أن يكشف عن شخصيته .

وتبعاً للأوصاف التى أدلى بها الحارس عن هذا الشخص المجهول فإن

المحققين رجحوا أن يكون مصاباً بقصر النظر ، لأنه كان يضع عوينات غليظة ، ولكن إذا كان قد رأى أن من واجبه تسليم الورقة إلى الحارس – فإن ذلك معناه أنه قرأ محتوياتها ، وعرف طابعها الحربى . وقال محقق يغلب عليه التفاؤل ، إن الرجل لابد أن يكون قد توقف عند مجرد قراءته لعبارة « سرى للغاية » . فأجاب محقق ثانٍ إن هذه العبارة بالذات ربما تكون قد أغرته على المضى فى القراءة ، حتى عرف تماماً محتوى الوثيقة .

وقال ثالث : إن الرجل لايمكن أن يكون جاسوساً ، إذ إنه لم يكن هناك ما يمنعه من وضع الورقة فى جيبه ، لكى يدرس محتوياتها على مهل ، فى مكان أمين .

وتضاربت الأقوال ، وطالت المناقشات ، وجرى بحث دقيق للعثور على الرجل المجهول ، ولكنهم لم يجدوه قط ، كأن الأرض قد انشقت وابتلعته . . .

ومن قبيل عامل الصدفة كذلك – ماوقع لأحد عمال النظافة فى محطة (إكستر) فى لندن الذى عثر ذات يوم فى القطار على حقيبة نسيها أحد الركاب ، وكانت تحتوى على خطط عسكرية مفصلة كانت قادمة إلى قيادة الحلفاء من الناحية الأخرى من بحر المانش .

فقد سلم العامل الحقيبة لرئيس المحطة الذى اتصل على الفور بالبوليس ، فلم يلبث أن جاء ضابط قال : إنها حقيبته ؛ وأخذها بعد أن أثبت شخصيته .

مثل هذه « الصدف » كانت تقض مضجع الجنرال (باتس) الذى كان لايزال ساهراً للمحافظة على سر عملية (أوفر لورد) من أن يتسرب بأى طريقة من الطرق . غير أن ماسبب له وللعاملين معه قلقاً شديداً هو ماحدث يوم ٢٢ من مايو ، عندما استرعى أنظارهم العدد الذى صدر فى ذلك اليوم من صحيفة « ديلى تلجراف » ، وفيه كلمات غريبة وردت فى حل لمسابقة الكلمات المتقاطعة .

أما هذه الكلمات فهى على وجه التحديد (أوماها) ، و (دوفر) ،

و (رأس كاليه) ، وجميعها له علاقة بالأماكن التى قد يشملها الغزو القادم .

لم يكن الخوف الذى سيطر على الجنرال « باتس » راجعاً إلى ورود كلمة (دوفر) فى ذلك الحل للكلمات المتقاطعة ، إذ كانت جهود الحلفاء منصرفة إلى إقناع العدو الألمانى بأن الهجوم المنتظر سيكون فى منطقة رأس كاليه المواجه لهذا الميناء البريطانى .

غير أن كلمة (أوماها) هى على وجه التحديد التى كادت تصيبه بالجنون ، فهى الاسم الشفرى للمنطقة التى سينزل فيها الجنود الأمريكيون على الساحل الفرنسى ضمن خطة الغزو الكبرى التى سيقوم بها الحلفاء .

وخرج أحد ضباط الجنرال باتس بفكرة أخرى ، هى أن كلمة (دوفر) التى رئى فى البداية أنه لاخطر منها قد تتخذ معنى خاصاً ، هو أن الهجوم لن يبدأ من هذا الميناء ، وإنما من موانٍ أخرى .

وعلى الفور اعتقلت المخابرات المحرر الصحفى الذى أعد هذا اللغز من الكلمات المتقاطعة ، وبدئ التحقيق معه . وقد تبين منه أنْ لا شبهة عليه ، وأنه كان قد سلم هذه الحلقة إلى الصحيفة من مدة طويلة ، ترجع إلى ماقبل وضع أى خط فى مشروع (أوفرلورد) .

ثم صدر إنذار جديد بالغزو يوم ٣ من يونية ، أى قبل يوم الهجوم الحقيقى بيومين ، عندما ظهر خبر مثير على مبرقات وكالات الأنباء ، جاء فيه مايلى : « الجنرال آيزنهاور يعلن هبوط قوات الحلفاء فى فرنسا » .

وقد أذاعت هذا الخبر وكالة (أسوسيتيد برس) البريطانية ، وجعلته عاجلاً ، ولكنها عادت بعد نصف ساعة وأذاعت تكذيباً رسميًّا له . لكنه كان قد بلغ مسامع برلين ، بل ووصل إلى موسكو ، حيث كانوا فى غاية الغضب ؛ لأن ونستون تشرتشل الذى وعدهم فى مؤتمر طهران بفتح جبهة جديدة عاد

وقال : إن هذه الجبهة سيتأخر فتحها لشهر.

ولم يكن هذا النبأالكاذب راجعاً إلى مؤامرة ، ولا إلى أى نوع من الخيانة .

ولكنه جاء ببساطة من ابتداع خيال إحدى السكرتيرات ، التى شعرت ببعض الملل ، فأخذت تلهو وتعبث بمفاتيح جهاز إرسال الأنباء ، وكتبت النبأ الذى كان الجميع يتمنون أن يعثروا عليه ذات صباح فى الصحف.

ولتتويج كل ذلك ، وزيادة فى الضغط الواقع على أعصاب الجنرال باتس – ظهرت إعلانات على جدران مدينة نيويورك ، تحمل نبأ « العرض الأول» لفيلم سينمائى جديد عنوانه (يوم الهجوم) وكان اليوم المحدد لهذا العرض ، هو ٦ من يونية ١٩٤٤ .

* * *

وفى الوقت الذى بعثت فيه نفسه المخابرات العسكرية البريطانية إلى جبل طارق (مونتجومرى) المزيف لجعله يختفى فى الجزائر لحمل العدو الألمانى على الاعتقاد بأن الهجوم الذى يتهيأ لصده على الساحل الفرنسى لبحر المانش سوف يقع على الشواطئ الشمالية للبحر المتوسط– كانوا فى بريطانيا يعدون العدة لاختلاق قيادة عامة وهمية مقرها فى إقليم (كنت) المواجه للمنطقة التى بين بولونى وكاليه .

وقد أسندوا هذه القيادة العامة التى لاوجود لها إلى جنرال أمريكى كبير . هوالجنرال (باتون) الذى وافق على استغلال اسمه فى الخدعة الجديدة .

فماذا كان الغرض من ذلك ؟

الفصل الثالث عشر

واقتربت أخيراً ساعة تكشف الحقيقة .

كان جورج سميث باتون يحمل فى أعماقه روح الفارس ؛ فلقد تخصص خلال الحرب العالمية الأولى – فى قيادة القوات المدرعة التى كانت فى أول عهد ظهورها ، وعلى رأس فرقة مماثلة هبط فى شهر نوفمبر ١٩٤٢ فى المغرب قبل أن يلمع اسمه ويسترعى إليه أنظار العالم فى المعارك التى دارت فى تونس ، وبعدها فى جزيرة صقلية . . .

ولقد كان الجنرال باتون يأمل أن يقع عليه الاختيار ليتولى قيادة الجيش الأمريكى الأول ؛ لكى يكون أول من يهبط على سواحل نورماندى ، غير أن واشنطون قد بذلت جهداً كبيراً لإقناعه بالاكتفاء بقيادة الجيش الثالث الذى سيقف فى حالة احتياط حتى أواخر شهر يوليو .

وهال الجنرال العتيد أن يقف بغير حراك كل هذا الوقت ، فلما اقترحوا عليه أن يستخدموا اسمه الذى يعلم الجميع أن العدو يرهبه من أجل الحفاظ حتى النهاية على سرية خطة أوفر لورد – خفف ذلك عنه بعض الشىء .

وقد أحيط تعيين الجنرال باتون على رأس الجيش الأمريكى الثالث بنوع من الدعاية ، قصد به جعل الألمان يعتقدون أن آيزنهاور سوف يستخدم شهرة هذا الفارس الذى كان يخيل لمن يراه أنه خارج لتوه من أحد أفلام رعاة البقر فى الغرب ؛ ليحتفظ به لاقتحام دفاعات العدو فى رأس كاليه ، ثم ليتجه بعد ذلك مباشرة إلى وادى الراين !

ومن أجل ذلك – كان لا بد من زيادة اعتقاد العدو بأن هذا الجيش

الثالث قد استقر فى الجزء الجنوبى الشرقى من بريطانيا حيث أخذ يستعد بكل قوته لعبور المضيق .

ولكى تقنع قيادة الحلفاء فون رونشتت تمام الاقتناع بهذا الترتيب فإنها أصدرت أمراً إلى قوات الدفاع الجوى فى هذا الجزء من الساحل البريطانى بأن تبدو غير منضبطة فى أنظار طيارى الكشف التابعين لسلاح الجو الألمانى الذين يغامرون بالتحليق فوقها لالتقاط بعض الصور . حتى إذا كبروها فى ألمانيا ظهرت فيها مئات القوارب واقفة دون نظام فى ميناءى دوفر وفولكستون .

ونجحت المناورة : ذلك أن خبراء الجيش الألمانى عندما راحوا يفحصون بالميكروسكوب هذه الصور تيقنوا أن هذا النوع من القوارب يدل بصورة لا تقبل الشك على أنها أعدت لإنزال قوات فى شمالى فرنسا . إذ إنها لا تقوى على مواجهة عبور تستمر بضع ساعات .

والتقط الألمان صوراً أخرى للجزء الخلفى من بريطانيا تظهر فيها آثار كثيرة لجنازير دبابات عند أطراف الغابات الكثيفة التى تحيط بها حقول بدت أرضها كأنما اجتازتها سيارات نقل ثقيلة . !

* * *

ولابد أن الألمان راحوا يتساءلون . وطياروهم يلتقطون كل هذه الصور بسهولة : عم يمنع طائرات المطاردة البريطانية من الظهور ؟ فهل تراها تدخر كل قواها لذلك الهجوم الذى تدل كل الدلائل على أنه سيقع فى وقت قريب ؟

غير أنها استمرت فى التقاط المزيد من هذه الصور التى أتاحت لها أن تفاجئ تجمعات كبيرة من القوات محتشدة فى السهول البريطانية . واقفة على أهبة الاستعداد جنباً إلى جنب .

أما الأعمال الأخرى المختلفة التى كان الحلفاء يقومون بها فى إقليم (كنت) .

فإن الألمان كانوا يستطيعون كشفها بنظاراتهم المكبرة من عند رأس جرى نيه .
وهناك كذلك الرسائل اللاسلكية الكثيرة المتبادلة بين مقر قيادة الحلفاء فى لندن وهذه البقعة . وتحمل كل الأسباب على الاعتقاد بأن الجنرال (باتون) هو القائد الحقيقى لهذه القوات طالما أن مونتجومرى يجول فى مكان ما من البحر المتوسط .

إذن . فإن هذه البقعة هى مقر قيادة باتون . وإنه هو الذى سوف يتولى قيادة الهجوم المرتقب .

كانت لندن مستمرة لبعض الوقت فى إذاعة هذه الرسائل اللاسلكية الواضحة المعنى . على أمل أن تسهم فى تضليل الجنرال فون رونشتت .

وهكذا : بينما كانت قيادة الجنرال مونتجومرى ماضية فى استعداداتها الأخيرة تمهيداً للهجوم على شاطئ نورماندى . وبينما كان (مونتى) وهو القائد العام للقوات البرية المتحالفة فى مقر قيادته فى بورتسموث - كان الألمان يعتقدون أن قائد العملية هو باتون ، كما أن قيادته المزعومة لا تتكون إلا من فصيلة اتصالات لاسلكية . لا عمل لها إلا أن تبعث على أمواج الأثير أكبر عدد ممكن من الرسائل التى يسهل فك رموزها . والتى لا تعنى شيئاً !

أما الأعمال النشيطة التى كانت تجرى على الساحل البريطانى بين رأس (دانجنس) ورأس (نورث فورلند) - فإنها كانت أعمالاً مصطنعة . مثلها مثل آثار جنازير الدبابات التى طبعت على الأرض . والتى أحدثتها أجهزة خاصة . وهى الأجهزة التى قامت كذلك بقلب الحقول المجاورة ظهراً لبطن . حتى تبدو كأن تجمعات من القوات المدرعة عبرتها . لكى تتوارى تحت أشجار الغابات .

وأما القوارب المتراصة على الساحل . وامتلأ بها ميناء دوفر وميناء فولكستون - فإنها كانت قد تركت جانباً منذ الغارة على (دييب) ، إذ تبين عدم جدواها فى القيام بالخدمة المنتظرة منها .

ولقد كان من شأن هذا الإخراج البارع فى الخداع والتضليل – أن زادت فون رونشتت اقتناعاً على اقتناعه بفكرته عن مكان الغزو . فضلاً عن أنها بدأت تؤثر فى (روميل) إلى حد أنه أبدى فى شهر مايو استعداده لمشاركة المارشال العجوز فى وجهات نظره !

* * *

وكان كل ما استطاع هتلر معرفته عن خطة (أوفر لورد) قبل بدء تنفيذها بثمانية أيام – هو اسمها الشفرى ، بل إنه كان يجهل ما المعنى الذى يرمز إليه هذا الاسم . ؟

ولقد عثر فيما بعد فى محفوظات المخابرات الألمانية على وثيقة سرية كانت وزارة الخارجية البريطانية قد بعثت بها إلى سير هيو ناتشبول الذى كان سفيراً لبلاده فى أنقرة ، وقد صورها بكل دقة خادمه الخاص المعروف باسم (شيشرون) فى ألمانيا . وفى هذه الوثيقة ظهرت كلمة أوفر لورد .

كان هذا الخادم من أصل ألبانى ، وكان اسمه الأصلى (إلياس بازنا) ، وكان يبيع بثمن باهظ الأفلام التى يلتقطها خلسة لرجل نمسوى يدعى لودفيج مويزيك . يعمل فى الظاهر ملحقاً تجارياً بسفارة الرايخ فى العاصمة التركية ، وكانت هذه الوظيفة هى الغطاء لعمله الأساسى كعميل فى قسم الوثائق بالمخابرات الألمانية التى يرأسها فالتر شيلنبرج .

ولم يكن شيشرون يثق كثيراً فى المارك الألمانى . ولذلك كان يطلب أن يدفعوا له بالجنيه الإسترلينى بواقع خمسة آلاف جنيه عن كل فيلم . والحق أن الصور التى كان يلتقطها هذا الخادم كانت تستحق هذا المبلغ .

ولم يتح مضمون الوثيقة التى ظهرت فيها كلمة أوفر لورد ما يفهم منه المعنى المقابل هذه الكلمة . ومن أجل ذلك عمد جوا كيم فون ريبنتروب الذى كان فى

الماضى بائع خمور . ثم جعل منه هتلر وزيراً لخارجية ألمانيا ، إلى تحرير رسائل شفرية تحمل عبارة (سرى للغاية) بعث بها إلى جميع العاملين فى السلك الدبلوماسى الغازى فى الخارج ، يطلب منهم فيها أن يستعملوا خلال أقصر فترة ممكنة عن معنى هذه الكلمة غير المعتادة التى تجىء مباشرة من لغة القرون الوسطى .

وكل ما استطاع هؤلاء الدبلوماسيون التوصل إليه – هو أن الكلمة لها علاقة بقضية ذات أهمية أكبر ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى معرفة شىء عنها . وثار ريبنتروب على المخابرات الألمانية التى تدفع لجاسوس مثل شيشرون هذه المبالغ الطائلة ، على حين لم يعرف كيف يأتى بالمعنى الحقيقى لتلك الكلمة التى صورها فى إحدى الوثائق التى بعث بها .

وقد ظلت المخابرات تدفع لهذا الجاسوس على أمل أن يتمكن من التوصل إلى أى شىء عن (أوفر لورد) ؛ حتى بلغ ما تقاضاه مائة وخمسة وعشرين ألف جنيه إسترلينى !

غير أن ماكان يعزى برلين أن كل هذه النقود كانت مزيفة !

* * *

وكما سبق أن قلنا – فإن الفترة التى تلوح فيها ظروف ملائمة للقيام بالغزو ، من حيث تأثير القمر والمد – لم تكن تستغرق من شهر يونية ١٩٤٤ إلا وقتاً محدوداً هو الذى بين فجر الاثنين ٥ من يونية ، وفجر الأربعاء التالى له .

غير أن الجنرال آيزنهاور كان يشعر ببالغ القلق ؛ لأنه لم يكن واثقاً من حالة الجو فى هذه الفترة القصيرة . ولذلك فإنه كان يجتمع مرتين كل يوم : الأولى فى الساعة الرابعة والنصف صباحا ، والأخرى فى الساعة التاسعة مساء هو والقادة الآخرون مع لجنة الأرصاد الجوية التى كانت تتكون من خبراء أمريكيين

وإنجليز ، ويرأسها ضابط برتبة كولونل فى سلاح الطيران الملكى هو ج . م ستاج الذى كان أسكتلندياً متزمتاً ، ولكنه بارع فى هذا الفن .

وكان هؤلاء الخبراء يفحصون ويحللون بكل دقة أقل ظاهرة جوية ، ثم يأخذون فى دراستها مع القادة العسكريين ، ومع آيزنهاور بنفسه . ومع ذلك فكلما اقترب الوقت المحدد زاد قلق هؤلاء القادة ؛ إذ إن فرص تحسن الجو فى هذه الفترة كانت تتناقص باستمرار .

لكن هذا القلق تبين فيما بعد أنه كان فى مصلحة الحلفاء ؛ لأن تناقص هذه الفرص كان يزيد فى اقتناع العدو الألمانى أن الجو يزداد سوءاً ، ومعنى ذلك أنه لن يكون هناك أى غزو .

وكان الجنرال آيزنهاور لا يفتأ يقول لمجموعة الكولونل ستاج : إن من الضرورى أن تكون تنبؤاتهم على أقصى درجة من الدقة خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة ، وكان يحثها على أن يجعلوا هذه التنبؤات تشمل الثمانى والأربعين ساعة .

وقد بدأ آيزنهاور يثق فى تقديرات هذه اللجنة بعد أن اختبر كل التنبؤات التى أعدتها عن شهر مايو ، فإذا بها تصدق فى جميع الأيام . ولذلك فإنه لم يستطع إلا أن يقطب جبينه فى الاجتماع الذى عقده معها فى الساعة التاسعة والنصف من مساء الأول من يونية عندما أخبره الكولونل ستاج بأن الطقس آخذ فى التدهور ، ولكن خبراءه يشعرون بتفاؤل نسبى ، بالنسبة للأيام التالية ، وذلك فى إطار محدود للغاية .

* * *

وغادر الجنرال آيزنهاور لندن ؛ إذ نقل قيادته العامة إلى حديقة قصر قديم يدعى (ساوثويك هاوس) يقوم بالقرب من ميناء بورتسموث مباشرة ؛ لكى

يكون فى أقرب نقطة من سفن الأسطول ، هذه الأرمادا الجديدة التى كان الجميع يأملون ألا يكون مصيرها كمصير سابقتها المنكودة الطائرة التى انطلق بها الملك فيليب الثانى لغزو انجلترا عندما تبدأ فى الإبحار متجهة إلى الشاطئ الفرنسى .

وكانت هذه القيادة عبارة عن عدد من الأكواخ اصطفت فى شكل قوافل ، وقد هبت عليها بعد ظهر اليوم الثانى من يونيه نسائم تشبه نسائم الربيع ، فراح الجميع يستمتعون بها وهم جلوس فى ظل الأشجار .

وفى هذه اللحظات بدت السماء فوقهم صافية ؛ مما بدا معه أنه تكذيب لتنبؤات لجنة الأرصاد الجوية التى تحلت فى اجتماع الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم حتى عن تفاؤلها النسبى السابق ، وقال الكولونل ستاج فى اكتئاب : إن الاحتمالات الجوية خلال الثمانى والأربعين ساعة التالية مشكوك فيها .

وامتقعت لدى سماع هذه الملاحظة وجوه الرجال الذين يحيطون عادة بالجنرال آيزنهاور . وهم المارشال تيدر مساعده ، ورئيس أركان حربه الخاص بيدل سميث ، ونائب الأميرال رامزى . والجنرال مونتجومرى ، ومارشال الجولى مالورى . وأركان الحرب الثلاثة وهم (كريزى) و (جانجو) و (روب) . والواقع أنهم أحسوا بأن الاحتمالات الجوية التالية مشكوك فيها ؛ لأن رياحاً باردة أخذت تصطدم ظهورهم .

غير أنهم فى هذه الساعة بالذات التى كانوا يتناقشون فيها - كانت تلك الآلة الثقيلة الهائلة المتمثلة فى قوات الغزو قد بدأت تتحرك بالفعل ، إذ انطلقت السفن الحربية التى تحرس القوة الأمريكية (يو) ، التى كلفت نقلَ الجنود الذين سيهبطون تلك المنطقة من الساحل الفرنسى وأطلق عليها اسم (أوتاه) .

وقد غادرت هذه القوة موانئ تورباى وبيرشام ودارتسموث ، ثم أخذت

تسير بسرعة خمس عقد فى الساعة وفقاً للبرنامج الموضوع فى إطار عملية (نبتون) ، ومقدماتها متجهة نحو الساحل الشرقى للقارة . . .

وكان السؤال الذى تردد فى المناقشة هو : أين ستُنزل هذه السفن الجنود التى حملتهم على ظهرها ، عندما يحين الوقت لهبوطهم على الأرض ؟ إن أماكنهم التى كانوا بها فى المعسكرات قد شغلتها على الفور قوات أخرى . سوف تحملها سفن تالية للذهاب بهم إلى الشواطئ الأخرى !

وهنا ارتفع صوت يقول : « إن جنود القوة (يو) قد أُبْلِغوا الوجهة التى يقصدونها ، بعد أن أصبحوا على ظهر السفن . فهم من ثم يعرفون أين سيكون الهجوم الذى سيقومون به ؟ فكيف نأمن إذن على السر إذا هم أعيدوا إلى الميناء ؟

فقال الجنرال مونتجومرى : « إننى أرى عدم تغيير أى شىء من الترتيبات التى اتخذت » .

وانفض الاجتماع بغير اتخاذ أى قرار . فلم يكونوا إلا مساء اليوم الثانى من يونيه ، مما يجيز الأخذ بذلك المثل الإنجليزى القديم الذى يقول : « انتظر . . وترقب » .

* * *

فى صباح اليوم التالى الثالث من يونيه ، كانت السماء فى بورتسموث لا تزال زرقاء ، غير أن تشاؤم مجموعة الكولونل ستاج بدا أكثر ثباتاً ، عندما قال وصوته لا ينم على أى انفعال : « إن الاحتمالات الجوية فى الأيام القادمة قد ازدادت سوءاً ، فالرياح تزمجر بقوة فوق البحر ، وهناك ضباب خفيف منخفض يغطى الساحل الفرنسى » .

وكان معنى ذلك أنه إذا لم ينقشع هذا الضباب المنخفض خلال الساعات التالية فإن طائرات القتال لن تستطيع تقديم أى عون للقوات التى تهاجم على الشاطئ . كما أن نيران مدفعية السفن الحربية لن تكون مركزة !

وبغير أن يتفاهم معاً كل من نائب الأميرال رامزى ومارشال الجولى مالورى ، فإن الاثنين وافقا على تأجيل العملية برغم أن الجنرال مونتجومرى تحدث فى الليلة السابقة ، وعارض بشدة هذه الفكرة ، إذ قال : **« فلنهاجم بعد غد صباحاً كما هو مقرر من قبل ؛ لأن أى تأجيل سيكون من شأنه** نسف الروح المعنوية لدى الجنود ، وخاصة بين أولئك الذين تحملهم السفن الأمريكية . فهل فكرتم فى التكدس الذى سنخلقه فى الموانى ، إذا نحن أعدنا إليها هذه السفن ؟ ومن ناحية أخرى فإن سر الهدف الذى نسعى إليه سوف يتعرض للخطر ؛ ثم إنه من الأمور التى تبعث على الذهول أنه ما من طائرة **اكتشافٍ معادية واحدة استطاعت كما يؤكدون لنا – أن تكشف حشود قواتنا !** » .

وتلت ذلك مناقشة طويلة . راح آيزنهاور خلالها يستمع إلى ما يقال بغير أن **يفتح فمه ، فلما انتهت قال : « إننى أقترح تأجيل اتخاذ القرار إلى اجتماعنا صباح الغد »** .

وأدلى الأميرال رامزى بملاحظة قال فيها : إن القوافل الأمريكية التابعة للقوة (أوه) والمخصصة للهبوط على ساحل (أوماها) ستبحر الآن . وقد أخذ آيزنهاور مذكرة بذلك ، ولكنه قرر عدم تغيير أى شىء فى الترتيبات التى تضمنتها خطة (نبتون) .

* * *

كان هذا هو الاسم الشفرى الذى أطلق على العملية الواسعة النطاق التى تشمل أن تعبر المانش عدة آلاف من السفن من كل نوع وأشدها اختلافاً ، والتى ستتولى حراستها أكثر من ألف سفينة حربية .

وفيما عدا القوة (يو) التى اتبعت منذ إبحارها طريقاً مستقلاً – فإن هذا الأسطول الهائل الحجم كان عليه أن يمر من منطقة أطلقوا عليها اسم (زد) ، وهى على بعد ثمانية عشر ميلاً إلى الجنوب الشرقى من جزيرة (وايت) ، ومنها

تتفرع خمس طرق خططت على شكل مروحة رسمتها سفن إزالة الألغام ، وتمتد إلى الشواطئ الخمسة التى سيتم نزول القوات فيها .

ولم يكن أحد من قادة الحلفاء يجرؤ على مجرد التفكير فى الكارثة التى كان يمكن أن تحدثها مجموعة من غواصات البحرية الألمانية مصحوبة بعدد من زوارق إطلاق الطوربيد ، لو أن العدو قد فطن فى الوقت المناسب إلى هذه الفريسة التى يشكلها هذا التجمع من السفن والبواخر والقوارب من كل نوع على حين أنها تتقدم ببطء ، وتهب عليها رياح قوية .

ولكن العدو ضيع على نفسه هذه الفرصة . . . !

وفى المؤتمر الصباحى الذى عقد فى الساعة الرابعة فجر اليوم الرابع من يونية بدت مجمةوعة الكولونل ستاج أكثر تشاؤماً من أى وقت مضى ، ولو أن هذا التشاؤم لم يدهش له أحد هذه المرة .

وقد سجل الجنرال آيزنهاور فى مذكرته : « إن سحباً منخفضة ، ورياحاً عنيفة ، وبحراً هائجاً – كل هذه تجعل عملية إنزال القوات مغامرة غير محمودة العواقب » . هذا بينما كان الإبحار العام سيبدأ فى الساعة ٦,٣٠ .

وقال الكولونل ستاج مؤكداً : « سوف يكون من المستحيل ، فى مثل هذه الظروف الاعتماد على أى مساندة من جانب سلاح الطيران . ومن ناحية أخرى فإن مدفعية السفن ستواجه صعوبة كبيرة ، لتصويب نيرانها بطريقة فعالة . وأخيراً فإن القوارب الخفيفة لن تستطيع القيام بمناورة مأمونة » .

وعند ذلك أخذ رأى الأميرال رامزى ، فأجاب : بأنه يعتقد أن فى إمكانه برغم كل هذه الصعاب – أن ينجح فى إتمام المناورة الرئيسية ، ولكنه أكد أنه سيكون من العسير على السفن أن تضبط تصويب مدافعها . . .

* * *

ومرة أخرى عارض مونتجومرى هذا التردد ، وقال : إنه على استعداد لكى يجرب حظه ، برغم أنه كان سيضطلع بأثقل المسئوليات ، ولكن مارشال الجو تيدر يؤيده مارشال الجو الآخر لى مالورى - قاوم بإصرار هذا الاتجاه .

وبعد أن استمع الجنرال آيزنهاور فى انتباه تام لوجهات النظر المتضاربة - اتخذ قراراً كان له وقع ثقيل تلخص فى كلمتين : « ستؤجل العملية » .

كان معنى ذلك أن السفن التى اتخذت طريقها فى البحر يتعين عليها أن تعود أدراجها . بما فيها المجموعات الخمس والعشرون من كاسحات الألغام التى قال الأميرال رامزى : إنها تقترب حالياً من ساحل نورماندى . بعد أن قامت بمناورة دقيقة للغاية تتلخص فى رسم الطرق الخمسة المقررة . عبر حقول الألغام الواسعة التى بثها العدو أمام الشواطئ الفرنسية . ثم أضاف قائلا : « وإذا أخذنا العاصفة المتوقعة فى الاعتبار فإن المناورة الجديدة التى سيتحتم على هذه الكاسحات القيام بها سوف تكون بالغة الخطورة . ومن ناحية أخرى - فإننى أشك فى حالة تحديد يوم ٦ من يونية موعداً لتنفيذ العملية فى أن السفن سيكون لديها الوقت الكافى لملء خزاناتها بالوقود فى الموانى التى سترسو عليها .وكما قال الجنرال مونتجومرى . فإننى أخشى أن يترتب على تأجيل الهجوم انهيار فى معنويات الجنود إذا هم أعيدوا إلى الأرض على حين كانوا قد تهيئوا نفسياً لخوض المعركة . وأخيراً . فإنه فضلاً عن الآثار الإنسانية التى ستترتب على التأجيل فإنه يسبب اضطراباً مؤسفاً فى سير خطة (نبتون) . فضلا عن أن بعض عناصر الأسطول قد اكتشفها العدو » . وظل آيزنهاور صامتاً برهة قصيرة . وهو يزن فى داخله الجانب المؤيد والجانب المعارض . ثم قال مرة أخرى : « لقد أجلت العملية . وأعتمد فى ذلك على جهد كل منكم » . . .

الفصل الرابع عشر

تشرتشل فى حيرة بين الحليف الأمريكى وديجول العنيد !

لقد تحققت للحلفاء معجزة من السماء عندما لم يتنبه الألمان إلى حركة ذهاب وعودة أسطول الغزو فى البحر ، بما فيه تلك القافلة الأمريكية التى حملت على ظهور سفنها القوات التى كانت ستهبط منطقة شاطئ (أوتاه) . التى لم تستطع القيادة الاتصال بها لاسلكيًا لإعطائها الأمر بالعودة . . .

وقد ظلت أسباب عدم إمكان الاتصال لاسلكياً بمجموعة السفن الأمريكية التى تحمل الجنود الذين كانوا سينزلون فى الجزء الذى خصص لهم من الساحل الفرنسى مجهولة حتى اليوم ، ولم يمكن إبلاغها بأوامر العودة إلى قواعد انطلاقها فى بريطانيا إلا فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى ٤ من يونية على حين كانت قد قطعت ثلث المسافة التى عليها اجتيازها .

وبعودة أسطول الغزو إلى قواعده — حدث تكدس كثيف فى ميناء بورتلند بصورة فاقت كل ما كان متوقعاً . غير أنه بمضاعفة الجهود أمكن استيعاب كل هذه القوات فى آخر النهار . ولم يعد هناك ما يدعو للأسف سوى فقدان سفينة محملة بالدبابات جنحت على صخور هذا الميناء .

ولم يسترع هذا الحادث أنظار الجنرال آيزنهاور الذى كان منهمكاً فى عصر ذلك اليوم الرابع من يونيه فى أعمال هامة أخرى .

* * *

ولقد كان ونستون تشرتشل على عكس الرغبة التى أعرب عنها الرئيس

الأمريكى روزفلت بعدم إحاطة الجنرال شارل ديجول علماً بأى شىء عن نزول قوات الحلفاء فى شمالىّ فرنسا على غرار ما حدث عند نزولها فى شمالىّ أفريقيا ؛ فإن رئيس الوزراء البريطانى شعر أن ليس من حقه أن يحجب عن زعيم فرنسا المحاربة أنباء عملية (أوفر لورد) التى كانت نتيجتها حاسمة بكل تأكيد بالنسبة لمصير بلاده .

ومن أجل ذلك بعث إليه فى الجزائر بطائرته الخاصة مع رجاء بأن يلحق به فى لندن ؛ مما جعل الجنرال يكون حاضراً على مائدة الغذاء معه ، فى ذلك اليوم الأحد نفسه ٤ من يونية ، فى مكان ما بالقرب من بورتسموث .

وقد روى الجنرال ديجول فى مذكراته عن الحرب هذا اللقاء بطريقة تختلف بعض الشىءوالطريقة التى رواه بها تشرتشل ، غير أن هذين الرجلين الكبيرين قد اتفقا مع ذلك على نقطة واحدة ، وهى أن رئيس وزراء بريطانيا فقد صبره خلال اللقاء من عناد ديجول ، فصاح قائلا : « ألا فلتعلم أننا فى كل مرة يكون علينا الاختيار بين أوربا والعالم العريض – فإننا نقف دائماً مع العالم العريض ! وفى كل مرة يتعين على أن أختار بينك وبين روزفلت – فإننى أختار روزفلت ! » .

وبعد أن قال له ذلك رافقه إلى مقر قيادة الجنرال آيزنهاور . وقد أبدى القائد الأعلى لقوات الغزو المتحالفة إزاء زائره اهتماماً كبيراً ووداً ظاهراً ، ودعاه إلى مائدة غذاء دار بينهما حولها حديث حار ، الأمر الذى تضايق منه تشرتشل ، فقد تحدث معه بالتفصيل عن خطة (أوفرلورد) ولم يخف عنه القلق الذى يشعر به من جراء سوء الأحوال الجوية ، ثم قال: « لو أن الغزو لم نشرع فيه فجر الأربعاء ٧ من يونية على أكثر تقدير فإننا سوف نضطر إلى تأجيله ثلاثة أسابيع ، وعندها ستسود ظروف جوية أسوأ من الظروف الحالية » .

ولم يتأخر ديجول فى إبداء رأيه إذ قال : « لو أننى كنت مكانك ما أجلته على الإطلاق : ذلك أن مخاطر الجو أقل خطورة من التأجيل لعدة أسابيع من شأنها أن تطيل التوتر النفسى للذين سيقومون على تنفيذ الخطة . وقد يُذاع خلالها سرها ! » .

* * *

ولقد أدلى ديجول بهذا الرأى بعد أن ألح عليه آيزنهاور ليتولّى وجهة نظره ، فلما جاءت هذه مطابقة لما استمع إليه قبل ذلك من آراء شجعه ذلك على اتخاذ القرار الذى كان ينضج فى داخله برفض فكرة التأجيل لثلاثة أسابيع .

وكان من شأن هذا التوارد فى الأفكار أن وضع الجنرال آيزنهاور تحت أنظار ديجول نصوص النداءات التى أعدتها واشنطون ، والتى كلف أن يقرأها من الإذاعة البريطانية التى يستمع إليها الفرنسيون بالرغم من شوشرة الألمان عليها ، وذلك فور أن تأتيه الأنباء مؤكدة أن رأس الجسر قد تدعم على الساحل الفرنسى .

ولكى يراعى آيزنهاور التسلسل الزمنى الذى حدث فى غزو الألمان للدول التى يحتلونها فإنه سيتوجه بالحديث أولاً إلى النرويج ، ثم إلى الدانيمرك ، فإلى هولندا ، وبلجيكا ، ولكسمبورج ، وأخيراً إلى الفرنسيين الذين وقعوا تحت نير العدو !

ويتحدث آيزنهاور فى كل هذه البيانات باسمه ، ولو أنه يعبر فى الواقع عن إرادة الرئيس روزفلت ، فيدعو الفرنسيين إلى تنفيذ أوامره ، ويقول لهم : إنه بعد التحرير الكامل لأراضيهم سيكون لهم أن يختاروا بأنفسهم ممثليهم وحكامهم ولم يرد فى أى مكان من النص أى ذكر لفرنسا الحرة ، ولا لرئيسها ديجول .

وكان رد الجنرال فوريًّا ، فرفض أن يتحدث فى الإذاعة البريطانية كما قررت واشنطون بعد آيزنهاور ، وقال : إنه لا يريد أن يبدو شريكاً فى مثل هذا

البيان ، وزاد على ذلك أنه تجاهل الدعوه التى وجهت إليه ؛ ليأخذ مكانه فى قطار رئيس الوزراء البريطانى الخاص ليعود إلى لندن ، مع أنه كان القطار الذى أقله إلى بورتسموث .

وفى صباح الاثنين ٥ من يونيه بعث إلى آيزنهاور النص الذى صاغه ليلاً تصحيحاً للنص الأول ؛ ولكن القائد الأمريكى أبلغ رسول ديجول أن البيان الأصلى قد طبع ، وسجل على أشرطة ؛ لكى تحمله الطائرات وتذيعه وهى فى الجو فوق فرنسا فى الساعة المحددة .

* * *

وبهذه الروح التى أثقلتها هذه الأحداث الجديدة قصد آيزنهاور إلى المؤتمر الثانى للأرصاد الجوية الذى عقد مساء يوم الأحد فى الساعة التاسعة كالمعتاد . وفى مرفأ بورتسموث كانت القوارب الكبيرة ذات الأرضية المسطحة تقفز فوق الأمواج ، ثم انصرف الذين حضروا الاجتماع بغير أن يتخذ أى قرار جديد نظراً إلى أن لقاء آخر قد تحدد له صبيحة اليوم التالى الاثنين الساعة الرابعة صباحاً .

وقد سجل آيزنهاور فى مذكراته مايلى : « فى الساعة ٣٠ , ٣ تهب رياح تصل إلى حد الإعصار . وتهز معسكرنا من جذوره ، على حين أن المطر ينهمر كأنما السماء قد ذابت وتحولت إلى ماء ! »

وفى هذه الساعة راح يعبر الطرق الغارقة والموحلة قاصداً القيادة العامة للقوات البحرية ، بعد أن أعلنهم مقدماً أن الاجتماع الذى سيعقد لن يسفر عن شىء ملموس .

وبدأ الكولونل ستاج يحيط به معاونوه يتلو تقرير الأرصاد الجوية ، ثم قال : إن عملية إنزال القوات لو أنها ظلت على موعدها الأول فى هذا الصباح لأدى ذلك إلى ما يشبه الكارثة . وكانت هذه هى الطريقة التى تعبر بها اللجنة

التى يرأسها عن دقة الأحوال كما قدرتها .

وبعد أن أدلى هذا المتزمت الأسكتلندى الدقيق فى عمله بتقريره هذا لم يلبث أن أضاف : « إن الجو سوف يهدأ صباح الغد ، وليس قبل ذلك ، وسوف يستمر حوالى ست وثلاثين ساعة » .

الهدوء فى آخر يوم يعتبر ملائماً لم يكن متوقعاً ، إنه قد يتيح احتلال موضع قدم على الشاطئ ، ولكن هناك ما هو بعد ذلك : فبغير عملية التموين التى لا يمكن أن تتم إلا إذا هدأت الأمواج طوال الوقت الذى يستغرقه تركيب الموانى الصناعية فإن قوات الهجوم تكون قد صدر عليها حكم مؤكد بالإبادة .

وسئل الكولونل ستاج : « وماذا بعد هذه الساعات الست والثلاثين ؟ » .

واستشار الرجل معاونيه فى لجنة الأرصاد ، ثم قال : إن هذه الفترة من الهدوء سوف يعقبها جو سيئ للغاية ، وهى نبوءة اغتم لها الحاضرون .

وقد سجل آيزنهاور فى مذكراته مايلى : « غير أن النتائج التى قد يسفر عنها تأجيل الغزو كانت ستطرح علينا قبول مغامرة ، فقررت على الفور تقريباً أن الهجوم سيبدأ فى الغد يوم ٦ من يونية » .

وتطلع إلى ساعته ، فكانت تشير فى ذلك الصباح ٥ من يونية إلى الساعة ١٥ , ٤ .

* * *

كانت المغامرة الخطيرة التى أخذها آيزنهاور على عاتقه مغامرة هائلة : لقد كان على يقين من أن سحق قوات الهجوم الأولى التى ستنزل على الشاطئ الفرنسى التى ستكون محرومة من أى نجدة خارجية نتيجة لقيام العدو بهجوم مضاد عليها — سوف تكون له عواقب لا يمكن إحصاؤها .

وهو يعرف من ناحية أخرى أن تأجيل البدء فى تنفيذ عملية أوفرلورد ثلاثة

أسابيع – ينطوى على ضياع ميزة هامة هى حرمان القوات التى ستلق بالمظلات من أى شعاع من أشعة القمر ، ولو أن انعدام هذه الميزة لا يقارن بالعواقب الخطيرة التى ستتعرض لها الروح المعنوية لدى الجنود ، ولدى الرأى العام البريطانى والأمريكى ، ولدى الشعوب الواقعة تحت نير الاحتلال الألمانى ، ولدى سائر منظمات المقاومة التى أصبحت فى الرمق الأخير . وكل ذلك يعتبر فشلاً ذريعاً لن تلبث الدعاية النازية أن تستغله أكبر استغلال ! فضلاً عن أن عصر المفاجأة الذى كان يمكن تحقيقه من إنزال قوات الحلفاء عند مصب نهر السين سوف يزول تماماً .

ولسوف يخرج هتلر الذى يتمنى مثل هذا الفشل للحلفاء بنتائج هامة كثيرة : أولها أنه سوف يبعث إلى الجبهة الشرقية عدة فرق مدرعة من التى كان مضطرًا للاحتفاظ بها فى فرنسا وبلجيكا ، ومن ناحية أخرى – وهذا هام للغاية – فإن الفترة التى ستتاح له لالتقاط أنفاسه سوف تتيح له أن يضع الساحل الجنوبى لبريطانيا والعاصمة البريطانية نفسها تحت رحمة صواريخه الموجهة من طرازى ف – ١ ، ف – ٢ التى يتوقع أن تقلب الموقف لمصلحته تماماً ؛ فقد طلب – فى ثورة غضبه – أن تدك بريطانيا بخمسين ألفاً من هذه الصواريخ بواقع خمسة آلاف كل شهر ! حتى إذا تحقق من هذا التهديد عشرة فى المائة فقط فإنه سوف يحول على أقل تقدير دون حشد أى قوات أو أى سفن فى الموانى البريطانية المطلة على بحر المانش .

ولم يكن آيزنهاور مخطئاً فى كل هذه التقديرات ، ولذلك فإنه سجل فى مذكراته العبارة التالية : « إن إنزال قواتنا على الساحل الفرنسى سوف يكون صعباً للغاية ، وربما سيكون مستحيلاً لو تمكن الألمان من إطلاق صواريخهم فى وقت مبكر » .

وما كاد قرار الجنرال آيزنهاور يصل إلى القيادة المشتركة حتى رأى نفسه عرضة لمئات من الطلبات التى تقدمت بها مجموعة من الضباط ، يعطى كل منهم نفسه الحق فى أن يكون على ظهر واحدة من السفن التى ستحمل القوات إلى الشاطئ الآخر.

وقد حول القائد الأعلى لقوات الغزو كل هؤلاء الضباط إلى الأعمال التى كان من واجبهم القيام بها ، غير أنه وجد صعوبة فى مقاومة إلحاح ونستون تشرتشل على أن يكون على ظهر أول هذه السفن ، وقد عاد كما كان فى صدر شبابه مقاتلاً جريئاً لا يعرف النظام .

والواقع أن فكرة أن يعود إلى الوراء بعمره خمسة وأربعين عاماً ، فيشعر ولو ليوم واحد أنه ذلك المراسل الحربى المغامر الذى كانه فى يوم من الأيام فى حرب البوير بدلا من أن يظل فى مكتبه يقطعه جيئة وذهاباً ، طوال يوم ٦ من يونية انتظاراً لورود الأنباء من الساحل الفرنسى – هذه الفكرة كانت تشعل هذا الأسد العجوز حماساً .

وبذل آيزنهاور كل جهد لإقناعه بأن من الأجدى أن يكون خلال مثل هذه اللحظات فى موقعه على رأس الدولة ، إلا أن تشرتشل لم يقبل الاستماع إلى أى اعتراض ، وقال لآيزنهاور : « إن كونك قائداً أعلى لقوات الغزو لا يعطيك أى حق على البحرية الملكية ، ولن يمنعنى شىء من القيام بعملى ، وأنا على ظهر واحدة من سفن صاحب الجلالة التى ستشترك فى الغزو ! » .

ولم يمنع تشرتشل من تنفيذ ذلك إلا تدخل الملك جورج السادس الذى استطاع التغلب على عناد رئيس وزرائه بقوله : « إذا أنت صعدت على ظهر أى سفينة فسوف أضع نفسى فى مقدمة جيشى ، فإن هذا من حق ، بل من واجبى ! » .

وعند ذلك فقط تراجع تشرشل عن طلبه .

* * *

لقد كانت خطة (أوفرلورد) تقضى بإنزال قوات المظلات البريطانية والأمريكية على الجناحين الغربي والشرقى من منطقة الغزو ، قبل أن يبدأ الهجوم على السواحل .

فقد كان المنتظر أن يقفز ثلاثة عشر ألف جندى أمريكى فى صميم الليل ، فيهبطوا بمظلاتهم على الشاطئ الشرقى فى (كوتنتان) فيما حول مدينة سانت مير إنجليز الهادئة فى الوقت الذى تلقى فيه الطائرات بالجنود الإنجليز شرق (كاين) فى قطاع ديف ، مع الأخذ فى الاعتبار الفارق الزمنى للمد .

ولم يتوقف مارشال الجو لى مالورى قط عن تقديم التحفظات الملحة فيما يتعلق باختيار القطاع الذى خصص للأمريكيين متذرعاً بأن الدفاع الجوى الألمانى كثيف فى هذه المنطقة ، وأن طبيعة الأرض فيها تعرض الجنود لأقسى الاشتباكات .

وقد عاود هجومه يوم ٣٠ من مايو ، فذهب إلى حد التأكيد بأن العملية سوف تتحول إلى مذبحة ، وقال لآيزنهاور : « إن القوات التى ستهبط بالمظلات سوف تفقد سبعين فى المائة خلال عملية الهبوط ، وخمسين فى المائة من الباقى قبل أن تضع أقدامها على الأرض . وعلى ذلك فإن الفرقتين الأمريكيتين ستتعرضان بذلك لمحنة أكبر ؛ مما يجعلها غير قادرتين على تقديم أى عون للهجوم العام » .

وبكل إخلاص وكياسة – وهما الطابعان اللذان تحلى بهما آيزنهاور – طلب من مارشال الجو أن يقدم ملاحظاته مكتوبة ؛ حتى يخلى نفسه من أى مسئولية

إذا سارت الأحداث بالصورة التى يتوقعها ، وبعد أن أصبح وحده وذلك التقرير فى يده راح يفكر طويلاً فى المشكلة .

فلو أن مخاوف لى مالورى كانت قائمة على أساس فإن الكارثة التى يتوقعها سوف تؤدى بطبيعتها إلى الانهيار الكامل لعملية أوفرلورد ، على حين أن الموت غير المجدى لأعداد هائلة من الشباب الأمريكيين سوف يثقل على ضميره طوال العمر .

ولكن عملية (أوفرلورد) عمل متكامل محكم . مثله مثل الألغاز التى لاتحل إلا بضبط جميع أجزائها . فهى إذن لايمكن التغيير فيها فيما عدا ذلك التأجيل لفترة قد تطول .

وراح آيزنهاور يزن بكل دقة – ماالهذا الوضع وماعليه . ثم قرر فى النهاية الإبقاء على العملية كما كان مقرراً لها بكل تفاصيلها .

* * *

وفى ذلك اليوم نفسه الخامس من يونية ١٩٤٤ – قام آيزنهاور بزيارة بعد الظهر للجنرال ماكسويل تايلور قائد الفرقة ١٠١ الأمريكية المحمولة جوًّا . والمرابطة فى معسكر خاص للتدريب فى (نيوبرى) فى إقليم بركشاير على بعد عشرين فرسخاً من ميناء بورتسموث .

وقد وقع الاختيار على هذا الموقع لوجوه الشبه بين أرضه والأرض التى سيواجهها جنود المظلات . سواء فى (كونتنان) أو فيما حولها عند مصب نهر (أورن) .

وكان المعسكر الذى أغلقت كل مداخله بإحكام . ووضعت تحت رقابة صارمة يغطى مساحة واسعة مما جعله يضم فى داخله وبين أسواره المحاطة بالأسلاك الشائكة عدداً غير صغير من المساكن التى كان أصحابها مضطرين

سواء رضوا أو لم يرضوا لقبول القيود التى فرضها عليهم هذا الجار الذى يرتدى الزى العسكرى .

وقد كان لابد لهذا الغرض – من الحصول على تصريح من الحكومة يُناقِض التقاليد البريطانية العتيدة ، يتيح لهذه القوات أن تقيم العوائق التى كان على المظليين أن يتدربوا على اجتيازها الأمر الذى ترتب عليه قلب عدة هكتارات من الأرض ظهراً لبطن كانت فى الأصل حدائق تلقى كل عناية !

وتنهد أحد أصحاب هذه الحدائق معتذراً أمام زائر له وقال : « آه ! لو أنك جئت قبل خمسة عشر يوما ، عندما لم تكن هذه الإجراءات قد فرضت مارأيت هذه الأرض هكذا قاحلة ! » .

غير أن هذا التخريب قد أسفر عن تدريب متقدم للغاية أصبحت القوات بعده على غاية من الدقة ، بحيث عرف كل جندى على وجه التحديد ما المهمة التى سوف يقوم بها عندما يواجه الهدف الذى حدد له ؟ .

وبينما كان الجنرال آيزنهاور يقطع الطريق بسيارته متجهاً نحو (نيوبرى) ، كان يفكر فى أن كل هؤلاء الرجال لابد أن أعصابهم متوترة أشد مايكون التوتر ، غير أنه ما إن وصل حتى عاودته الثقة : فقد وجد الجنود وقد ارتدوا خوذاتهم بعناية ، ووضعت فوق كل منها شبكة يضرب لونها إلى الخضرة ، على حين طَلَوْا وجوههم بهباب الفحم المحترق . وقد استقبلوه هاتفين بحياة قائدهم العام ، ثم راحوا يتحدثون معه فى ألفة كاملة بعد أن استمعوا منه إلى آخر توصياته .

وقد عرض عليه أحدهم – وسط شعور البهجة الذى كان سائداً – أن يعينه عندما تنتهى هذه الحرب ويتتصرون فيها فى وظيفة (راعى بقر) فى مزرعته بولاية تكساس !

وفى هذه اللحظات التى كان آيزنهاور يتحدث فيها مع رجال المظلات - كان يعلم أن الجانب الأكبر من سفن الأسطول قد بدأت تحركها ، وأنه لاشىء هذه المرة سيوقف هذه الآلة العملاقة التى شرعت فى تنفيذ مهمتها .

ولم يغادر نيوبرى إلا حوالى منتصف الليل بعد أن أقلعت آخر طائرة فى طريقها إلى فرنسا . لقد بدأت المغامرة مع الحظ ، ولم يبق الآن سوى الانتظار .

وكانت هناك ورقة مطوية موضوعة فى جيب سترته خط فيها بيده بضعة أسطر قبل مغادرته مقر قيادته فى (ساوث ويك هاوس) ، وتتضمن العبارات التالية :

« لم تنجح القوات التى أنزلناها فى منطقة شربورج - الهافر فى إقامة رأس جسركاف ، فاضطررت إلى أن أصدر إلى هذه القوات أمراً بالعودة إلى السفن .

« إن قرار الهجوم الذى أصدرته على هذه النقطة وفى هذا الوقت - كان قائماً على أدق المعلومات التى أتيح لى جمعها . ولقد قام الجيش والطيران والبحرية بشجاعة تدعو إلى الاحترام بالواجبات التى كانت منتظرة منها » .

« وإذا كانت هناك بعض الأخطاء التى وقعت - فإننى وحدى أتحمل كامل مسئوليتها ! » .

* * *

كان هذا هو نص البيان الذى أعده آيزنهاور ، لكى يقرأه بنفسه من الإذاعة البريطانية عندما تسوء نتائج الغزو .

غير أن ذلك لم يحدث ، فلم تخرج تلك الورقة المطوية والموضوعة فى جيبه . ولم يعثر عليها إلا فى منتصف شهر يوليو التالى ، بعد أن ثبت رأس الجسر الذى أقامه على الساحل الفرنسى ثباتاً تامًّا .

وكمجرد ذكرى - فإنه أهدى تلك العبارات إلى مساعده البحرى الجنرال هارى باتشر .

الفصل الخامس عشر

ثلاثة أبيات من شعر « فيرلين »
لا تهز أعصاب القرد العجوز..

فى الوقت الذى كان فيه الجنرال آيزنهاور يتحدث مع رجال المظلات التابعين للفرقة الأمريكية المحمولة جوًا ، والتى ترابط وتتدرب فى نيوبرى . أولئك الرجال الذين كانوا ستلقى بهم الطائرات بعد بضع ساعات على الأرض الفرنسية المحتلة — كان هناك حفل عشاء مرح يقام فى قصر (لاروش جويون) .

ذلك أن الجنرال شبيدل رئيس أركان حرب القيادة العامة لمجموعة الجيوش (ب) الألمانية — كان يستقبل على مائدته مجموعة من الضيوف الكبار ، أو ممن يقال لهم الصفوة المختارة .

وكان يعاونه فى هذه المهمة نائب الأميرال فردريش روجه . وهو القائد العام للقوات البحرية الألمانية السابق فى إيطاليا الذى وقع عليه اختيار الفيلد مارشال إروين روميل ليكون همزة الاتصال بينه وبين الأسطول .

كان ضيوف هذا الحفل — إلى جانب صهر الجنرال شبيدل وهو المراسل الحربى (فون شرام) — من بينهم القنصل العام (فايفر) الذى فاجأه فى الجزائر نزول قوات الحلفاء عام ١٩٤٢ فاعتقلوه وبعثوا به إلى الولايات المتحدة حيث ظل مسجوناً فيها ، ولم يصل منها إلا مؤخراً .

ومن بينهم كذلك الكاتب (إرنست جونجر) الذى كان قد صدر له كتاب بعنوان « عواصف من الفولاذ » ما كاد يظهر فى فرنسا ، حتى جلب له شهرة عريضة . منذ أربعة وعشرين عاماً وقصة حياة إرنست جونجر أنه فر من منزل

والديه وهو فى السابعة عشرة من عمره ، ودفعه حب المغامرة إلى الالتحاق بالفرقة الأجنبية ، ثم حارب ببسالة فى خلال الحرب العالمية الأولى فى صفوف الجيش الإمبراطورى الألمانى بوصفه ضابطاً متطوعاً .

وكان فى تلك اللحظة يعقب على ماقاله (فايفر) ، ذلك المتحدث اللامع عن روسيا التى عاش فيها ردحاً من الزمن . غير أن الحديث سرعان ماتحول إلى أدولف هتلر الذى كان كل من الحاضرين فى ذلك العشاء يحاول أن يتهكم عليه فى عبارات حذرة وعلى مشروعاته العسكرية ؛ كما كانت العادة بين الألمان من ذوى المكانة العليا عندما يكونون على ثقة من أنه ليس هناك أحد من رجال الجستابو يسترق السمع إلى مايقولون .

* * *

وفى اليوم السابق الموافق ٤ من يونية ١٩٤٤ - كان الفيلد مارشال إروين روميل قد غادر مقر قيادته فى الساعة السادسة صباحاً فى طريقه إلى ألمانيا . وهو عازم على أن ينتزع من هتلر الذى طلب الاجتماع به الفرقتين الألمانيتين اللتين رأى أنه فى حاجة إليهما . فضلاً عن لواء من المدفعية المضادة للطيران . وكتيبة من إطلاق الصواريخ . لكى يكمل بها نظامه الدفاعى .

وقد انتهز روميل فرصة هذه الرحلة . فقرر الذهاب ليطل على بيته فى هرلينجن بالقرب من مدينة (أولم) حيث كان ذلك اليوم يوافق عيد ميلاد زوجته ، ورأى أن يحتفل معها بذلك .

والواقع أنه بدأ رحلته وهو مطمئن تمام الاطمئنان : فإن الكولونل فالتر شترويبى رئيس قسم الأرصاد الجوية فى الجيش الألمانى - كان متفقاً كل الاتفاق مع مساعده الماجور (ليتاو) فى التأكيد بأن العاصفة التى تهب فى هذا الوقت على بحر المانش سوف تطول ، وتظل على أشد ما تكون حتى الأسبوع التالى .

وكانت الرياح القادمة من الجنوب الغربى تصفر فى عنف ، والبحر يلطم الشاطئ بأمواج عاتية ، ومدى الرؤية أقل مايكون ، والسماء ملبدة بالسحب المنخفضة الداكنة ، وتنهمر منها أمطار لا حصر لها .

وقد تكونت فى عرض البحر دوامات عميقة ، وقال خبراء البحرية الألمانية الذين درسوا الصور التى التقطت لزوارق إنزال الجنود التى كان البريطانيون قد تركوها على الشاطئ بعد الغارة التى قاموا بها على (دييب) عام ١٩٤٢ ، قالوا : إن هذه القوارب ما إن تتعرض للأمواج العالية حتى يفقد ركابها كل سيطرة عليها ، وتتعرض فى أى لحظة للغرق .

وكان سلاح الطيران الألمانى بدوره حاسماً فى تقريره بأن من المستحيل أن تقدم الطائرات المقاتلة أى عون إذا قام الحلفاء بأى غزو من جراء هذه الأجواء السيئة . أما نائب الأميرال روجيه فقد أعلن أن سفن أسطول الحلفاء فى حاجة لمدى رؤية لايقل عن ثلاثة أميال بحرية : أى حوالى ستة كيلو مترات ؛ لكى تحسن تصويب نيرانها ، غير أن مدى الرؤية لايبلغ ثلث هذه المسافة ، وأن الأفق معتم للغاية .

* * *

وأجمعت التقديرات العلمية والفنية على أن البحر سيظل هائجاً ؛ مما يجعله غير صالح على الإطلاق لأى عمليات حربية . ولا للملاحة العادية . وقد حمل هذا الاقتناع نائب الأميرال الألمانى (هينكا) قائد جبهة الساحل فى إقليم نورماندى على أن يصدر أمراً إلى قافلة من السفن كانت تتأهب لكى تبحر فى طريقها إلى ميناء (برست) – بأن تبقى فى مأمن فى شربورج ؛ حتى لا تتعرض لأخطار العاصفة .

أما القيادة العامة للجيش الألمانى فإنها من جانبها كانت تفترض أنه يتعين من

حيث المبدأ – لكى تكون هناك بعض فرص النجاح أمام أى محاولة لإنزال قوات معادية على الساحل الفرنسى – وجود مد مرتفع ، وهو شرط أساسى لن يتحقق قطعاً إلا خلال النهار ، أو فى الليل ، وذلك فى الأيام القادمة :

ففى الحالة الأولى فإن القوات المهاجمة ستكون عرضة لنيران الدفاعات الساحلية ، قبل أن يكون فى استطاعتها الاقتراب من الساحل . وفى الحالة الأخرى . فسيكون عليها أن تتخلى عن مساندة الطائرات المقاتلة ، على حين أن هذه المساندة لاغنى لها عنها !

وهكذا فإن الجانب الألمانى كان واثقاً تماماً بأن الحلفاء لايمكن أن يجازفوا بالإقدام على أى محاولة للغزو فى هذه الظروف الجوية السيئة ، وفى هذا اليوم الخامس من يونية ١٩٤٤ كان المرح يسود القيادة العامة لمجموعة الجيوش (ب) ، على حين أن الجنرال شبيدل ماض فى الترحيب بضيوفه على مائدة العشاء ، والحديث مستمر بينهم .

ولم يعكر صفو هذا الاجتماع إلا نبأ صغير يتعلق بالمجموعة الثانية من سفن بث الألغام : فقد تعرضت هذه المجموعة من السفن طوال الليلة الماضية لهجوم جوى رهيب شنته عليها طائرات الحلفاء ، فأغرقتها جميعاً ماعدا سفينة واحدة أفلتت بأعجوبة ، وتمكنت من العودة إلى الميناء .

وبرغم أن النبأ سيئ للغاية – فإن ذلك لم يؤثر فى شىء على شهية ضيوف الجنرال شبيدل الذى نهض عن المائدة ، واقترح عليهم أن يقوموا معه لنزهة فى حدائق قصر (لاروش جويون) .

لكنه عاد وعدل عن ذلك ؛ إذ كانت الأمطار الغزيرة قد تضاعف سقوطها ، والزوابع فى الخارج تكاد تقتلع مافى الحدائق من أشجار . .

* * *

وعلى بعد حوالى مائتى كيلو متر من ذلك المكان — كان أحد رجال مركز الاستماع اللاسلكى التابع للقيادة العامة للجيش الخامس عشر الألمانى الذى يرابط فى (توركوان) يخلع بسرعة الخوذة التى يضعها على رأسه ، ثم راح يركض لكى يبلغ رئيسه الكولونل ماير نص « الرسالة الشخصية » التى التقطها فى هذه اللحظة على حين كانت تذاع باللغة الفرنسية من محطة الإذاعة البريطانية .

كانت العادة قد جرت بالنسبة لهذا النوع من الرسائل التى كانت سلطات الاحتلال الألمانى تعلم منذ زمن طويل أنها تتعلق بأعمال المقاومة السرية ابتداء من هبوط طائرات من طراز (ليساندر) الخفيفة خلسة فى أماكن معينة من الأراضى الفرنسية إلى أوامر خاصة تصدر إلى رجال العصابات مروراً بعمليات إلقاء الأسلحة والذخائر بالمظلات ، وبالقيام بأعمال النسف والتخريب ، والتحذير من أخطار يمكن التعرض لها — كانت العادة قد جرت على أن هذه الرسائل تتكون من عبارات غريبة التركيب غامضة المعانى ؛ إلا على الذين يتلقونها ، فيحلون رموزها بمفاتيح خاصة .

غير أن الرسالة التى حملها ذلك الجندى مساء يوم ٥ من يونية ١٩٤٤ إلى رئيسه الكولونل ماير كان لها وقع شاعرى غير معتاد : فى إلقاء عذب النبرات راح المتحدث فى الإذاعة البريطانية يتلو أبياتاً ناقصة من الشعر . وهو يفصل مقاطعها تفصيلاً بطيئاً . وكان مطلع هذه الأبيات يقول : « اجرحوا قلبى بعذاب رتيب ! » .

وكانت هذه الأبيات التى أخذت من قصيدة للشاعر (فيرلين) تكمل أبياتاً أخرى أذيعت قبل ذلك . وتكررت ثلاث مرات فى أيام الأول والثانى والثالث من شهر يونية الجارى . وكان مطلعها يقول : « وتداعى أنين الخريف الحزين فى مسامعى . . ! »

وعلى الفور بعث الكولونل بمذكرة (سرية للغاية) ضمنها مجموع هذه الأبيات ، وقدمها إلى إدارة مكافحة الجاسوسية الألمانية التى وضعتها تحت دراسة مكثفة انتهت إلى أن الأبيات الثلاثة الأولى تحمل تبليغاً إلى المقاومة الفرنسية ، يقول إن هبوط قوات الحلفاء على الشاطئ الفرنسى سيتم خلال ساعات ، ويدعوها إلى أن تكون على أهبة الاستعداد !

أما الأبيات الثلاثة الأخرى فكانت تقول : إن الغزو سيصبح أمراً واقعاً فى الأربع والعشرين ساعة القادمة . وإن على رجال المقاومة بمجرد استماعهم إلى هذا النداء أن يسارعوا دون إبطاء إلى العمل وفقاً للخطة الموضوعة .

وكانت كلمة « العمل » هذه تعنى تنفيذ الخطط التى أعدتها شبكة مقاومة الاحتلال الألمانى التى يرأسها الكولونل (باسى) بالتعاون مع منظمة بريطانية تدعى « العمليات التنفيذية الخاصة » التى كان رئيس الوزراء ونستون تشرتشل ينتظر منها أن تجعل أوربا تشتعل فيها النار !

وتفاصيل هذه الأعمال تضمنتها عدة مشروعات ، منها الخطة الخضراء ، والخطة البنفسجية ، والخطة الزرقاء ، والخطة القرمزية ؛ وكلها تتعلق بالإخلال بنظام السكك الحديدية الفرنسية عن طريق القيام بخمسمائة وسبعين عملية تخريبية تتم فى وقت واحد فى نقط محددة .

هذا فضلاً عن تعطيل خطوط الاتصالات التليفونية ، وقطع كابلاتها التى فى باطن الأرض على مسافات متباعدة ، ووقف نظام توزيع الطاقة الكهربية وتعطيل أعمال إرسال النجدات والتعزيزات الألمانية فى اتجاه رأس الجسر الذى سوف تقيمه قوات الحلفاء . والذى لم يكن موقعه الجغرافى قد تحدد بعد .

* * *

وتطلع الكولونل ماير رئيس مركز الاستماع اللاسلكى التابع للجيش الخامس

عشر الألمانى إلى ساعته ، فوجد أنها تجاوزت الحادية والربع مساء ، فقصد مباشرة ليخطر بما لديه من معلومات الجنرال فون سالموث قائد الجيش الخامس عشر ، فوجده منهمكاً فى لعب الورق مع ثلاثة من ضباطه .

وبعد أن استمع فون سالموث إلى ماقاله الكولونل أمره فى اختصار بإعلان « حالة طوارئ » ، وهى إجراء لاجدوى منه ، إذ إن القوات التابعة للجيش الخامس عشر كانت منذ أسابيع كثيرة فى حالة تأهب لدخول المعركة ، تنفيذاً للأوامر التى أصدرها الجنرال المارشال فون رونشتت الذى كان لايزال مصمماً على اقتناعه الذى أكده أكثر من مرة ، والذى يقول : إنه مع افتراض قيام الحلفاء بمحاولة لإنزال قواتهم على الشواطئ الفرنسية - فإن هذه المحاولة لايمكن أن تقع إلا فى المكان الذى حدده هو ، أى عند خليج نهر السوم . والواقع أن جميع المعلومات التى جمعتها الإدارات التابعة له ، وكذلك التى حصل عليها من القيادات العامة للجيش والبحرية والطيران - كانت تدل على أن الأعمال الأخيرة التى قام بها الحلفاء إنما تؤكد كل التأكيد صحة ماذهب إليه . أما الافتراضات الأخرى ، وبصفة خاصة مايقول به المارشال الشاب إروين روميل - فما هى إلا من قبيل عمليات التضليل والخداع ، ولا تجوز إلا على البلهاء ! .

ويروى أن الجنرال فون سالموث الذى كان يؤمن بدوره بوجهات نظر المارشال العجوز قد استأنف جولة لعب الورق بعد أن توقفت لحظات لسماع ما قاله الكولونل ماير . ثم التفت إلى زملائه فى اللعب وقال ضاحكاً : « إننى فى هذه المهنة قرد عجوز لا يسهل خداعى . ولا يمكن مثل هذه الألاعيب أن توقعنى فى الشرك ! » .

وفى هذا الوقت نفسه عاد الكولونل ماير إلى مركزه . وما لبث أن أبلغ أن

« الرسالة الشخصية » التى سبق تسجيلها نفسها فى الساعة ٢١,١٥ - قد عادت الإذاعة البريطانية وكررتها فى الساعة ٢١,٢٠ . وقد استمع هو بنفسه إليها مرة ثالثة ، والمذيع يتلوها فى الساعة ٢٢,٠٠ ، ثم مرة رابعة فى الساعة ٢٢,١٥ ، وهو ما وجد فيه أمراً استثنائيًّا تماماً !

وقد استنتج من ذلك أن ذلك يتعلق بتبليغ على جانب كبير من الأهمية على الرغم من أن مخابرات الجيش الألمانى لم تحطه علماً بسر هذه الرسالة التى يتحدث فيها شاعر عن عذاب رتيب جرح قلبه من جراء تداعى أنغام رددها الخريف فى مسامعه مع أن هذا الشاعر قد مات منذ زمن طويل !

لكن المقطوع به أنه كان سيصاب حتماً بالذهول لو أنهم أخبروه أن هذه الأبيات الستة سوف تحدث كل هذه ا الانقلاب !

* * *

كانت إدارات الدعاية والإعلام الألمانية قد عمدت منذ بداية احتلال بلجيكا إلى وضع أيديها على صحيفة (لوسوار) اليومية الكبرى التى تصدر فى بروكسل ، وفى نيتها أن تجعل منها بفضل تعاون الصحفيين الذين دفعت لهم مرتبات ضخمة على أمل أن يصبحوا مأجورين لها - الأداة الرئيسية لاستمالة الرأى العام البلجيكى والجماهير التى تقرؤها ، وجعلها تتعاطف هى وألمانيا النازية .

وقد ظلت هذه الإدارات تعتقد ذلك إلى أن كان يوم ٩ من نوفمبر ١٩٤٣ ، وفيه استطاع فريق من كتاب هذه الصحيفة متعاونين مع رجال المقاومة فى العاصمة البلجيكية أن يحرروا ويطبعوا ويوزعوا نسخة زائفة من صحيفة (لوسوار) على غرار الصحيفة الأصلية .

وكانت النسخة الزائفة تحمل عناوين اختيرت ببراعة شديدة تحمل كل من

يراها على أن يقرأ فوراً المقالات التى تحتها ؛ وكانت هذه المقالات تتضمن سخرية شديدة بالاحتلال الألمانى ، وتندد بالأعمال التى يرتكبها ، وتبشر بأن يوم التحرير من ربقته أصبح قريباً !

وقد أحدثت هذه الضربة موجة من الضحك انتشرت فى طول البلاد وعرضها ، ورروحت بعض الشيء عن الشعب البلجيكى الذى قضى أعواماً طويلة وهو يعيش فى ذل واكتئاب . غير أن هذه الضحكات قد كلفت الذين قاموا بالخدعة . وخاصة الصحفيين منهم ثمناً غالياً فقد تمكن رجال الجستابو من التعرف عليهم واعتقالهم . ورحلوا إلى ألمانيا ، حيث ألقى بهم فى معسكرات الاعتقال . مات فيها اثنان من بينهم .

وكان هذا التصرف من جانب سلطات الاحتلال يعنى أن الضربة كانت عنيفة بقدر ماهى بارعة .

* * *

ومن بين المقالات التى تضمنها العدد الزائف من صحيفة (لوسوار) ، مقال حمل توقيع « جان دى لالون » . وصف فيه بعبارة مؤثرة . مجىء الخريف الرابع على الاحتلال . فيقول « أيها الخريف الذى أصبحت عجوزاً منحنى الظهر لما تحمل من أنين طويل كذلك الذى ينبعث من غياهب السجون – ترى ما الذى يجعلك تقهقه فجأة وأنت تتطلع إلى شخصى الضعيف الهزيل ؟ فهل حقاً إذن – أن تمتد فى الغد القريب قدم . فتركلنى ركلة تخرجنى من هذا العذاب ؟ » .

وقد تلقت لندن نسخة من هذا العدد . وراحوا يقرءونها ويعلقون عليها ، وتوقفوا طويلاً عند مقال (جان دى لالون) ، وأدركوا معنى القدم التى تركل لتخلص بلجيكا من العذاب !

على أن الشعب البلجيكى ظل ينتظر هذه « الركلة » إلى يوم ٦ من يونية ١٩٤٤ ، ولا يدرى أحد : هل كان تلميح هذا الصحفى إلى (أنين الخريف الطويل) – هو الذى جعل الحلفاء يختارون أبيات الشعر التى تتحدث عن المعنى نفسه . ويجعلون منها تلك الرسالة الشخصية التى وجهوها إلى رجال ومنظمات المقاومة الفرنسية يخطرونهم فيها بقرب يوم التحرير.

وإلى جانب القيادة الغربية الألمانية التى مقرها فى سان جرمان أبلغ الكولونل ماير هذه الرسالة القيادة العامة لمجموعة الجيوش (ب) . وكذلك « جحر الذئب » فى راستنبورج . فهل تلقاها الجنرال شبيدل وقرأ محتوياتها قبل أن يخلد إلى النوم !

إن الرد على هذا السؤال هو النفى . لأنه مامن شىء عكر صفو هدوء الليل فى قصر (لاروش فوكو) . والمقطوع به أن نائب الأميرال (هينكا) قائد جبهة نورماندى البحرية لم يعلم شيئاً عنها إلا إذا كان مثله مثل شبيدل لم يفكر إلا بالطريقة التى فكر بها أحد الضباط فى القيادة العليا الألمانية عندما قرأ محتويات رسالة ماير . إذ راح يضحك ملء شدقيه قائلاً : « لا أظن أنك تعتقد أن آيزنهاور من الجنون . بحيث يبلغنا عن طريق الإذاعة البريطانية أنه يستعد لمهاجمتنا ! » .

* * *

ولم يكن لهذا النبأ أى تأثير على الجنرال دولمان فى قيادته العامة للجيش السابع المرابط فى رين . ذلك أنه – مثله كمثل رئيسه الفيلد مارشال روميل – كان مقتنعاً تمام الاقتناع بأن سوء الأحوال الجوية سوف يحول دون القيام من جانب العدو لإنزال قواته فى المنطقة التى وضعت تحت إشرافه . والتى تشمل إقليمى بريتانى ونورماندى السفلى داخل خط يبدأ من تحت مصب نهر اللوار

بقليل ، ويمتد حتى مصب نهر ديف إلى الشرق بعض الشيء من كاين .

وعلى ذلك فإن الجنرال دولمان اكتفى بمبدأ عقد مؤتمر يتعين أن يحضره فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٦ من يونية ١٩٤٤ فى رين - الضباط الكبار العاملون تحت قيادته ، ومعهم رؤساء أركان حربهم .

غير أنه بوصفه رجلاً يأخذ بجانب الحذر - كان قد أوصى الذين سيحضرون المؤتمر بألا يغادروا مواقعهم قبل فجر يوم ٦ من يونية ، حتى يمكنهم تجنب أى احتمال ،لكن عمليات القصف التى كانت تقوم بها قاذفات القنابل المعادية كانت قد جعلت طرق المواصلات فى حالة يرثى لها ؛ مما حمل أغلب هؤلاء الضباط الكبار الذين كانوا حريصين من ناحية أخرى على الاستفادة من الحماية التى يوفرها ظلام الليل من غارات الطائرات القاذفة المقاتلة التى يقوم بها البريطانيون والأمريكيون ينتهكون تلك التوصية التى لم يأخذوها على أنها فى صيغة الأمر الواجب التنفيذ .

وهكذا لم يكن أحد من هؤلاء القادة الكبار فى موقعه فى الوقت الذى طلب منهم الجنرال دولمان القائد العام ألا يغادروه قبله ! رجل واحد فقط هو الجنرال إيريس ماركس الذى يتولى قيادة الفيلق الرابع والثمانين المرابط فى (سان لو) لم يبارح مركزه .

والواقع أن هذا الجندى الصلب الذى كان متقشفاً عن أى متعة من متع الحياة وانصرف تماماً إلى الحرب . والذى ضحى تضحيات جسيمة فى الجبهة الشرقية قبل أن ينقل إلى الغرب - كان ملتزماً بواجبه أشد مايكون الالتزام .

على أنه كان يجهل أمراً واحداً . هو أن الضباط الصغار العاملين تحت إمرته - قد عقدوا النية سرًّا على أن يحتفلوا بعيد ميلاده عند منتصف هذه الليلة بالذات . . !

الفصل السادس عشر

ساعة الصفر تلوح فى الأفق

كان الغروب يهبط كالعادة ، على المبنى المعتم الذى تشغله الحكومة البريطانية فى « وايت هول » .

أما سكان لندن فقد كان ذلك بالنسبة لهم مساء آخر من الظلام ، وربما من الغارات ، غير أن مكاتب إدارة الحرب التى بالقرب من حديقة سان جيمس — كانت فى ذلك حافلة بالنشاط ! فلقد كان تشرتشل وأركان حربه قد بدءوا يشعرون بوطأة ذلك التوتر العصبى الفظيع الذى كان قرين هذه الليلة التى تستهل على حين أن آلاف الجنود والبحارة والطيارين فى طريقهم لخوض المعركة فى مكان ما من نورماندى . .

وبدا كل شىء كأنه يسير سيراً حسناً .

ذلك أن تلك الخطة العملاقة الهائلة أخذت تجرى دون أى تعثر أو توقف ، وكان كل شىء يدل على أن الألمان يجهلون أن عملية الغزو قد بدأت .

لكن تشرتشل لم يحتمل هذا الانتظار . وقد سجل القومندان طومسون مساعده الشخصى أنه كان مقطب الجبين عابساً ، وخيل إليه أنه يصغى مرة أخرى إلى خطوات فرق من الأشباح كتلك التى وصفها (هاوسمان) . .

إنه ألفريد إدوارد هاوسمان الشاعر الإنجليزى الذى أصبح أستاذاً فى جامعة كمبريدج ، والذى صدر له قبل ذلك باثنين وعشرين عاما كتاب يحمل عنوان وداع حزين هو « آخر قصائدى » . وفى هذا الكتاب يتحدث عن الجنود الذين راحوا يتدفقون من بعيد ومن قريب فى بطء وفى سرعة على الطرق المتربة ،

أعزاء على أصدقائهم ينتظرهم التراب ، ليسيروا جميعاً نحو الموت !

وعندما جاءت مسز تشرتشل لتتمنى له ليلة طيبة إذا به يرد عليها قائلاً : « هل فكرت فى أنك فى اللحظة التى سوف تستيقظين فيها صباح الغد يكون عشرون ألفاً من رجالنا قتلى ؟ » .

لقد كان حلمه الكبير أن يكون فى هذه الليلة بالذات على ظهر سفينة حربية تمخر به بحر المانش مع الجنود فى حين أنه يقود عملية الغزو ، وكان قد وقع اختياره على السفينة (بلفاست) إلا أن الملك حال فى اللحظة الأخيرة بحزم بينه وبين ذلك . .

* * *

واتجهت الأرمادا بأكملها نحو شواطئ نورماندى السفلى متخذة لها عشرة طرق تم تحديدها ، وأزيلت الألغام منها ، بمجموعات من كاسحات الألغام كانت تتقدمها . وفى مقدمتها الكاسحة (بيلوراس) .

وكانت هذه الكاسحة قد أبحرت من (سولنت) — كما يسمون القناة التى تفصل مابين ساحل هامبشاير وجزيرة وايت — فى الساعات الأولى من يوم الاثنين ٥ من يونية بعد أن قال قائدها لطاقم البحارة الذى يعمل عليها : « إن لنا ميزة وشرف أن نكون فى مقدمة أسطول الغزو ، لكى نعبر المانش حتى نصل إلى شواطئ شربورج ! » ويروى أحد ضباطه يدعى (ويلبى) أن أحد ضباط الصف القدامى همس وراءه قائلاً : « ماذا يقول ؟ شرف أم هلع ؟ إذ إن نطق الكلمتين متقارب فى اللغة الإنجليزية .

ومضى ويلبى يقول : « لقد أبحرنا ونحن نرفع على صارى المقدمة أعلام (نلسون) . ولم يبد ذلك أمراً مختلفاً عن المرات الأخرى التى أبحرنا فيها مع مجموعة السفن . فيما عدا أننا ونحن على هذا البعد كلما تطلعنا إلى الوراء رأينا

كاسحات الألغام الأخرى منتشرة على شكل المروحة ، فكانت سفينتنا تشكل رأس سهم هائل الحجم . وقد ظل كل منا فى موقع عمله ، وفى حوالى منتصف الليل قدم لنا القائد شراباً ، فكانت تلك لفتة استقبلناها استقبالاً طيباً . ولم يكن الاضطراب بادياً على أحد من جراء التفكير فيما ينتظرنا ، وجاءنى رجل لا يعرف السباحة جيداً وقال لى : « إنك سوف تنتبه إلىّ عندما نسقط فى الماء ، أليس كذلك ؟ . . فلقد كان الجميع يعتقدون أننا سنغرق ! » .

وواجهت القوارب الثقيلة المخصصة لإنزال الجنود صعوبة كبيرة وهى تعبر بحر المانش ، وقد جاء فى تقرير بريطانى رسمى : أن قوارب نقل الدبابات من طراز (ا) كانت تمضى فى طريقها بسرعة خمس عقدات فى الساعة ، فى حين أن القوارب من طراز (د) ألزمت عدم السير بما يزيد على ٤,٧٥ من العقدة وذلك خلال جانب كبير من الطريق . فنتج عن هذا الفارق ماجعل الإبحار فى غاية الصعوبة ! وهذا ما أكده الملازم ستانلى بودل الذى كان على ظهر قارب أمريكى .

ويقول هذا الضابط : « لقد وضعوا قواربنا ضمن أحد الطوابير الداخلية ، وأمضينا وقتنا ونحن نحاول الاحتفاظ بهذا الموقع . إلا أن قارباً بريطانيًّا أخذ يسير بضعف سرعة القوارب الأمريكية . فكاد يصطدم هو وقواربنا ويقفز فوقنا . ولكى نتجنب هذا الصدام انحرفنا ناحية اليمين . ثم إلى الأمام . فدخلنا ضمن طابور آخر ، وكانت المسافة التى تفصل بين القارب والآخر لا تتعدى متراً ونصف المتر ؛ مما جعل القوارب تلتحم ثم تنفصل بعضها عن بعض . فكان من المستحيل على أحد أن يغمض له جفن طوال الليل ! » .

ويؤكد القومندان سميث الذى كان يقف على جسر سفينته لنقل الجنود بدوره : إنه لم يشعر بأى رغبة فى النوم . وقال : « فلو حاول أحد ذلك

ما استطاع فى سفينتى ؛ فقد كانت ممتلئة لآخرها بالجنود الكنديين الفرنسيين من فرقة حملة البنادق الذين أمضوا الليل وهم يشحذون حراب بنادقهم . . والواقع أنه ما من أحد كان يريد أن تفوته لحظة من أحداث هذه الليلة التى انتظرها الجميع بفارغ صبر فى تدريب شاق ، بعد أن أصبح كل مايتخيلونه عن خوض المعركة يجرى تدريجاً أمام عيونهم . ولقد كان التوتر كبيراً ، إذ إن كل واحد أخذ يحاول ألا يشعر الآخر بما فى أعماق قلبه من خوف ، فكانت النتيجة أن هذا الخوف لم يظهر على أحد . . غير أن الحقيقة التى لاتنكر هى أن الجميع كانوا يشعرون برعدة رهيبة تجتاح كيانهم ، ولو أن هذا الشعور قد خف بعض الشىء فى ساعة متأخرة من الليل عندما أخذت الطائرات موجة وراء الأخرى تمر فوقنا فى طريقها إلى الساحل الفرنسى » .

* * *

كان الجنرال ماثيو ريدجواى قائد الفرقة الأمريكية الثانية والثمانين المحمولة جوًّا يطير مع رجاله فى طريقهم إلى منطقة الإسقاط بالمظلات .

وقد وصف هذه اللحظات فى المذكرات التى سجلها ، فقال : « وأخذت السماء تزداد عتمة ناحية الشرق ، وفوق بحر المانش على حين كنا نقلع من أرض المطار ، فلما هبط الليل لمحنا من تحتنا وميض نيران المدافع المضادة للطائرات ، وقد بدأ العدو يطلقها علينا من الجزر التى يحتلها . وقد أخذنا نتطلع إلى هذه النيران بفضول دون أدنى شعور بالخوف ، تماماً كما يفعل الطائر الذى يحلق عالياً ، ويتطلع إلى الصياد ، وهو مطمئن إلى أنه بعيد عنه كل البعد فلن يصيبه أبداً !

« وفى الطائرة كان الرجال فى منتهى الهدوء . فقد ذهب كل منهم مع أفكاره كل مذهب ، حتى إذا ارتدوا إلى أنفسهم راحوا يتمازحون ، أو يضجون بالضحك .

« وعندما جاء الشعور بالبرد فأضيف إلى ضغط الأعصاب والتوتر ، وتلفت الجنود فإذا بأبواب الطائرة مفتوحة ، أحدث ذلك أثراً واضحاً فينا جميعاً . فكان الواحد منا ينهض من مكانه ، ثم يتجه فى تثاقل إلى دورة المياه التى إلى الخلف ، فيكتشف أن بابها أضيق من العتاد الذى يحمله على ظهره ، فيعود ليجلس حيث كان مزمجراً ، ويصب غضبه على أولئك الذين صمموا هذه الطائرة من طراز س — ٤٧ .

« وسرعان ما بعث مراقب الطائرة « بالجرادل » ، ولكن هذه لم تحل المشكلة تماماً ؛ لأن بعض الجنود كانوا محشورين داخل ثياب القفز وما يحملون من عتاد ، فوجدوا صعوبة أكبر فى إخراج عضو معين من أجسادهم ، كما أن الأنظار التى كانت مركزة عليهم زادت فى حرجهم ، فلم يتمكنوا من قضاء حاجتهم » .

* * *

وكانت تأتى بين الوقت والآخر — إشارات موجزة تقول : « مخابرات العدو بغير تغيير » . وهذه العبارة المكررة هى (الوحيدة) التى أخذت تتلقاها القيادة المشتركة خلال المرحلة الأولى من الغزو ، أما أسطول الهجوم فقد لزم الصمت .

وفيما بعد قال الكابتن كوراج الذى كان يراقب الإشارات فى مقر القيادة فى (ساوث ويك) : « لقد ارتفع التوتر عندما جاء الوقت الذى كان من المحتم أن تلتقى فيه دورية من غواصات العدو فى شربورج وأسطول الغزو فى وسط بحر المانش إلا أنه على عكس ماتوقعنا فإن هذه الدورية لم تجئ » .

ولم يكن فى مقدور الكابتن كوراج أن يعرف أنه نظراً لحالة البحر فإن نائب الأميرال الألمانى (كرانكى) قائد ميناء شربورج قد أمر بإلغاء الدورة الليلية التى تقوم بها الغواصات كل يوم : ذلك أن العاصفة التى كانت تهب على بحر المانش

أتاحت الفرصة للقوات الألمانية المنوط بها الدفاع عن الساحل لكى يسترخوا قليلاً ، فاعتبروا يوم الاثنين ٥ من يونية ١٩٤٤ يوم عطلة ، بالنسبة للقوات المرابطة بالذات فى قلب المنطقة التى اختيرت لنزول قوات الغزو ، إذ فى الواقع من ذا الذى كان يمكن أن يقوم فى هذه الأحوال الجوية السيئة للغاية بمغامرة لإنزال قوات على هذه الصخور ؟

وهكذا : بينما كانت أرمادا الحلفاء تغالب الأمواج ، وتشق طريقها فى اتجاه الشاطئ – كانت هيئة الأركان الألمانية التى جعلت لها مستقرًّا مريحاً فى قصر فيليب دى بورجوان فى (تراسى سور مير) تسمح لنفسها بإقامة حفل استقبال .

والواقع أن هذا الحفل الذى أقيم عشية يوم الهجوم كان يحضره عدد كبير من الضباط والمدنيين من أهل هذه المدينة . وعندما نهضوا من مائدة العشاء بعد منتصف الليل بقليل إذا بصفارات الإنذار تدوى فى الفضاء . وتدافع الضباط خارجين إلى الحديقة التى تحيط بالقصر ، ليلجئوا إلى المخابئ ، وبعد ذلك بدأ قصف بالغ العنف بدا كأنه لم يقصد هذه المدينة بالذات ، وإنما عم المنطقة بأسرها .

وقد برزت الموجات الأولى من الطائرات وهى تحلق على ارتفاع شاهق فى السماء ، ولكنها أخذت تهبط مع مضى الوقت ، فتزيد بذلك من كثافة القنابل التى تقذفها .

وفى مقر القيادة المشتركة – كان الجنرال آيزنهاور ، والأميرال رامزى ، وجميع القادة الكبار – يأتون بين الحين والآخر ليلقوا نظرة على (اللوحة) التى يظهر عليها تقدم أسطول الغزو دقيقة بدقيقة ، دون أن يتبادلوا كلمة واحدة تنم عما يعتمل فى نفوسهم .

غير أنه كان واضحاً تماماً أن الجميع كانوا يمسكون أنفاسهم ، وعيونهم

مثبتة على هذه (اللوحة) ليعرفوا : هل الغواصات الألمانية قد خرجت من قواعدها فى ميناء شربورج ؟

* * *

وفى هذه الساعة نفسها وكانت الحادية عشرة والدقيقة العاشرة مساء - دقت المبرقات فى القيادة المشتركة . وسجلت رسالة شفرية آتية من قيادة ميناء نيوهافن ، تقول : « العملية جليمر - أبحرت من ميناء الدفاع الوحدات أرقام ١٣٩٠ ، ١٠٦٠ ، ١٢٧٩ ، ١٤١٠ ، ١٤١٣ ، ١٣٧٩ ، ١٠٧١ . ١٣١٠ . ١٤١٤ . ١٤٢٠ . ١٠٤٩ . ١٠٥٨ والزورق ١٢٤٩ » .

وفى قاعة عمليات القيادة المشتركة راحت مجموعة المجندات ينقلن فى سرعة البطاقات التى تحمل فك محتويات الرسالة . وعلى عكس الأسطولين البحرى والجوى الهائلين اللذين كانا فى الطريق إلى شواطئ نورماندى السفلى - فإن هذه الأرمادا الثانية لم تكن تشمل فى الحقيقة سوى اثنى عشر زورقاً للطوربيد ، وسربين من قاذفات القنابل الثقيلة ، أحدهما تابع لسلاح الجو الملكى والآخر للسلاح الجوى الأمريكى ، ومهمة هذه المجموعة تضليل الدفاعات المعادية ، بجعلها تعتقد وقوع هجوم كبير على (بولونى) ورأس (أنتيفييه) بالقرب من دييب : أى قريباً من المكان الذى قامت إدارة العمليات المشتركة يوم ٢٧ من فبراير ١٩٤٢ بأول غارة عليه من الساحل الفرنسى .

كانت هذه الزوارق مزودة بمعدات خاصة من شأنها تضليل أجهزة الرادار الألمانية ، ومن بينها مايشبه أوراق الشجر ، ولكنها مصنوعة من الألومنيوم ، إذا اهتزت بقوة وهى معلقة أسفل الطائرات تبعث أزيزاً تلتقطه تلك الأجهزة . ويفسر هناك بأنه الأصوات الناتجة عن وجود أسطول جوى يحلق فى الفضاء ، وأسطول بحرى يمخر مياه البحر فى طريقها للهجوم على تلك المنطقة التى لم

يتوقف فون رونشتت عن القول بأنها هى النقطة (الوحيدة) التى لا يمكن القيام بالغزو إلا فيها .

وبينما كانت بطاريات الساحل الألمانية تفتح نيرانها التى تشبه نيران الجحيم على أسطول بحرى موهوم ، وانطلقت الغواصات فى مياه رأس كاليه بحثاً عن قوافل خيالية أقلعت الطائرات المقاتلة تطارد طائرات نقل للجنود كانت موجودة فعلاً ، ولكنها تبعد عن ذلك المكان بحوالى ثلثمائة كيلومتر إلى الغرب .

أما الكلمة التى اختيرت لتكون اسماً لآخر عملية للتضليل ، فهى كلمة (جليمور) الإنجليزية ومعناها ذر الرماد فى العيون . . .

* * *

وعندما عاد آيزنهاور إلى الغرفة التى ينام فيها لم يكن هناك مايدل على أن المخابرات الألمانية قد أعلنت حالة الخطر ، ولم يكن هناك غير هذا الرجل شعر بأن ذلك النهار وذلك الليل من يوم ٥ من يونية هما أطول مامر عليه فى حياته كلها .

ويقول هارى باتشر ياوره الخاص وصديقه : إن آيزنهاور ظل جالساً لايغمض له جفن ، وهو يرقبه ، حتى صباح اليوم التالى دون أن ينبس بنبت شفة ، فلما رأى أنه مستمر فى جلسته وصمته استأذن منه لينام بعض الوقت .

فى خلال ذلك كانت طائرات نقل جنود المظلات قد بدأت تحلق فوق الشواطئ الساكنة فى نورماندى . ويروى (جاى بايام) المراسل العسكرى للإذاعة البريطانية الذى كان فى إحدى هذه الطائرات ذلك فيقول : « إن كل ما كان يظهر لك داخل الطائرة فى ذلك الضوء البرتقالى الشاحب هو الرجل الذى يقف إلى جوارك . وقطعت الطائرة بحر المانش . ثم نقل رئيس المجموعة عن الطيار ، قوله : إننا نمر فوق أرماداً ضخمة من السفن . وقد تلفظ كذلك

بكلمة المدفعية المضادة التى انتقلت من رجل إلى رجل ، فجفت لها حلوقنا جميعاً . ثم بدأت الطائرات تتراقص وتقفز ، غير أن الفكرة التى شجعتنا هى أن طائرات (لانكاستر) التى سبقتنا كان هدفها بطاريات الساحل» .

وفى اللحظة التى فتحت فيها المدفعية المضادة نيرانها على القوات المحمولة جوًّا ابتعدت عن التشكيل ثلاث مجموعات من طائرات « تيتانيك » ، لكى تلقى على ماحول مدن روين وكاين وآفرانش ألواحاً من الألومنيوم ، وتماثيل لها شكل الجنود أخذت تسقط على الأرض ؛ مما جعل العدو يوجه اهتمامه إليها على حين أن كل نقطة منها تبعد كيلو مترات كثيرة عن النقطتين اللتين تقرر أن ينزل فيهما رجال المظلات .

أما ذلك الحفل الصغير الذى أقامه ضباط الفيلق الرابع والثمانين من الجيش الألمانى تكريماً لقائدهم الجنرال إيريش ماركس فقد تم عند منتصف الليل ؛ فلقد كان رجلاً يكره كل أشكال الاحتفالات إلى حد أنه عندما فاجئوه بهذا الحفل علت وجهه علامات الدهشة ، ولم يلبث بينهم سوى دقائق قليلة لم تتح لكل منهم سوى تناول كأس واحدة من الشراب .

* * *

وعلى بعد أقل من أربعين كيلو متر إلى الشمال الغربى من (سان لو) كانت القوات الأمريكية المحمولة جوًّا تقترب من منطقة هبوطها فى كونتنان وقفزت الفرقة ١٠١ التى يقودها الجنرال مكسويل تايلور التى زارها الجنرال آيزنهاور بالأمس قرب شاطئ (أوتاه) فى السهول التى أغرقها الألمان بالماء ، ومهمتها السيطرة على مخارج الشاطئ .

ولكى يتجمع رجال الفرقة بعد هبوطهم على الأرض زود كل منهم بصفارة يصدر عنها صوت يشبه صفير الصرصار فى الليل ، غير أن دورية ألمانية اعتقلت

عدداً من الذين كانوا أول من وصل إلى الأرض ، وراحت تستخدم هذه الصفارة التى فهمت الغرض منها ، فاجتذبت جنود المظلات كما تجتذب المصيدة العصافير ، الأمر الذى عرض أكبر عملية للهبوط للفشل ، كما تنبأ مارشال الجو لى مالورى .

وكما تبددت الفرقة الثانية والثمانون قضى على الفرقة ١٠١ إلى حد أن بعض جنودها قفزوا على بعض أربعين كيلومتر من المنطقة المحددة ، التى إلى الغرب من سانت مير إجليز . وقد كان لصلابتها فقط الفضل فى أنها تمكنت من الانسحاب ، فنجت من كارثة كاملة ، غير أن هذا الفشل ضاعف من الاضطراب الذى حدث فى صفوف الألمان بعد أن فوجئوا بنزول أول موجة من رجال المظلات .

وعلى بعد حوالى مائة كيلو متر إلى الشرق كان نجاح الفرقة البريطانية السادسة على العكس تماماً من الصعاب التى لقيتها القوات الأمريكية . فقد نقلت منها كتيبة على طائرات هكلية كانت بقطرها طائرات ضخمة مهمتها احتلال الجسور المقامة على نهر أورن بما فيها الجسر الدوار الذى فوق قناة الملاحة . وهى نقط جوهرية ، لأن السيطرة عليها تحول دون الدبابات الألمانية والتدخل فى منطقة الجناح الأيسر من الشواطئ التى نزلت فيها قوات الحلفاء .

فلما كانت الساعة الثانية من صباح ٦ من يونية إذا بالسماء تمتلئ بالمظلات والطائرات الهكلية البريطانية فوق القطاع البريطانى ، مما جعل بعضها يكاد يصطدم ببعضه الآخر .

وعندما أنزلت هذه الطائرات حمولتها من الرجال فوجئوا بأن كل شىء هادئ حولهم . فأخذوا ينظمون أنفسهم على عجل ، واتصلوا لاسلكيا بالقيادة لإبلاغها أنهم سيطروا على المكان .

* * *

وتلقت قيادة الجنرال إيريس ماركس الأنباء الأولى للغزو . وكانت الساعة حينئذ الواحدة والدقيقة الحادية عشرة صباحاً .

وقد وصف أحد ضباطه هذه اللحظات فقال : « لقد دق جرس التليفون ، فتناول الجنرال السماعة وهو واقف منتصب القامة . ويده قابضة بقوة على حافة المائدة . وبدا على الفور أنه يصغى إلى أمر هام للغاية . إذ إنه أتى بإشارة من يده إلى رئيس الأركان . لكى يتناول السماعة الأخرى ، وبعد قليل قال الجنرال فى صوت بارد كالصلب : إنها رسالة من الفرع رقم ٧١٦ التابع لمخابرات الجيش يبلغ هبوط قوات مظلات معادية شرق نهر أورن . وهى تتجمع فى قطاع (بريفيل – رانفيل) واللسان الشمالى لغابة بافان . وأن إجراءات مضادة تجرى حاليًّا » .

وكان للنبأ وقع الصاعقة على الحاضرين . وارتفع صوت أحد الضباط يتساءل : « هل يكون هذا هو الغزو . والهجوم على القلعة الأوربية . أو أنها حركة يقصد منها مجرد تشجيع المقاومة الفرنسية ؟ »

والقلعة الأوربية هى التى لم تتوقف دعاية جوبلز عن القول بأنها لا يمكن المساس بها . وبينما كان الضابط الألمانى يطرح هذا السؤال كانت المقاومة الفرنسية منهمكة فى قطع أكثر الاتصالات التليفونية . وخاصة فى نورماندى الأمر الذى ضاعف من ارتباك الألمان فيما يتعلق بأبعاد هدف قوات المظلات المعادية . كما أن عملية إلقاء التماثيل فيما حول آفرانش وكاين . وزعت جهود القوات الألمانية القليلة المرابطة فى المنطقة .

وكان من شأن ذلك أن خف العبء الواقع على كاهل الجنرال ريدجواى فى مقر قيادته المؤقت الذى أقامه فى أحد الحقول . ومعه أحد عشر من ضباطه . وقد قال فيما بعد : « ومن الواضح أن الألمان كانوا يضربون حصاراً حولنا يقل فى

بعض نقاطه عن خمسمائة متر ، غير أن المعركة الشرسة التى بدءوا يخوضونها وهم بذلك الارتباك جعلتهم لا يفكرون فى القيام بهجوم ساحق علينا الذى كان من شأنه لو تم أن يطيح تماماً بدفاعاتنا الأولية » .

وقبل الساعة الثانية بقليل من صباح يوم ٦ من يونية **١٩٤٤** التقطت مراكز استماع الحلفاء رسالة لاسلكية صادرة من الجنرال إيريش .ماركس إلى القيادة العامة لمجموعة الجيوش (ب) الألمانية التى وضعت تحت إمرة الفيلد مارشال إيروين روميل الذى كان فى هذه الساعة يحتفل ببيته فى ألمانيا بعيد ميلاد زوجته .

وكان هذا الغياب عاملاً رئيسيا فى أن العملية الهائلة التى أطلق عليها اسم (أوفر لورد) والتى كانت ستحرر فرنسا وبلجيكا ولكسمبورج إلى جانب هولندا والدانمرك والنرويج ، وترتب عليها انهيار الجبهة الغربية لألمانيا الهتلرية بدأت تدخل مرحلتها الحاسمة .

القسم الثانى

الفصل السابع عشر

ثلاثة أيام مريرة .. فى تاريخ فرنسا



ثلاثة أيام مريرة .. فى تاريخ فرنسا

لا تزال فرنسا حتى اليوم - بعد مرور حوالى الأربعين عاما على الهزيمة التى نزلت بجيوشها فى بداية الحرب العالمية الثانية على أيدى القوات النازية التى تولى قيادتها أدولف هتلر - تشعر بحساسية بالغة مما وقع لها فى الأربعينيات .

ولقد بدأت تلك الأحداث خلال الأيام الأولى من شهر يونية عام ١٩٤٠ عندما تأكدت الهزيمة الفرنسية ، وتحمل عدد من الرجال تلك المسئولية المأساوية فى قبول أو رفض طلب الهدنة .

وسنحاول هنا سرد أحداث تلك الأيام بأمانة المؤرخ ، وسنجد فيها لمحة عن كبوة فرنسا ثم تحريرها :

فى اليوم الخامس من يونية ١٩٤٠ بدأت معركة (السوم) ، وهى آخر مجهود حربى بذله الجنرال الفرنسى فيجان ؛ لكى يجتث بقواتٍ تقل ثلاث مرات عن قوات الجيش الألمانى التقدم النازى .

وفى اليوم الثامن من الشهر نفسه تبين أن المعركة خاسرة ولم تكد تمر على بدايتها أربعة أيام ، وإذ احتل الألمان خلال هذه الأيام المجرى السفلى لنهر السين . ثم كلاً من (روان) و (فرنون) - فإن باريس لم تعد تبعد عنهم بأكثر من ستين كيلو متر . !

وبينما كانت القوات الألمانية المندفعة إلى الأمام تفتح جبهة جديدة على ضفاف نهر (إيزن) ، وذلك فى اليوم التاسع من يونية - كان الجنرال شارل ديجول الذى عين قبل ذلك بأربعة أيام وكيلاً لوزير الدولة لشئون الدفاع الوطنى

يقوم بهذه الصفة بأول جولة له فى لندن ، وخلالها تعرف إلى ونستون تشرتشل الذى ترك فى نفسه انطباعاً عميقاً .

كان من بين الأهداف التى يسعى إليها الجنرال الفرنسى من وراء هذه الرحلة أن يحصل على موافقة بريطانيا على نقل قواتها إلى فرنسا ، جنوب نهر (اللوار) ؛ لكى تساند آخر محاولة تقوم بها الجيوش الفرنسية فى مقاومة الغزو .

ولما كان تشرتشل لا يعتقد أن فى الإمكان القيام بأى عمليات فى فرنسا ؛ لأنه رأى أن من الأجدر فى ذلك الوقت الدفاع عن بريطانيا إزاء الغزو النازى - فإنه رفض ما جاء الجنرال ديجول فى طلبه ، واكتفى بقرار إرسال تعزيزات بسيطة إلى حلفائه الفرنسيين تمثلت فى فرقتين اثنتين قادرتين على القتال !

وإذا كان ذلك معناه أن بريطانيا لا تتخلى عن النضال فإنه كان يسجل كذلك أن الاتحاد الإستراتيجى بين الدولتين قد أصبح أمراً مشكوكاً فيه ، وأن القيادة البريطانية ترغب فى هذه الأوقات العصيبة أن تقدر هى نفسها طبيعة وحجم العون الذى يمكن أن تقدمه .

* * *

وفى اليوم التالى الموافق ١٠ من يونية ١٩٤٠ عاد الجنرال الفرنسى الشاب إلى باريس ، وحضر فى اليوم نفسه آخر اجتماع عقده مجلس وزراء الجمهورية الثالثة فى العاصمة الفرنسية .

كان قد اشترك فى الصباح فى لقاء مع بول رينو رئيس الوزراء إلى جانب الجنرالين فيجان وجورج اللذين كانا يتحملان مسئولية إدارة المعركة . وقد حضر اللقاء كذلك بول بودوان وكيل وزير الدولة لشئون المجلس الذى كان عليه أن يحرر محضراً للاجتماع .

وتلقى المجتمعون أنباء غاية فى السوء من الجنرال فيجان الذى أبلغهم أنّ القوات الألمانية المدرعة قد اجتازت نهر السين فى موقعين ، وأن القوات الفرنسية التى تدافع عن باريس تنسحب من الغرب ومن الشمال . وعند ذلك قاطع بول رينو أقوال الجنرال فيجان ، وسأله عن الوقت الذى بقى حتى يصل الألمان إلى باريس ، فأجابه قائلا : « يلزمهم أربع وعشرون ساعة إذا هم عرفوا النقط الضعيفة فى مواقعنا ! إلا أنهم سوف يستغرقون وقتاً أطول من ذلك ؛ لأنهم سوف يبدءون بمحاصرة باريس بدلاً من مهاجمتها مباشرة » .

وأخرج الجنرال بعد ذلك مذكرة كان قد أعدها فى الليلة السابقة ، وراح يتلوها على مهل : « إننى بعيد تماماً عن فقدان الأمل فى إمكان وقف تقدم العدو ، غير أن أحداث اليومين الأخيرين للمعركة تجعل من واجبى أن أحذر رئيس الوزراء من أن الانهيار النهائى لخطوطنا الدفاعية قد يحدث بين وقت وآخر ! » .

وبعد انتهاء هذا الاجتماع راح الجنرال فيجان يتحدث إلى بودوان فى مكتبه ؛ ليوضح المزيد من الأسباب التى تدعوه إلى التشاؤم فقال : « إن علينا إيقاف القتال طالما أنه لم يعد له معنى ، ربما لاستئنافه فيما بعد فى ظروف أفضل ، إذا سمحت به تطورات الأحداث . وإذا كنا قد هزمنا بغير أمل فى أن نستعيد قوانا مباشرة ، فما السبب الذى يجعلنا نستمر فى سفك الدماء ، ولماذا نسلم فرنسا بأسرها للعدو ، وفى مثل هذا التحلل الاجتماعى ، ولماذا نسلم الجيش الفرنسى كله للألمان ؟ ثم إن من المستحيل إطالة النضال ، فهل سيكون ذلك فى شمالى أفريقيا ؟ إننا لا نمتلك الوسائل اللازمة لذلك » .

* * *

فى الساعة الرابعة مساء من ذلك اليوم العاشر من يونية ١٩٤٠ — ورد إلى

باريس مزيد من الأنباء السيئة ؛ فقد اتصل فرنسوا بونسيه سفير فرنسا فى روما وقتئذ تليفونياً برئيس الوزراء ، وأبلغه أن السنيور موسولينى سوف يدخل الحرب فى منتصف تلك الليلة إلى جانب ألمانيا .

ويتحدث السفير الفرنسى (بوليت) فيما بعد عن شجاعة بول رينو ورباطة جأشه فى هذا الموقف العسير ، وذلك فى برقية بعث بها إلى روزفلت ؛ إذ يقول : « إن تصميم رئيس الوزراء وعزم الجيش الفرنسى فى جعل نهاية فرنسا نهاية نبيلة نبل ماضيها ، أمر لا وجود لأى شك حوله ، ولست أستطيع إلا أن أعرب عن إعجابى بالشجاعة التى يواجه بها الفرنسيون موقفاً من أكثر المواقف المفجعة فى تاريخهم » .

وفى ساعة مبكرة من ذلك المساء وجه بول رينو رسالة إلى الرئيس الأمريكى قال فيها : « لقد أصبح العدو اليوم على أبواب باريس تقريباً . وسنقاتل أمام باريس ، وسنقاتل وراءها ، وسننسحب إلى إحدى ولاياتنا لكى نقاتل ، حتى إذا أخرجنا منها فلسوف نذهب إلى شمالى أفريقيا لكى نتابع هذا القتال ، وإذا دعت الحاجة فسنقصد إلى ممتلكاتنا فى أمريكا للغرض نفسه ! » .

« والواقع أن جانباً من أعضاء الحكومة الفرنسية قد غادروا فعلاً باريس ؛ كما أنى أستعد للذهاب إلى الجبهة ؛ ومن واجبى أن أطلب منكم المزيد من المساعدات . . . »

كان ذلك هو آخر عمل قامت به حكومة بول رينو قبل مغادرتها للعاصمة الفرنسية . وحوالى منتصف الليل ركب رئيس الوزراء سيارة ومعه شارل ديجول ، متجهاً صوب (أورليانز) ثم (تور) ، مخترقاً طرقاً ازدحمت بجماهير الشعب التى هجرت العاصمة . وفى هذا الوقت نفسه ، قصد الجنرال فيجان إلى المقر الجديد للقيادة العامة فى (بيار) ، حيث ظل يعمل بين قصر (موجيه) ،

وبين أحد القطر الذى وقف على بعد حوالى ثمانية كيلو مترات . ولكى يصلوا إلى وجهتهم التى على بعد مائتين وخمسين كيلو متر من باريس – اضطر أعضاء الوزارة إلى ركوب السيارات طوال الليل نظراً للزحام الشديد فى هذه الطرقات .

وقد دهش (لوبران) رئيس الجمهورية وهو يرى كل هذه الأعداد من الجنود الفرنسيين الذين يتسكعون فى الطرق ، على حين كانت الحاجة ماسة إليهم فى كل مكان من الجبهة .

وكان السؤال الذى يتردد وقتئذ هو : هل يتم الدفاع عن باريس التى هجرها الجميع ، أو أنها ستعلن مدينة مفتوحة ؟ وقد ساد اضطراب شديد حول هذه النقطة التى كانت مع ذلك جوهرية ، واستمر هذا الاضطراب حتى وصل الألمان إليها ، على حين لا تتوقف عن الصدور أوامر ثم أوامر مضادة ومتعارضة ، وأخيرا قرر الجنرال فيجان أن تكون مدينة باريس مدينة مفتوحة .

* * *

وفى ليلة الثالث عشر من يونية ١٩٤٠ تخلت القوات الفرنسية عن مواقعها بقيادة الجنرال (هيرنج) شمال باريس ، وتوقفت فى الصباح جنوب المدينة . وفى المساء وصلت بعض الوحدات المعادية إلى العاصمة ناحية الشمال ، حيث وجدت النيران مشتعلة فى خزانات الوقود !

وفى اليوم الرابع عشر من يونية بعد الفجر بقليل دخلت قوات هتلر باريس بغير أن تطلق رصاصة واحدة . وهكذا ، فإن هذه المدينة التى لم يستطع الألمان قط الاستيلاء عليها خلال الحرب العالمية الأولى أصبحت بين أيديهم ! وفى ذلك الصباح كتب الجنرال الألمانى (هالدر) فى يومياته يقول : « إنه يوم عظيم فى تاريخ الجيش الألمانى ، فمنذ الساعة التاسعة صباحا بدأت القوات الألمانية تدخل باريس ! » .

وأسرع الجنرال فون بوك قائد مجموعة الجيوش (ب) الألمانية قاصداً العاصمة الفرنسية ؛ لكى يتذوق طعم هذا النصر، ثم مر على حدائق الشانزليزيه ، وتوقف ليمعن إليها فى النظر فى ابتهاج واضح . وقد سجل فى مذكراته يقول : « وأخيراً هأنذا تُقلُّنى سيارتى وأذهب إلى ميدان الأنفاليد ، وأرى قبر نابليون ، ثم أتناول فطوراً شهيا فى مطعم ريتس » .

وبينما كان ذلك يجرى ارتفع العلم الألمانى ذو الصليب المعقوف ، وأخذ يرفرف فوق برج إيفيل ، على حين استقرت الحكومة الفرنسية المتراجعة عند نهر اللوار أول مقر لها بعد انسحابها من العاصمة .

كان الجنرال فيجان قد بحث يوم ١١ من يونية فور وصوله إلى (بيار) ، الإجراءات التى يمكن اتخاذها مع كل من الجنرالات جورج ودومان وكويلتز ، فرأى أن هناك حلين مازالا محتملين :

الحل الأول يكمن فى المقاومة عند خط ماجينو وتجميع الجيوش الفرنسية غرب هذا الخط الحصين بحيث تقف فى مواقع تكون (مونميدى) مركزاً لها ، وكان معنى ذلك إنشاء مواقع قادرة على مقاومة الهجمات التى تأتى من الشمال والشرق ، ولكن مع التخلى عن الجانب الأكبر من الأراضى الفرنسية ، وتعريض الجيش الفرنسى المحاصر داخل الحصون للوقوع فى أسر القوات الألمانية الضخمة القادمة من ناحية نهر (إيزن) . متجهة إلى الشمال الشرقى .

وفى النهاية قرر فيجان التخلى عن خط ماجينو ، وأصدر أمراً بانسحاب عام يقوم به الجيش الفرنسى ، على أن يقاتل الجانب الأكبر منه وهو يتراجع لتجنب وقوعه بأكمله فى الأسر ، وتتمكن فلوله من الوصول إلى خط يبدأ من عند (كاين) إلى (جورا) ، مارة جنوب نهر اللوار . غير أنه قبل أن يضع هذا الأمر موضع التنفيذ – طلب من الجنرال جورج انتظار تعليمات جديدة .

ووصل ونستون تشرتشل بعد ظهر اليوم الحادى عشر من يونية إلى (بيار) ، ورأى على الفور – كما قال الجنرال الفرنسى الذى ذهب لاستقباله فى المطار – أن الأمور تسير فى غاية السوء ، لكن ذلك لم يكن شيئاً بالنسبة لما كان فى انتظاره بعد ساعة من وصوله عندما وجد نفسه فى قصر (موجيه) حيث التقى هو وبول رينو ، وبيتان ، وفيجان .

كان يلوح على وجه المارشال بيتان تعبير يوحى بالأسى الشديد وهو يقول : « إن جميع القوات الفرنسية مشتبكة فى القتال ، وليس تحت تصرفنا كتيبة واحدة ! لقد أنزلنا بالعدو خسائر فادحة ، وما زال رجالنا يقاتلون نهاراً ، ويمشون ليلا ، ثم يسقطون وقد غلبهم النوم عند المواقع الجديدة التى يصلون إليها . وهذا هو السبب الذى جعلنى أتحدث فى الأمر اليومى عما أسميته بربع الساعة الأخير . إننى لا أضمن بقاء خطوطنا متماسكة حتى الغد ، ولا أستطيع التدخل فى المعركة بوصفى قائداً عاماً ما دام ليس لدى أى قوات احتياط . لقد دخلنا بشىء من الاستخفاف هذه الحرب عام ١٩٣٩ دون أن يساورنا أى شك فيما عليه الجيش الألمانى من قوة ! » .

وأصغى تشرتشل فى حزن إلى هذا البيان ، ثم طلب الاجتماع والجنرال جورج الذى كان يعرفه ويقدره ، وقد أضاف هذا أنه فى خلال الأيام الخمسة عشر الأخيرة من الحرب تفككت أوصال الفرق الفرنسية الخمس والعشرين الأخيرة ، ولم تعد لديه أى قوات يمكن أن تقف فى وجه الهجوم الألمانى الجديد . وهنا تدخل الجنرال فيجان فى الحديث فقال : « إذا كان الوضع كذلك فإنه يستحيل على أن أستمر فى حالة دفاع منسق عن الأراضى الفرنسية ! » .

* * *

وبدأ بول رينو رئيس الوزراء يتكلم فى فتور ويقول : « إن المارشال من اختصاصه أن يرسم لنا صورة عن الوضع العسكرى ، ولكن المشكلة هى أن نعرف : هل علينا الاستمرار فى الحرب ؟ وهذه مسألة سياسية على الحكومة أن تقرر ما تراه فيها . »

كانت لحظة بالغة الحرج بدا فيها أن رئيس مجلس الوزراء يتصارع خلالها والمارشال . وعند ذلك قال تشرتشل : «إذا رأيتم أن من الأفضل لفرنسا فى ساعة احتضارها أن تستسلم جيوشها فيجب ألاّ تترددوا بسببنا ؛ لأننا بصرف النظر عما يمكنكم صنعه سوف نمضى فى القتال ، وسوف نمضى فيه باستمرار ! » .

وظل تشرتشل يكرر هذه العبارة طوال ذلك المساء ، ولو أنه كتب يقول : إن الحزن والأسى استوليا عليه ، وهو يفكر فى أن بريطانيا لم تستطع أن تقدم إلى فرنسا إسهاماً أكبر من القوات البرية ؛ مما يمكنها من الوقوف فى وجه الألمان ! ومع ذلك فإنه لم يوافق على تقديم أى عون إليها فى مجال الطيران . فعندما طلب منه كل من فيجان وجورج وبول رينو جعل السلاح الجوى الملكى البريطانى يبعث ببعض طائراته المقاتلة للاشتراك فى معركة فرنسا – أجاب بأنه يتعين عليه أن يحتفظ بخمس وعشرين مجموعة من هذه الطائرات لبريطانيا مهما كلفه الأمر دفاعاً عنها ، وأنه ليس هناك أى شىء فى الدنيا يمكن أن يثنيه عن عزمه هذا !

وعند ذلك قال بول رينو : « إن التاريخ سوف يقول ولا شك : إن معركة فرنسا قد خسرناها لنقص فى الطيران » . وأضاف الجنرال جورج إنه يعتقد أن من غير المرجح أن تتعرض بريطانيا حالياً لأى هجوم ، وأن تدخلاً جوياً قوياً فوق نهر المارن من شأنه أن يغير الوضع الحربى .

لكن تشرتشل لم يتزحزح عن موقفه .

وشعر بيتان وفيجان بالامتعاض من هذا الموقف البريطانى ، مما جعل المارشال يقول ردا على تشرتشل ، عندما اقترح أن يتحول الجيش الفرنسى بعد أن يفقد قدرته على تنسيق قواته إلى حرب العصابات : « معنى ذلك دمار فرنسا دماراً تاماً ! » .

* * *

وفى خلال هذا الاجتماع قدم الجنرال فيجان استقالته ، وأعلن أنه سوف يخدم تحت إمرة أى إنسان يستطيع أن يعيد الاستقرار إلى هذا الوضع ، ولكن عرضه لم يلق قبولاً .

وبعد اجتماع الحادى عشر من يونية ١٩٤٠ الذى استمر طول الليل ، وبينما كان الألمان لا يبعدون سوى مائة كيلو متر عن نهر اللوار - ذهب الوفد البريطانى لينام فى القصر الذى سادته الفوضى ، كما كتب ونستون تشرتشل بعد ذلك . وينقل إلينا المؤرخ الأمريكى (شيرر) لمحة فكاهية عما حدث يومئذ خففت بعض الشىء من التوتر الذى كان سائداً ؛ إذ يقول : « وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى - كان اثنان من الضباط الفرنسيين جالسين فى قاعة الاجتماعات يتناولان فطورهما ، وإذا بهما يريان شخصاً يلف جسده العارى فى عباءة يابانية من الحرير الأحمر الفاقع يطلب منهما فى لغة فرنسية ركيكة تثير الضحك أن يدلاه على مكان يستحم فيه ، وبعد لحظة من الحرج اكتشف الضابطان أن الرجل الذى يرتدى هذه الثياب الغريبة - لم يكن سوى رئيس وزراء صاحب الجلالة البريطانية الذى حلا له أن يأخذ حماماً فى هذه الساعات البالغة الأسى !

* * *

ثم كان اجتماع الحلفاء التالى فى صبيحة اليوم الثانى عشر من يونية اجتماعاً

قصيراً ؛ فقد جدد الفرنسيون فيه طلبهم للطائرات والقوات البريطانية من تشرتشل الذى تملص منهم بحجة أن « المسألة برمتها » سوف يتم بحثها بالكثير من « العطف » فى لندن . وقد زاد على ذلك أن طالب بألا تتخذ الحكومة الفرنسية أى قرار نهائى بغير التشاور معه أولاً ؛ ثم توجه بالحديث إلى الأميرال (دارلان) قائلاً : « لا تترك الألمان يستولون أبداً . . على الأسطول الفرنسى ! » .

ويقول بعض المؤرخين إن تشرتشل – برغم كل ما رواه عنه فيجان وبيتان وجورج ورينو خلال هذين الاجتماعين على ضفاف نهر اللوار يومى الحادى عشر والثانى عشر من يونية ١٩٤٠ – قد غادر فرنسا بغير أن يدخل فى حسابه تماماً خطورة الوضع العسكرى والسياسى لفرنسا ! ولكن الواقع هو أن هذا الوضع لم يفته على الإطلاق ، ويثبت ذلك من الحديث الذى أدلى به بعد ظهر اليوم الثانى عشر نفسه فى لندن أمام وزرائه ، حيث قال : « لقد اتضح لى أن الجنرال فيجان لا يرى أى إمكان لفرنسا فى استمرار القتال ، كما أن المارشال بيتان بدوره قد قرر بينه وبين نفسه أنه لا بد من السلام ، وليس لدى أى شك فى ذلك وفى رأيى أن المارشال بيتان يصبح فى هذه الظروف رجلاً خطيراً : فلقد كان انهزاميا دائماً ، حتى خلال الحرب العالمية الأولى . لقد انتهت الآن المقاومة الفرنسية النظامية ، وعلينا منذ الساعة تركيز جهودنا للدفاع عن هذه الجزيرة » .

وفى ذلك الوقت نفسه كان على مجلس الوزراء الفرنسى أن يعقد أول جلسة له فى (كانجى) بعد الرحيل عن باريس ، وكانت هذه ينتظر أن تكون حاسمة ، لكن عدداً كبيراً من الوزراء لم يجيئوا إلى الاجتماع فى الموعد المقرر ؛ لأن الأمر اختلط عليهم ، فلم يعرفوا : هل اللقاء سيتم فى (كانجى) أو فى (كانديه) ، وهو القصر الذى أقيم فيه الاحتفال بزواج إدوارد الثامن ملك بريطانيا السابق ، الذى أصبح يسمى دوق وندسور ؟ .

ولاشك أن هذا الاضطراب فى وصول الوزراء يفسر أنهم لم يكونوا على وفاق بعضهم مع بعض حول الوقت المحدد الذى يبدأ فيه الاجتماع . وعندما اجتمعوا أخيراً وسط فوضى لا مثيل لها كان فيجان هو الوحيد الذى ظل قائد الجيش الذى لا تقنعه الكلمات ، ويعرف أين يريد أن يصل ؟ على حين كان الوزراء يتحدثون ويكررون ما يقولونه ؛ لأنهم كانوا يرتجلون ، أما هو فقد قال بكل وضوح وجلاء الأسباب التى يرى بناء عليها طلب عقد الهدنة .

وقد أورد الأسباب العسكرية أولاًومنها : أن القوات الفرنسية أصبحت فى غاية الإرهاق ، ويسودها عدم النظام ، وفقدت القدرة على القتال . أما الكتيبتان أو الثلاث التى بقيت فلا تمتلك سوى مدفعين ، وبعد ذلك اختتم قائلاً : «إن الجيش الفرنسى ما زال يسمى جيشاً ، ولكنه يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة ! فهل تريدون له أن يلفظ هذه الأنفاس ؟ » .

وانتقل بعد ذلك يشرح الأسباب المدنية التى تدعو لطلب الهدنة ، فقال : إن وقف الأعمال الحربية وحده هو الذى يتيح الحفاظ على شىء من النظام والتماسك بين الشعب الفرنسى ، وإنه لا يمكن ترك البلاد تنغمس فى الفوضى ، ويتعين من أجل ذلك الاحتفاظ ببعض القوات للسهر على النظام العام الذى أصبح مهدداً بخطر كبير ، فإذا استمرت المعارك فسوف يضيع الجيش تماماً ، وتنتشر الفوضى ، وتكون الكارثة !

* * *

وطالب الجنرال فيجان عدة مرات بالإسراع باتخاذ قرار ، وقال : « إذا نحن لم نطلب الهدنة دون تأخير فإن الفوضى سوف تشمل الجيش ، والسكان المدنيين ، واللاجئين ! فإذا حدث ذلك فلن تكون للهدنة أى فائدة ؛ لأن الضرر يكون قد وقع » .

وساد بعد هذه الأقوال صمت ثقيل بدا فيه الأسى على الوجوه ؛ ويروى ضابط كان حاضراً الاجتماع أنه سأل الجنرال فيجان : ألم تعد هناك أية قوات احتياطية يمكن تحريكها ؟ فقال له : « إن لدى من الجنود بين من هم فى المعسكرات أو فى الخيام ما يبلغ مجموعهم ثمانمائة ألف . غير أنى لا أجد شيئا أسلحهم به ! » .

وعند ذلك عمت الدهشة المجلس ، وحاول بول رينو الاعتراض على ما قاله فيجان عسكرياًّ وسياسياًّ ، وقال : « هل تتصور أن هتلر مثل غليوم الثانى ، ذلك الجنتلمان الذى أخذ منا الألزاس واللورين وانتهى الأمر ؟ إن هتلر من طراز جنكيز خان ! » .

كان السؤال هو ما الذى يحدث إذا طلبت الهدنة من هذا الزعيم البربرى ؟ وقد راح رئيس الوزراء الفرنسى يبدى مخاوفه من ذلك ؛ كما أخذ يتحدث عن الاتفاقيات المبرمة مع بريطانيا التى تحظر على فرنسا إجراء مفاوضات منفصلة مع العدو الألمانى . وكانت هذه ذريعة تصلح من الناحية النظرية فحسب ، لكنها لم تحدث أى أثر لدى الجنرال فيجان بعد البيان الذى ألقاه تقييماً عن حالة قواته . ونتيجة لذلك اتخذ بول رينو نبرة تبعث فى النفس الأسى فقال : « إننا أيها السادة سنتراجع إلى الوراء ، وعندما يصبح من المستحيل علينا القيام بأى نوع من الدفاع – سوف نضطر إلى ركوب إحدى سفننا الحربية تحت وابل من القنابل تلقى علينا ، فإذا قتل بعضنا كان ذلك أفضل ؛ لأنه سوف يثبت أننا لم نغادر أرض بلادنا إلا عندما عجزنا عن عمل أى شىء آخر ! » .

لقد وضح الآن أن رئيس الحكومة وقائد الجيش لم يعودا يتحدثان لغة واحدة : فأحدهما يرى الأمور عن قرب من وجهة نظر عسكرية ، أما الآخر فإنه يراها من علو بوصفه رجلاً سياسيا ، وكان هذا العلو كبيراً إلى حد جعل حواره

مع الجنرال فيجان متسماً بطابع غير واقعى .

وحاول الوزراء الآخرون – وهم ماندل ، وماران ، ومونيه ، ودوترى ، ولوران إيناك ، خلال الضجيج الذى علا – مساندة بول رينو إلا أن المارشال بيتان وقف بكل ثقله إلى جانب فيجان ، ثم قال : « إننى من رأى القادة العسكريين ، فهم وحدهم الذين يعرفون حقيقة ما يدور ! » .

وفى خلال الفوضى التى سادت ختام الجلسة سمع بول رينو الذى كان عليه أن يلتقى فى صباح اليوم التالى ورئيس الوزراء البريطانى ، وهو يقول : « لسوف أسأل تشرتشل فى ذلك » . ولكن ما الذى كان سيسأل فيه ؟ لقد اعتقد أغلب الوزراء ساعتها أنه يريد الوقوف على رأى رئيس الوزراء البريطانى عن احتمال طلب فرنسا للهدنة ، وأن يتناقشا معاً فى ذلك خلال الاجتماع القادم لمجلس الوزراء الفرنسى .

* * *

لم يكن اجتماع المجلس يوم ١٢ من يونية ١٩٤٠ إلا نوعاً من الذهول ، وكان بالنسبة للأغلبية نوعاً من المفاجأة . أما اجتماع اليوم الثالث عشر فكان بداية للأزمة الوزارية ، وزوال الوحدة الظاهرية التى كانت قبيل ذلك تخيم على الحكومة .

ولقد سبق هذا الاجتماع الأخير اجتماع لمجلس الحلفاء الأعلى للحرب ، وكان فى الواقع آخر ما عقد فى إقليم (تور) . وقد جاء إليه ونستون تشرتشل يصحبه لورد هاليفاكس وبيفربروك ، وكذلك الجنرال (سبيرز) ، بعد أن هبطت بهم الطائرة فى (تور) عند الساعة الثانية بعد الظهر .

ويروى الجنرال سبيرز ما حدث فى هذا اللقاء بين الفرنسيين والإنجليز فيقول : « لقد لاحظ الإنجليز – بينما هم يحلقون فوق مدينة (تور) – أن المطار

قد ضرب بالقنابل بعنف فى الليلة السابقة . ولم يكن هناك أحد فى انتظارهم ، وعندما وقف رئيس الوزراء البريطانى أمام حظائر الطائرات المحطمة ، ورأى أن المطار خال تماماً من أى إنسان ، وأنه ليس هناك أى وسيلة تنقله إلى مكان الاجتماع – أدرك على الفور أن كل شيء فى فرنسا قد انهار » .

وقد انتهى الأمر فى الواقع بتشرتشل إلى أن استعار سيارة عسكرية من القاعدة القريبة ، وقصد بها إلى دار العمدة ، حيث سمع من يقول : إن الاجتماع سيعقد هناك . ولكنه عندما وصل لم يجد أحدا فى استقباله ، أما (ماندل) الذى كان قد استقر فى الدار ونقل إليها إدارته فلم يكن موجوداً ، كما لم يعرف أحد أين ذهب بول رينو . ؟

وطلب تشرتشل الذى شعر بالجوع شيئاً يأكله فذهب ومن معه إلى مقهى قريب ولكنه وجده مغلقاً ، وقبل صاحبه أن يفتح أبوابه لهؤلاء الزوار الجائعين ، ثم كان بول بودوان هو أول الشخصيات الرسمية الذى وصل إلى المكان ، فوجدهم يوشكون أن ينتهوا من تناول الطعام البسيط الذى قدم لهم ، فبدأ على الفور – كما دون تشرتشل فى مذكراته بطريقته الهادئة وحديثه المعسول يبلغهم أن المقاومة الفرنسية قد انتهت تماماً . !

ورفض تشرتشل أن يسترسل معه فى الحديث . واكتفى بالقول بأنه يأمل أن يرى أمريكا وقد دخلت الحرب ، وأن بريطانيا ستستمر بكل تأكيد فى القتال . وإذْ هدأت بعد ذلك نفوس أعضاء الوفد البريطانى فإنهم عادوا إلى دار العمدة ، وكان ماندل قد عاد هذه المرة ، فوجدوه يتحدث فى التليفون ، على حين أنه منهمك فى التهام طبق من الدجاج . وفى هذا الجو المشحون بالأسى رأى الزوار فى هذا الرجل ما يشبه شعاع الشمس فى الأيام الباردة . والواقع أنه كان

من القلائل الذين كانوا يريدون أن يحاربوا حتى النهاية فى فرنسا ، لكى يغطوا حركة انسحاب الحكومة إلى أفريقيا .

ووصل بول رينو وعلى وجهه كآبة واضحة ، وكانت الساعة قد بلغت الثانية والنصف بعد الظهر . وقد قرر إعفاء كل من بيتان وفيجان من حضور الاجتماع المنتظر ؛ لأنهما فى رأيه بدوا من دعاة الهزيمة ، خلال الاجتماعات التى جرت مع البريطانيين قبل ذلك بيومين .

وقد سمح بعد ذلك لاثنين فقط بأن يرافقاه ، وهما بودوان ومارجيرى إلى قاعة المؤتمرات ، وذلك لمجرد أن يسجلا ما يدور من حديث .

* * *

ودارت المناقشات فى المكتب الذى وضعه ماندل تحت تصرفهم فى دار العمدة ، بعد أن انتهى من التهام طبق الدجاج – بين تشرتشل وبول رينو ، فأسفرت عن الكثير من الخلافات .

ذلك أن بول رينو يزعم أن الأمر بالنسبة له أنه يطلب من بريطانيا أن تحل فرنسا من التزاماتها التى قطعتها على نفسها ، من أنها لن تعقد سلاماً منفصلاً – أما تشرتشل وسبيرز فقد أعلنا دون مواربة أن بول رينو قد طرح صراحة هذه المسألة .

وأما بودوان فإنه قال فيما بعد : إن تشرتشل قد وافق على أن تخرج فرنسا من الحرب إذا لم تدخلها الولايات المتحدة ، ولم يكن ذلك صحيحاً . ويبدو أن الحقيقة تكمن بين هاتين الروايتين . ووفقاً لما جاء فى محضر الاجتماع الفرنسى الذى حرره مارجيرى – أن بول رينو قد طرح بالفعل هذه القضية ، ولكن فى صورة افتراضية .

وكان رد تشرتشل كما جاء فى المحضر نفسه كما يلى : « على أى حال فإننا لن

نجرّم ذلك ، ولكنه أمر مختلف تماماً – أن يعقد سلاماً منفصلاً الطرفُ صاحب المصلحة ، وهو ما يناقض الاتفاقيات التى وقعناها » .

وكائنة ما كانت طريقة أو شكل الخلاف فإن تشرتشل بدا كأنما قد أدرك أن بول رينو يطلب منه حل فرنسا من التزاماتها . وعند ذلك طلب رفع الجلسة بعض الوقت ، وخرج ومعه هاليفاكس وبيفربروك . فلما عاد لم يكن هناك أى شك فى الرد الذى سيصدر عن الحكومة البريطانية . وقد كتب هو يقول : « ولدى عودتنا أوضحت مرة أخرى موقفنا ، وهو أننا لا نستطيع قبول سلام منفرد مهما كانت الظروف ؛ كما أننا لا يمكن أن نحل فرنسا من التزاماتها » .

وراح تشرتشل بعد ذلك يلوح لرئيس الحكومة الفرنسية بإمكان الحصول على مساعدة أمريكية فورية ، واقترح توجيه نداء بذلك إلى روزفلت . وقد بذل بول رينو جهداً للاقتناع بهذا الأمل الضعيف ، ووافق على إرسال برقية إلى الرئيس الأمريكى يحذره فيها من أن فرنسا إذا سقطت فإن هتلر لن يستولى على بريطانيا فحسب ، بل كذلك على الولايات المتحدة !

وأبرق تشرتشل رسالة بهذا المعنى نفسه ، غير أنه لم يكن يعتقد صراحة أن روزفلت سيتمكن من الزج بالولايات المتحدة فى الحرب بسرعة من شأنها إنقاذ الموقف الذى بلغ أقصى درجة من التدهور فى أوربا ، لكنه قد أدرك الآن تماماً أن فرنسا لن تلبث أن تستسلم ، فقال يسأل رئيس الوزراء الفرنسى : « ما المهلةُ التى أمامنا قبل أن تطلبوا توقيع الهدنة ؟ هل هى أسبوع أو أكثر ؟ »

كان بول رينو مشغولاً فى التفكير فى انفصال فرنسا عن بريطانيا ، وفى أن بريطانيا قد تتسبب فى إنزال آلام جديدة بطريقة غير مباشرة بالشعب الفرنسى ، إذا هى استمرت فى الحرب ، ولذلك لم يفطن إلى السؤال الذى وجهه إليه تشرتشل ! ثم جرى الحديث مرة أخرى عن روزفلت وعن رده المحتمل ، فقال

رئيس حكومة بريطانيا : « لو جعلناه يوافق على دخول أمريكا الحرب فإننا نكون قد ضمنا النصر » . لكنه هو نفسه لم يكن يعتقد أن ذلك يمكن حدوثه على الفور ولذلك أضاف بعد برهة قصيرة : « إذا جاء رده سلبياً ، ثم أعلنتم هنا قراركم بالدخول فى مفاوضات منفردة فسوف تنشأ عدة مشكلات يتعين علينا النظر فيها » .

وتم الاتفاق على انتظار رد روزفلت ، ثم العودة مرة أخرى إلى الاجتماع لبحث ما سوف يترتب عليه . وقبل أن يفترق الرجلان طلب تشرتشل من بول رينو تسليم بريطانيا عدداً من الطبارين الألمان الأربعمائة الذين أسقطوا فوق فرنسا نظرا إلى أن الكثيرين منهم سقطوا بفعل سلاح الطيران الملكى . وقد وافق بول رينو على هذا الطلب .

وفى الساعة الخامسة والنصف مساء اتجه تشرتشل إلى المطار ؛ لكى يطير منه عائداً إلى لندن .

* * *

وقصد بول رينو بعد سفر الوفد البريطانى إلى (كانجى) ، حيث بدأ يحيط مجلس الوزراء علما بما جرى فى محادثات (تور) . قال : « أيها السادة ، إذا كنت قد جئت متأخراً فذلك لأنى كما اتفقنا قد التقيت أنا وتشرتشل الذى رأى أن من غير المناسب أن يحضر وزير أجنبى مجلس وزرائنا ، حتى لو كان من دولة صديقة ! » .

ومضى بول رينو يروى تفاصيل اللقاء بغير أن تبدو عليه ثقته المعتادة ، ولو أنه جعل الوزراء يأملون مجىء رد إيجابى من روزفلت على البرقيتين اللتين بعثنا إليه ، ولم يركز كثيراً على ما قاله تشرتشل عن الموقف الذى سوف تتخذه بريطانيا فى حالة طلب فرنسا توقيع هدنة منفردة ، ولكنه قال : « إن بريطانيا

سوف تناضل حتى هزيمة هتلر ، ولن توجه إلى فرنسا أى نقد أو لوم ، وستظل قضية فرنسا عزيزة عليها ، وسوف تحافظ عليها بكل قوتها وكرامتها » .

كانت هذه كلمات مفهومة ، ولكنها لم تقل شيئاً عن قبول أو رفض طلب الهدنة الذى أكد بول رينو أنه أبلغه تشرتشل . وهنا تدخل المارشال بيتان فى الحديث ، وراح يتلو مذكرة تثبت أن الهدنة أمر لا يمكن تجنبه ، ثم قال :

« إن من المستحيل على الحكومة أن تتخلى عن الأراضى الفرنسية ؛ إنما واجب الحكومة البقاء فى البلاد مهما حدث ، وإلا فلن يعترف أحد بها . إن حرمان فرنسا من الذين يدافعون عنها فى هذه المحنة معناه تسليمها للعدو ، وفى ذلك قتل لروح فرنسا ، ومن ثم جعل نهضتها أمراً مستحيلاً . وفيما يختص بى فإننى أعلن بصرف النظر عما تقرره الحكومة سوف أرفض مغادرة أرض فرنسا الأم ، وسوف أبقى وسط الشعب الفرنسى ، لكى أقاسمه آلامه وويلاته ! » .

وتوقف المارشال لحظة ، ثم اختتم حديثه قائلاً : « إن الهدنة فى رأيى هى الشرط الضرورى لبقاء فرنسا » .

غير أن الحاضرين جميعاً لم يكونوا من هذا الرأى ، فأكد بول رينو أن هذا الحل مخل بالشرف ، وراح بقية الوزراء يقدمون الحجج المناهضة للهدنة ، وهو ما رد عليه الجنرال فيجان فى عنف ، ثم أعلن على المجلس نبأ مذهلاً جديداً تلقاه على الفور من ياوره الخاص الذى تلقاه من هيئة أركان القوات البحرية . وكان النبأ يقول : إن تمرداً شيوعيا وقع فى باريس ، وإن حكومة مؤقتة قد قامت فيها ، واستقرت فى قصر الإليزيه ، وعلى رأسها موريس توريز !

وعلى الفور غادر الجنرال فيجان المجلس ، وطلب من ياوره الاتصال بالجنرال (دنتز) فى باريس الذى استفسر منه عن صحة النبأ ، فنفاه له .

والواقع أن النبأ لم يكن بغير أساس ، إذ إن إذاعة (الكومنترن) قد وجهت

بالفعل نداء إلى الشيوعيين يتضمن أمراً بعدم مغادرة باريس مهما حدث ، وإصدار صحيفة (لومانيتيه) بصورة رسمية ، حتى إذا دخل الألمان العاصمة وجدوا أنفسهم أمام الأمر الواقع .

* * *

لقد أكد الجنرال فيجان فيما بعد أنه أمر توقعاً لطلب الهدنة الأسطول الفرنسى بالتوجه إلى شمالى أفريقيا . غير أن الاضطراب الذى كان يسود ذلك الاجتماع جعل بول رينو وبقية الحاضرين لا يذكرون حدوث ذلك ، فيما عدا (بودوان) الذى أكد سماعه لهذا الأمر ، لكن ما يذكره الجميع دون استثناء هو ما قاله الجنرال فيجان : من أنه لا نجاة لفرنسا بغير حكومة تظل على أرضها .

فقد استرسل فى الحديث مدافعاً عن هذا الرأى وقال : « أى سلطة ستكون لأى وزير يغادر هذه الأرض يمكن أن تلتزم بها فرنسا ؟ وكم من الوقت سوف يبقى الذين سيفرون منها خارجها ؟ أهو الوقت اللازم لكى تتم المصانع الأمريكية إنتاج الطائرات والدبابات التى تتيح لهم استعادتها بها ؟ إنهم سوف ينتظرون إذن سنوات كثيرة ، ولكن إذا عادوا فهل يذكرهم أحد ؟ ثم كيف يستولون على فرنسا ؟ أيكون ذلك بضرب أهلها ومدنها بالقنابل ؟ »

وفى سورة غضبه راح فيجان يوجه نقداً عنيفاً للمجتمعين فيقول : « كفى تشدقاً بالرغبة فى القتال على حين أنكم تستعدون للفرار ! أما أنا فلن أغادر هذه الأرض ، حتى إذا هم كبلونى بالأغلال ! » .

وانفض اجتماع مجلس الوزراء الفرنسى بغير اتخاذ أى قرار ، لكن ما هو أكثر خطورة من ذلك هو أن الاجتماع قد أسفر عن أمر لا علاج له ؛ إذ انهارت نهائيًا

وحدة الحكومة ، فنتجت عن ذلك كارثة أعمق انقسامٍ يحدث فى صفوف الفرنسيين .

حقا إنهم لم يقرروا حتى الآن شيئاً فيما يتعلق باستمرار القتال أو طلب السلام مع العدو ، بل إنهم لم يتحدثوا عن النتائج السياسية التى ستطرأ على النظام الجمهورى من جراء طلب عقد الهدنة . إلا أن الخلاف الذى نشأ بين هؤلاء الرجال – وهم إزاء الاختيار الذى طرح عليهم – كان يشكل الفصل الأول فى كل المأساة التى سوف تتعرض لها فرنسا .

الفصل الثامن عشر

المعركة المنسية

توجه المارشال بيتان يوم السابع عشر من يونية ١٩٤٠ بالحديث إلى الشعب الفرنسي لكي يحيطه علماً بالكارثة التي ألمت بالبلاد ، فقال : « أيها الفرنسيون ، إنني أبلغكم وقلبي يتحطم – أنه أصبح محتماً علينا أن نتوقف عن القتال » .

وفي اليوم الثامن عشر من الشهر نفسه ، بينما كانت الحكومة الفرنسية تبعث إلى الألمان في طلب شروط توقيع الهدنة كان الجنرال شارل ديجول يطلق من لندن نداءه التاريخي ، على حين كان الجيش الفرنسي يخوض آخر معركة له على جبهة تمتد بطول مائة وخمسة وعشرين كيلو متر ، تبدأ من ضواحي مدينة (نانسي) حتى مدينة (فالسبورج) ، وهي ما عرفت باسم « المعركة المنسية » .

والسبب في هذه التسمية أنها كما جاء في كتاب « انسفوا خط ماجينو » للمؤرخ الفرنسي روجيه بروج الذي تخصص في دراسة هذا البناء الحصين وآثاره على العسكرية الفرنسية – أن أنباءها لم ترد في أي تقويم حربي برغم أن ثلاث مجموعات من الجيوش واجهت فيها في ميدان امتد من عند قناة المارن إلى نهر الراين إحدى عشرة فرقة ألمانية لم تكن تتوقع مثل هذه المقاومة الشرسة من جانب الفرنسيين .

ونحن نتحدث عن هذه المعركة هنا ؛ لكي نلقي عليها بعض الأضواء التي قد تساعد على إخراجها من زوايا النسيان ، وتوضح كيف أن القوات الفرنسية التي

قيل - إنها لم تستطع الصمود للقتال ، وانهارت لدى أول صدام لها فى الحرب مع قوات ألمانيا - لم يكن انهيارها فى الواقع ؛ كما صورته جملة الأحداث التاريخية - راجعاً إلى انعدام الروح القتالية لدى الجندى الفرنسى . . .

* * *

إن هناك مصادر عديدة غير التقاويم العسكرية يمكن الاستدلال منها على الوقائع التى غابت عن التدوين الرسمى ، ومن بين هذه المصادر الخطابات التى كان الضباط الفرنسيون يبعثون بها إلى زوجاتهم وأولادهم من مواقعهم فى خطوط القتال .

ومن بين هذه رسالة بعث بها ضابط يدعى بيير لافونتا إلى زوجته فى ١٢ من يونية ١٩٤٠ ، أى فى الفترة التى احتدم فيها نفسها الجدل والخلاف بين كبار المسئولين الفرنسيين فى الحكومة والجيش ، عن ضرورة طلب الهدنة واستسلام فرنسا للألمان ، وفيها يتساءل : « ترى ما رد الفعل فى الخطوط الخلفية ، على الأحداث الأخيرة ؟ إننا هنا لا نعرف الكثير عن ذلك ، ولكننا بدأنا نعتاد أن الحرب الحقيقية ستبدأ ، وأنها ستكون حرباً طويلة الأمد » .

ومعنى ذلك أنه بينما كان الجنرال فيجان يتحدث عن فكرة طلب الهدنة ويرى أن فرنسا قد خسرت الحرب وتقطعت أوصالها - كانت القوات الفرنسية تتوقع حرباً طويلة .

ونحن نتتبع هنا هذا الضابط ؛ لنتعرف من خلال مراسلاته على انطباعاته وأحاسيسه وملاحظاته ورؤيته للحرب ؛ لأنها تعكس وجهات نظر الأغلبية العظمى من أمثاله من الضباط الذين خاضوها . وبيير لا فونتا هذا مدرس رياضة وزع خلال التعبئة العامة على أحد الألوية المرابطة فى خط ماجينو ، هو اللواء السابع والثلاثون ، حيث تولى قيادة فصيلة مدافع رشاشة منذ بداية الحرب .

وبينما كانت القوات العاملة أمام هذا الموقع الحصين منهمكة فى لعبة الحرب – كان الجنود المرابطون داخل خط ما جينو يقومون بتنظيف حصونه ، وترتيب المدافع فيه ، ويحفرون بعض المخابئ والخنادق ، ويمدون حوله كيلو مترات من الأسلاك الشائكة .

كان الشعور المسيطر على هؤلاء الجنود هو أنها حرب عجيبة ، هذه الحرب التى يضطرون فيها إلى استخدام المعاول والمجارف والفئوس بدلاً من استخدام السلاح ؛ كما أنها تفسر النسبة المنخفضة من الخسائر التى نزلت بذلك اللواء السابع والثلاثين : فلقد كان أول الضحايا فيه جنديًّا توفى إثر حادث مرور وقع يوم ١٩ من سبتمبر ١٩٣٩ ، وظل الأمر كذلك حتى شهر مايو ١٩٤٠ .

والواقع أن هذا اللواء لم يعرف من الحرب طوال تسعة أشهر غير سماع بعض طلقات المدفعية التى تسقط على حصون الموقع الصلبة إلى درجة أن جميع ضباط الخط كانوا يتساءلون عن جدوى إقامته !

لقد كانت المعارك تدور فى شمالى فرنسا ، وتجرى حرب حقيقية فى دنكرك ، ولكن خط ماجينو ظل هادئاً ساكناً ، فيما عدا تلك الطلقات . فما الذى كان يمكن أن يتصوره مئات الآلاف من الجنود الذين حشدوا فيه عن الحرب ؟

نعود إلى خطاب الضابط بيير لا فونتا ، حيث نجده يقول فى رسائله : « لقد وضعنا عدداً من مدافعنا الرشاشة فى حقل من الياسمين ، أما خنادقنا فتتعرج كالثعبان وسط الزهور ، ومن حولها ورود بيضاء وحمراء كبيرة ، وتشمل كل ذلك غابة خضراء ! » .

وعندما كان هذا الضابط يسطر هذه العبارات لم يكن يدور فى خلده قط أنه سيكون خلال أقل من عشرة أيام هو أول ضابط يقتله العدو من أفراد هذا اللواء . والواقع أن الوضع على الجبهة الفعلية قد أخذ منذ ذلك الوقت يتدهور

تدريجا ، وكان واضحاً أن الأحداث بدأت تتلاحق :

فى الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم الثالث عشر من يونية ١٩٤٠ تم استدعاء الكولونل (كومبيه) إلى مونبرن على بعد عشرين كيلو متر من بيتش ، حيث القيادة العامة للجنرال شاستانيه قائد القطاع الحصين فى (رورباش) . وهناك أبلغ ومعه كل من الكولونل (سوبرف) من اللواء ١٦٦ والكولونل (موفان) من اللواء ١٥٣ نبأ لا يصدق ! هو أنه يتعين على جميع الألوية المرابطة فى الحصن أن تغادر خط ماجينو ، وأن ترحل فى المساء نفسه نحو الجنوب .

ذلك أن الجنرال فيجان الذى لم يكن لديه أى قوات احتياطية قد قرر أن يتصرف انتظاراً لتوقيع الهدنة التى ليس هناك مناص منها . وقد أصدر فى اليوم السابق – الثانى عشر من يونية – أمراً يقضى بتنفيذ « التعليمات الشخصية والسرية رقم ٣/١٤٤٤» ، وهى أهم وثيقة مؤرخة فى عام ١٩٣٩/١٩٤٠ . وهى التى تفرض على الجيش الفرنسى التوقف عن القتال ، ثم الانسحاب إلى وسط البلاد .

ولم يكن هناك أى استثناء من ذلك ، أما حصون خط ماجينو فيتعين تدميرها ، وأما القوات المنسحبة منها فيجب أن تقاتل وهى تتراجع .

كانت هذه هى الأوامر التى اضطرب لسماعها الضباط الثلاثة ، وأوضح الجنرال شاستانيه الذى شاركهم فى هذا الاضطراب أن قوات القطاع سوف تشكل مجموعة للسير تقصد إلى ساربورج ، فتصلها على ثلاث مراحل . وسأله أحد الضباط الثلاثة : « وماذا بعد أن نصل إلى هناك أيها الجنرال ؟ » ، فأجابه قائلاً : « إن هناك عدداً من القطر فى انتظارنا سوف تحملنا إلى (جريه) بمنطقة ساءون العليا ، حيث يجرى إعداد خط دفاعى جديد » .

عندما عاد الكولونل (كومبيه) إلى لوائه جمع ضباطه وضباط الصف ليبلغهم التعليمات التى تلقاها من القيادة ، ثم قال : « وعلينا الآن أن نستعد لتنفيذ ذلك » .

وفيما بعد قال الكابتن (مونتيرو) وهو الضابط المساعد فى اللواء : إنهم كانوا ينتظرون أى شيء فيما عدا التخلى عن هذه الأرض التى كانوا قد أعطوها طوال الشهور التسعة الماضية أفضل ما فى أنفسهم .

على أن السؤال الذى كان يتردد هو : بأى عربات يمكن اللواء السابع والثلاثين أن ينقل مهماته وعتاده ، ومخزونه من الذخائر؟ لقد كانت الجياد المخصصة للواء قد نفقت منذ سبتمبر ١٩٣٩ دون أن يحصل على بديل عنها ، ومن ثم فإنه ليست هناك عربات تجرها الخيول . أما السيارات التى ظلت صالحة للاستعمال فلم تكن تزيد على ثلاثة وثلاثين سيارة . وأما عربات الجنزير فقد كان اللواء لديه من الناحية النظرية سبع وعشرون منها . ولكنه لم يتسلم سوى خمس عشرة .

وجرت عملية إحصاء للخيول والعربات التى لا تزال صالحة فى القرى القريبة . ولكنها لم تكن كافية ، فرئى الاستعانة ببغال الكتيبة ١٥٣ ، غير أنها لم تكف بدورها . ثم نشأت مشكلة أخرى : هى أن القطار الحربى الذى ينتظر اللواء لن يتسع لكل عتاد اللواء ! .

وفى فترة بعد ظهر ذلك اليوم أخذ الجنود فى إخراج المدافع من عيار ٢٥ التى كانوا قد بذلوا جهداً كبيراً فى إدخالها إلى الحصون ، ثم دمروا المدافع القديمة من عيار ٦٥ ، ٤٧ التى تبين أن من غير الممكن حملها . وكانت الأشياء التى تركتها القوات خلفها لا حدود لها : فقد تركت كتيبة الكابتن جوابيه وحدها ما يكفى طعامها لخمسة أيام ، إلى جانب عشرات الألوف من الطلقات ،

والألوف من القنابل اليدوية ، والمهات الأخرى .

وعند العصر أخذت الكتائب الثلاث التى يتكون منها اللواء السابع والثلاثون تبتعد ، دون أن يبدو أن المدفعية الألمانية قد فطنت إلى هذا الرحيل العظيم . فلما أصبحت سياراتها على الطريق العام الذى ازدحم بالقوافل وطوابير النازحين أطلقت لنفسها العنان وهى مطفأة الأنوار .

أما قوات المشاة التى بدأت السير على الأقدام فإنها لم تكد تقطع بضع الكيلو مترات الأولى حتى ظهر الإرهاق عليها لقلة ما دربت على المسير . وطوال ثلاث ليال بدت كأن لا نهاية لها راحت هذه القوات التى لم يكن لها من سند سوى الأمل فى تلك القطر التى قيل : إنها فى انتظارها - راحت تحلم بالقش الذى فرشت به عرباته والذى سوف يستلقى عليه أفرادها !

وهكذا ظلت القوات تجر أقدامها من مرحلة إلى مرحلة طول كل منها ثلاثون كيلو متر ، فوق طرق متعرجة تصعد وتهبط بهم عبر الغابات التى يخترقونها .

حتى إذا توقف اللواء السابع والثلاثون أخيراً يوم الأحد السادس عشر من يونية ١٩٤٠ فى غابة (أوبر فالد) بالقرب من ساربورج - كان الإعياء قد بلغ منهم مبلغه ، ولم يجد الرجال فى أنفسهم مجرد القدرة على فك المهات التى يحملها كل منهم على ظهره .

وفى الساعة العاشرة والنصف صباحاً استدعى قادة الكتائب إلى اجتماع فى القيادة العامة للفرقة فى (إيملنج) إلى الجنوب من ساربورج ، على حين بدت على وجه الجنرال شاستانيه تعبيرات تدل على أنه يجتاز أياماً قاسية ، وهو يقول لأولئك القادة : « إن هناك جديداً فى الأمر ، وهو أن الفرقة لن تستطيع الرحيل نظراً لتوقف جميع القطر عن السير نتيجة لأن طائرات (شتوكا) الألمانية قد نسفت جميع الخطوط الحديدية .

واستدار الجنرال بعد ذلك إلى خريطة جغرافية ، وراح يتابع بإصبعه عليها خطاً أزرق على بعد بضع كيلو مترات من ساربورج ، ثم قال : « إن الفرقة سوف تستقر وراء قناة نهر المارن المؤدية إلى الراين ، ومهمتها الحيلولة دون اختراقها » .

وهكذا احتل اللواء السابع والثلاثون وسط الخط الذى يبدأ من (إيملنج) وينتهى عند (إكسواسانج) حيث قدر له أن يتقاسم آخر معركة كبيرة يخوضها الجيش الفرنسى فى شهر يونية ١٩٤٠ ، وهى المعركة التى لم يتحدث عنها أحد .

ومن عند ضواحى نانسى إلى ضواحى فلاسبورج وبطول جبهة امتدت مائة وخمسة وعشرين كيلو متر وقفت ثلاث مجموعات من الجيوش ضمت المجموعة السادسة بقيادة الجنرال (لوازو) ، والمجموعة العشرين التى يقودها الجنرال (هوبير) الذى فرغ لتوه من إنزال أول هزيمة بالقائد الألمانى فون فيتزليبن فى الثغرة التى كانت قد فتحت فى إقليم السار ، والمجموعة الرابعة التى يقودها الجنرال (ليسكان) التى ينتمى إليها اللواء السابع والثلاثون .

ووزعت هذه المجموعات الألوية التى تتألف منها وراء قناة المارن المؤدية إلى الراين ، لكى تجابه القوات الألمانية المكونة من إحدى عشرة فرقة ، وهى القوات التى استطاعت أن تدور حول خط ماجينو فأبطلت مفعوله ، واضطرت الجيوش المرابطة فيه إلى التراجع والانسحاب . ثم أخذت تتهيأ لقتال جديد تهدف من ورائه إلى إحداث ثغرة قاتلة فى صفوف الفرنسيين .

* * *

إن ما يسمى بالمعركة - المنسية برغم أنها لم ترد فى أى تقويم عسكرى - لا يمكن تشبيهها بأى اشتباك حربى جرى فى فرنسا ، إذ أن عدد المحاربين الذين اشتركوا فيها تجاوز عددهم أربعمائة وخمسين ألف رجل يوم ١٨ من يونية ١٩٤٠ .

فقبيل ظهر يوم الأحد تم تشكيل طوابير هذه القوة الكبيرة دون ما اعتبار للرغبة الشديدة فى النعاس التى كانت مسيطرة على الرجال . وعندما دخل اللواء السابع والثلاثون إلى ساربورج - كان المئات من المدنيين الذين يحملون الحقائب واللفائف ، أو يدفعون أمامهم الدراجات وعربات اليد - يخرجون من المدينة وينطلقون على الطرق مبتعدين عنها . فما الذى كان يحدث ؟

يروى ذلك ضابط من هذا اللواء ما زال على قيد الحياه فيقول : « ما إن دخلنا المدينة حتى اتجهت أبصارنا بحكم الغريزة ناحية أرصفة محطة السكة الحديدية - فلم تقع على أى عربة ، كما كانت جميع الخطوط خالية . وسرعان ما صدر لنا الأمر باتخاذ مواقعنا على القناة ، فأدركنا أننا سنخوض المعمعة أخيراً ، وشعرنا أنه قد أصبحت لنا بعض الفائدة » .

وهكذا اكتظت طرق ساربورج بآلاف من الجنود من جميع الأسلحة على حين تزاحم فيها آلاف أخرى من النازحين الذين كان لا يزال يداعبهم الأمل فى العثور على قطار يحملهم بعيداً عن المدينة . أما السكان الذين ظلوا فيها فقد تحيروا فى أمرهم : فلقد كانوا يطلون من نوافذهم ، أو يقفون على الأرصفة ، ويتطلعون إلى القوات وهى تمر أمامهم . وعلى حين فجأة اتجهت فتاة بالحديث إلى أحد القادة وقالت متسائلة : « هل تخلى عنا الجيش ؟ » .

وأجاب القائد الذى احمر وجهه تحت خوذته : « إننا ننفذ الأوامر » .

واستبق الكولونل (كومبيه) لواءه . وقصد ومعه قادة الكتائب إلى القناة . فاستقر رأيه على أن تضطلع الكتيبة التى يرأسها القومندان (سيبير) بالدفاع عن بلدة (إكسواسانج) . وإلى يسارها الكتيبة التى يقودها الكابتن (لايندر) وتتولى الدفاع عن (هيمنج) .

وتطل البلدتان على القناة . لكن أغلب بيوتهما على ضفتها الشمالية .

وكذلك مصنع الأسمنت القائم بها بمداخنه العالية . وإلى الشمال على بعد حوالى ألف وخمسمائة متر فوق ربوة تكللها الغابات – يبدو الطريق الذى سوف يتدفق منه العدو .

ومن الناحية الجنوبية تقوم عدة مرتفعات يعقبها منخفض عميق – أقام القومندان (لايندر) مقر قيادته على حافته . وإلى الوراء مجموعة أخرى من المرتفعات اتخذت مواقعها فيها الكتيبة التى يقودها (فيرو) . وأخيراً تجىء قرية (لوركان) ، وفيها أقيمت قيادة اللواء السابع والثلاثين ، فى دار العمدة . وبدلاً من أن يقع اختيارها على الدور الذى تحت الأرض فإن الكولونل اختار الطابق الأول ، وقال معللا ذلك : « إذا دفنت قيادة اللواء نفسها تحت الأرض فسوف يستخلص الجنود أن هناك أخطاراً جسيمة . فلا داعى إذن للتردد ، ولنظل فى الهواء الطلق » .

وأخذ اللواء يحتل مواقعه ، كتيبة إثر كتيبة . وخلال الليل راح الرجال يحفرون ، ويدعمون الركائز . وينصبون المدافع من عيار ٢٥ ، والرشاشات الثقيلة . وعند فجر الاثنين السابع عشر من يونية – تصاعدت فى الجو سحابة سوداء كثيفة من ناحية اللواء ١٦٦ . وهو اللواء الذى يرابط على مقربة ، اتضح أنها ناتجة عن حريق شب فى مستودعات البترول .

* * *

واشتبكت الفرقة الألمانية التى يقودها الجنرال بوهمبوزينج واللواء ١٦٦ ، الذى كان داخلاً لتوه إلى ساربورج ، وقد جرى القتال فى (هيس) ، حيث أقام الكولونل سوبرفى رأس جسر إلى الشمال من القناة .

وقد دون الكولونل فى مذكرته التفاصيل الأولى للمعركة فقال : « حتى العصر كانت هجمات الألمان تجىء لكى تتحطم على دفاعات اللواء ١٦٦ . فلما

تمكنوا من الاستيلاء على بعض المنازل أخرجناهم منها بالسلاح الأبيض . وتركت الكتيبة الألمانية التى قامت بالهجوم أحد عشر قتيلاً ، وواحداً وسبعين جريحاً » .

والواقع أن مشاة الألمان قد هبطوا من المرتفعات القائمة إلى الشمال من (هيمنج) ركضاً نحو القناة ، ففتحت عليهم مدفعية كتيبة (لايندر) نيران الرشاشات ، وعند ذلك رقد الألمان على الأرض ، ثم انتشروا على هيئة مروحة . فلما تركزت عليهم النيران وتكاثفت تواروا خلف الهضبة .

وحاول العدو عدة مرات التقدم ناحية القناة ، ولكن دفاعات الكتيبة السابعة والثلاثين منعتهم من ذلك ، فاضطر إلى الاستعانة بالمدفعية . وهنا غطت الوادى الانفجارات ، فرددت سفوح المرتفعات صداها فى أصوات مرعبة . وانفجرت قذيفة فى مخبأ الكابتن (لافونتا) ، فخر على إثرها ضابط الاتصال الذى كان معه وكذلك جنوده الثلاثة صرعى .

وانتهز بعض جنود الاقتحام الألمان فرصة القصف المدفعى ، فاقتربوا من القناة ، وعند ذلك اتصل القومندان (سيبر) بمركز القيادة تليفونيا وقال : « لقد حان الوقت لنسف الجسور ، وإلا فإن الألمان سوف يثبون علينا » .

ونسف جسر (هيمنج) فى الساعة ١٣.٠٠ ، وتلاه الجسر المقام عند مصنع الأسمنت . وفى الساعة ١٨.٠٠ فقط انهار جسر السكة الحديدية فى (إكسواسانج) فى المياه الموحلة ، وبعده بنصف ساعة انفجر جسر المرور العام . وكان رجال الملازم (كوفينييه) قد توقعوا ذلك ، فأنشئوا طوفاً من البراميل ، ليكون وسيلة الذهاب والإياب من الضفة الشمالية .

وسمعت خلال الليل بضع طلقات هنا وهناك دلت على توتر أعصاب الجنود الذين يقومون بالحراسة . ونام جنود الكتيبة السابعة والثلاثين الذين غلبهم

النعاس ، كل منهم داخل الحفرة التى هو فيها ، ويده قابضة على بندقيته . غير أنهم لم يلبثوا هكذا طويلاً ؛ إذ بدأ اليوم التالى الثامن عشر من يونية مبكراً جدا بالنسبة لهم .

وحوالى الساعة ٣,٣٠ أخذت طلقات المدفعية تنهمر ، وتسقط فى عنف على مقدمة اللواء . وبرغم أن رجاله كانوا على عمق لا بأس به داخل الأرض فإن خسائر كبيرة نزلت بهم ، فكانوا أول القتلى فى « المعركة المنسية » .

ومع أن المدفعية الفرنسية تنقصها الذخيرة فإنها ردت على الألمان بعنف . واختلط دخان الانفجارات بالضباب الراكد فى الوادى ، وحوالى الساعة ٤,١٥ سمعت أصوات مريبة فى منازل (إسكواسانج) شمال القناة . وكان هؤلاء هم الألمان .

ويقول الكابتن (جوابيه) : « لم يكن يفصل الألمان عن حراس المقدمة فى فصيلتى سوى عرض القناة ، وكنا نحن داخل أحد المنازل ، فأطلقنا بنادقنا دفعة واحدة من على بعد يقل عن ثلاثين متراً ، فأصبح العدو محاصراً ، ومع ذلك سلط علينا مدافعه الرشاشة التى كانت موجاتها تستمر لدقيقة أو دقيقتين فى عنف غير عادى .

وظهر الألمان فجأة على الهضبة الشمالية وهم يقفزون من السيارات التى جاءت بهم ، ثم أخذوا يركضون فوق المنحدر ، وقد حمل بعضهم قوارب من المطاط . وازدادت كثافة النيران فى كل مكان ، وحوالى الساعة السادسة بدا كأن الضباب قد تضاعف ؛ واتضح أن الألمان أطلقوا قنابل دخانية لكى يحتموا وراءها ، وبعثوا مجموعات صغيرة نحو (إكسواسانج) . فى محاولة للعثور على أفضل النقط التى يعبرون منها .

* * *

وابتداء من الساعة الثامنة قطعت خطوط التليفون بين الكتائب وبين مقر القيادة فى (لورّكان) ، فبعث الكابتن جوابيه أحد ضباط الاتصال إلى ميمنته ، حيث تقف فصيلتا (هامان) و (كوفينييه) ، اللتان كانتا قد توقفتا عن إطلاق النار خلال الاضطراب العام الذى ساد ، وكان صمتهما يبعث على القلق .

وحوالى الساعة التاسعة إذا بأحد الجنود يصيح : « الألمان ياسيدى الكابتن ! » وتطلع إليه الجميع ، ثم نظروا إلى الاتجاه الذى يشير إليه ! كانت هناك مجموعة ألمانية تتقدم بخطوات بطيئة على الضفة الجنوبية للقناة ، ومن بعد خمسين متراً صدر عن بندقية سريعة الطلقات وابل من الرصاص ، فوقعت ثلاث جثث على الأرض . وهكذا عبر العدو القناة ، فى غفلة من الفرنسيين .

فكيف استطاعوا ذلك ؟

كان هناك خط قديم للمجارى تحت الأرض ، خصص لمياه الصرف ، ويعبر القناة من ناحية إلى الأخرى ، ويكفى مرور رجل منه ، وكانت هناك فتحات توصله إلى سطح الأرض . وإذ كان الألمان قد عثروا عليه فإنهم تسللوا منه واحداً وراء الآخر ، وإذا هم فى الضفة الأخرى .

ويقول الكابتن جوابيه : « فى حوالى الساعة التاسعة والنصف – وصل إلينا رجل عجوز وزوجته وابنته ، فزادبهم طابور المدنيين من نساء وأطفال لجئوا إلى قلعتنا الصغيرة ، وراحوا يتنقلون فيها من غرفة إلى أخرى . وكانت صرخات النساء تعلو مع كل قصف مدفعى أو وابل من طلقات الأسلحة الأتوماتيكية ، فكان يشق علينا سماعها ! »

واتسع نطاق التقدم الألمانى ، ولكن كل متر يغزونه كانت تصحبه فرقعة عالية من السلاح ، وعند رأس جسر (إكسواسانج) وحدها عثر على جثث

ستة وعشرين جندياً من لواء الكولونل كومبيه ، أما المنزل الذى احتمى فيه جوابيه فقد أحاط به الألمان عن قرب ، وأخذوا يلقون عليه القنابل اليدوية ، ثم شرعوا أخيراً فى اقتحامه بالقوة .

ولم يجد الكابتن جوابيه لديه سوى لحظة صاح فيها بحامل البوق الذى كان يعمل على الرشاش المواجه لباب الدخول ، بأن يدير مدفعه ويطلقه على الدهليز ، وبغير أن يصوب أطلق دفعة منه أصابت ثلاثة من الألمان ، واحد منهم بعدة رصاصات فى بطنه .

وإذ أصبح جوابيه وليس لديه سوى اثنى عشر رجلاً ، واتجه فكره إلى المدنيين الذين وقعوا بين نارين – فإنه أمر جنوده بوقف إطلاق النار ، ثم طلب من الألمان أن يبعثوا إليه أحد الضباط حيث استسلم له ، وأعطاه كلمة الشرف بأن المدنيين لم يشتركوا فى القتال .

وقد سجل جوابيه فى مذكرته مايلى : «كنت أخشى أن يعتبر الألمان أهل هذه المنطقة وهى اللورين – من القناصة ، برغم تقدم أعمارهم » .

* * *

وانقضت مجموعة من الألمان على البيت المجاور . واستقبلهم جنود الكولونل (ليزم) بنيران حامية ، تراجعت المجموعة على إثرها بعد أن فقدت قتيلين . وحمى وطيس القتال ، واستمر فى اتجاه الغابة الصغيرة . حيث رابط القومندان سيبير .

وإذ سمع القائد فى (لوركان) أصوات النيران بعث الملازم (سوسييه) على عربة نصف جنزير ، ليرى ماذا حل بالقومندان سيبير ؟ وقد أصيب هذا الملازم إصابة قاتلة فى أثناء قيامه بهذه المهمة ، ثم جاء الكابتن فرنسيس وأبلغ سيبير أن الألمان قد عبروا القناة ، ولكن اللواء السابع والثلاثين لم يستسلم بعد .

وأصابت شظية الكابتن فرنسيس على حين أخذ القتال يجرى من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع . وأطلق الجنود المرابطون حول مقر قيادة سيبير آخر ذخيرة معهم فى الوقت الذى سقط فيه جريحاً ضابط آخر هو الملازم مارلان .

وعند ذلك قرر سيبير وقف القتال ، فجاء الألمان ونزعوا سلاحه ومن بقى معه من الجنود والضباط ، ولكنهم لم يستغلوا نجاحهم الذى كلفهم الكثير . أما مركز الإسعاف الذى كان قد استقر فى خندق بعيد فإنهم لم يكتشفوه إلا فى المساء . وقد سجل الملازم الطبيب (كلويز) بدوره فى مذكرته مايلى : « لقد انقضى النهار فى ظروف رهيبة للغاية ، وسوف تظل ذكراها عالقة فى رأسى ككابوس مروع : فبعد أن أصبت بشظية قنبلة فى الساعة ٢٠,٣٠ ، وقعت فى الأسر ومعى عدد كبير من الجرحى ، من بينهم ملازم أصيب فى رأسه » .

وأطلق الألمان صواريخ من النيران البيضاء فى الهواء ، يعلنون بها أنباء تقدمهم ، فحصلوا على مساندة من قوات المدفعية التى راحت تدك مواقع اللواء السابع والثلاثين . لكن كل موقع منها قاتل ببسالة ، قتال رجل لرجل وبالسلاح الأبيض إذ إن نفاد الذخيرة لم يجعل الجنود يرفعون أيديهم فى الهواء مستسلمين .

وأصيب خلال ذلك الملازم جولد شميت إصابة خطيرة ، أجريت له على إثرها عملية جراحية ، ولكنه لفظ خلالها أنفاسه الأخيرة . وانفجرت قذيفة فى ذراع الملازم كوفينيه ، فاضطروا لبتر ذراعه . وأصيب كذلك الملازم داشيه الذى استطاع برغم ذلك الوصول إلى مركز الإسعاف .

وفى (نوف مولان) – كان القومندان لايندر قد أقام مقر قيادته بين خطى الهضاب داخل وكالة البريد التى تديرها مارى هورنى التى تقيم فيها مع ولدها روبير ووالد زوجها العجوز . ومن على بعد ثلثمائة متر فتح الألمان النار عليها ، غير أن مدافعهم الرشاشة كانت مزعجة بغير فعالية .

وراح القومندان لايندر يتنقل بين جنوده تحت طلقات النيران ليحث كلا منهم على التشبث بموقعه ، ثم جرد مسدسه ، ثم بدأ ومعه كل من الملازمين روبييه وبونفاى وحفنة من الجنود فى الهجوم . وخلال عشر دقائق استمر هذا الهجوم المضاد بعنف ، غير أن سقوط ضباط اللواء السابع والثلاثين أخذ يتزايد باستمرار ، وتلقى روبييه رصاصة فى ذراعه ، وأصيب بونفاى إصابة قاتلة ، وراح يئن أنيناً عالياً على حين كان الجنود يحملونه على أيديهم .

وأمام مصنع الأسمنت تعرضت فصيلتان فرنسيتان للحصار ، وأخذ الألمان يعبرون بأعداد كبيرة القناة فى قوارب المطاط ، وبدءوا يسكتون المواقع على الضفة الجنوبية بالقوة . ولكى يجبروا جنود اللواء السابع والثلاثين على الخروج من المنازل التى يقاتلون منها أشعلوا فيها النار ، فاضطر الفرنسيون إلى الاستسلام .

* * *

وفى (نوف مولان) ازداد ضغط الألمان فأمر الكولونل الفرنسى لايندر بتدمير محطة الإرسال ومركز التلغراف . وأحرق الوثائق فى مدفأة مدام هورنى على حين كانت قعقعة الأسلحة الأتوماتيكية المعادية على بعد خمسين متراً .

لكن الألمان بدورهم أصبحوا فى حالة الإرهاق التى أصابت الفرنسيين فخفت وطأة هجماتهم ، على حين نشطت المدفعية الفرنسية مرة أخرى ، فاضطروا أمامها إلى الاحتماء وراء المرتفعات . وهنا انتهز الكولونل كومبيه الفرصة ، وراح يعد قائمة أولى بنتائج المعركة ، فكانت كما يلى : « بعد معركة استمرت أكثر من تسع ساعات فإن خطنا الأول لم يعد له وجود ، وقد بقى من الكتيبة الأولى ثلاث فصائل واحدة منها سليمة ، ومن الكتيبة الثانية فصيلة واحدة » .

وفى بلدة (لوركان) حيث لجأ السكان المدنيون إلى الكهوف ، تكون وفد من عمدتها وأسقف كنيستها ومدير مدرستها ، وجاء للقاء الكولونل كومبيه ، لكى يرجوه أن يتجنب القتال داخل البلدة لوجود عدد كبير من النساء والأطفال فيها . وقد التزم الكولونل أمامهم بعمل المستحيل ، حتى تظل المعارك مقصورة على مخارج البلدة .

وفى هذه اللحظة نفسها جاءه نبأ جديد زاد من اضطرابه : فقد قتل قائد الكتيبة الثالثة ، على حين كان رجال الإسعاف ينطلقون بنقالاتهم لحمل الجرحى .

واستمرت المدفعية الألمانية فى قصفها ، على حين لم يستطع مشاتهم الذين أصابهم الكلل مهاجمة الكتيبة الفرنسية الثالثة فى موقعها فوق الهضبة الثانية وفى الساعة ٢٠,٠٠ أبلغ الجنرال شاستانل الكولونل كومبيه ، أن الألوية الثلاثة التابعين للفرقة سوف تفض الاشتباك فى الليل ، لكى تعيد تنظيم نفسها على بعد خمسة عشر كيلو متر إلى الوراء .

وكان ذلك معناه ليلة أخرى بغير نوم بالنسبة لجنود اللواء السابع والثلاثين وفى الساعه ٢٣,٣٠ غادر الكولونل كومبيه والكابتن مونتيرو مقر العمدة فى بلدة (لوركان) ، وقدر للواء السابع والثلاثين ، أو من تبقى منه ، أن يحارب عدة أيام أخرى ، ثم ينضم يوم ٢٤ من يونية إلى المجموعة الثالثة والأربعين التى استسلمت نهائيًا ، بعد أن قدم الألمان «التكريم العسكرى» لقائدها الجنرال (ليسكان) .

الفصل التاسع عشر

جسر بعيد .. بعيد .. بعيد ..

نحن الآن فى أوائل شهر سبتمبر ١٩٤٤ ، والجنرال دوايت آيزنهاور القائد الأعلى للقوات المتحالفة الذى يناديه أصغر جندى يعمل تحت إمرته باسم التدليل «آيك» ، يدير الحرب على أعلى درجة من الإتقان .

فلقد وضع تحت تصرفه العدد الكبير من السفن ، والعدد الوافر من الطائرات ، والمقادير الهائلة من الوقود ؛ لكى يكسب معركة نورماندى التى فقد فيها الألمان نصف مليون رجل ، وأكثر من ألفين من الدبابات ! لقد وقعت اشتباكات طويلة بين الجيش فى البر أظهرت فيها قوات الحلفاء شجاعة غير منكورة من أجل أن تتغلب على بضع فرق من قوات متعصبة أصابها الكلال .

أما الآن –وتحت أشعة شمس الصيف المحرقة – فإن هذه القوات أخذت فى الانسحاب ، وبدا كأنما قد ضلت الطريق ! والواقع أن جنود هتلر الذين كانوا قبل ذلك هم المدافعون عن « حائط الأطلنطى » – راحو يتدفقون متراجعين نحو الشرق ونحو الشمال . ولكى يطاردهم (آيك) ويقتفى أثرهم – فإنه اتبع أسلوباً جديداً فى تعقبهم معتمداً فى ذلك على رجلين : مونتجومرى وباتون .

ويبدو أن هذين الجنرالين البريطانى والقادم من كاليفورنيا قد خرجا من مصنع صلب واحد : فكل منهما دءوب على الكد ، له مطامح واسعة ، مفتون بالجسارة إلى حد الجنون ، بالإضافة إلى قدر لاحد له من الكبرياء . لقد مارسا حرب التحركات السريعة فى أفريقيا ، ويريدان الآن الانتقام للوقت الطويل الذى قضياه وقد تسمرت أقدام قواتهما فى الأرض عقب الهبوط فى نورماندى .

واجتاز الرجلان فرنسا وبلجيكا بأسرع مافى قدرة قواتهما المدرعة ، ثم أسرعا بالاندفاع إلى ماوراء (ميتز) و (أنفرس) ؛ لكى يعبرا نهر الراين ، وينقلا الحرب إلى قلب ألمانيا نفسها . وقد اعتقد الجنرال باتون أن فى استطاعته اقتحام خط (سيجفريد) من الأمام ، على حين رأى الجنرال مونتجومرى أن الفرصة أمامه أكبر ، إذا هو استطاع أن يدور حول هذا الخط من ناحية الشمال . وفى اختصار كان يريد أن يبعث من جديد لمصلحته الحرب الخاطفة التى شهدها العالم عام ١٩٤٠ ، ولكن فى الاتجاه المضاد .

ومن الطبيعى أن يكون كل من القائدين يغار من الآخر ، بل إنهما كانا فى الواقع يكرهان بعضهما البعض ، أما (آيك) فقد كان يقوم بدور الحكم بينهما . لقد كان يصغر قائديه بحوالى ستة أعوام ، ولم يكن قد أكمل الخمسين من عمره بعد ، وينحدر من أسرة من التجار الهولنديين الذين انتقلوا منذ زمن بعيد إلى الناحية الأخرى من الأطلنطى ، ويعرف على وجه الدقة كيف يحسب الفرص المتاحة له ؟

كان آيزنهاور يعرف إذن أن خطوط مواصلاته بالغة الطول ؛ إذ بلغت أكثر من خمسمائة كيلو متر انطلاقاً من شواطئ نورماندى ، ويعتقد أن العتاد والرجال فى حاجة إلى وقفة يلتقطون فيها الأنفاس بعد هذه المذبحة الرهيبة التى تحولت فجأة إلى نزهة عسكرية . ثم إن الألمان قد أقاموا على نحوما خطًّا جديداً على الجبهة ، يمتد من جزر (زيلند) حتى جبال (فوسج) فى محاولة أخيرة منهم للتشبث بآخر موقع ، قبل أن يتراجعوا إلى داخل ألمانيا نفسها .

وتركز نشاط المقاومة الهولندية فى هذا الوقت على إنزال ضربات تحدث الاضطراب فى صفوف الألمان خلال انسحابهم . غير أنها بدأت تتعرض للقمع عندما أخذ مونتجومرى يتخيل خطته التى ينوى تنفيذها ؛ إذ إن المارشال العتيد

فون رونشتت استطاع بحنكته الفذة أن يعيد النظام إلى هذه الجبهة الغربية التى أعادوه ليتولى قيادتها مرة أخرى يوم ٥ من سبتمبر. وقد تمكن بالفعل من تدعيمها ، فبدأت تشكل مرة أخرى القوة الرئيسية فى الجيش الألمانى ، برغم نقص ماكان لديه من دبابات وطائرات !

وفى مواجهة هذا الضابط البروسى القدير الذى تشرب العسكرية الجرمانية حتى أطراف أظفاره ، كان يقف مونتجومرى ، أو (مونتى) كما كانو يسمونه ، الذى انحدر من أسرة من سكان الأحراج البروتستانت الذين فروا من نورماندى بعد الحروب الدينية القديمة ، والذى أصبح بالبريه الأسود الشهير الذى يضعه على رأسه رمزاً للإستراتيجى الحصيف ، وقد قرر أن يضع خطته الخيالية موضع التنفيذ .

* * *

كانت خطة مونتجومرى ، التى لقى صعوبة فى إقناع الجنرال آيزنهاور الحريص بطبعه بسلامتها – تبدو ذكية إلى الحد الذى قد لا يمكن تنفيذها على أرض الواقع ، وجسوراً إلى درجة تبعث على الخوف . ولم تكن تتطلب سوى شىء واحد لنجاحها . هو ألا يقف فى وجهها أى شىء يعترضها .

ولقد راهن (مونتى) على استمرار الطقس المعتدل . وعلى التيقن من وجود جسر جوى يشد من أزره . وعل سيطرته الكاملة على المناطق التى يهبط فيها جنود المظلات . وعلى حرية المرور فوق الأنهار والقنوات . بل إن هذه الخطة كانت تتطلب بصفة خاصة ألا يعترض الألمان سبيلها .

والواقع أنها فى مجموعها قامت أساساً على فكرة عبقرية من مونتجومرى . تضمنت مايلى : أن ينطلق من (آرنهيم) التى على نهر الراين السفلى للقيام بحركة التفاف واسعة فى الاتجاه (شرق / جنوب / شرق) نحو وادى الرور . وهو

ترسانة القوة الاقتصادية والعسكرية للرايخ الألمانى ، ثم احتلال شمالى ألمانيا كله . بل والانقضاض على برلين !

غير أنه لكى ينطلق من (آرنهيم) كان عليه أولاً الوصول إليها ، وبعد ذلك وهو الأهم — تثبيت أقدامه فيها .

وفى اليوم الثالث من سبتمبر ١٩٤٤ . استولى البريطانيون على بروكسل . واحتلوا فى اليوم التالى أنفرس . واختار (مونتى) العاصمة البلجيكية . لكى يقيم فيها قرية من الخيام ، هى مقر قيادته العامة . وما إن استقر فيها ، حتى عاود المساعى للحصول على تصريح بتنفيذ خطته ، فعمد إلى إغراق آيزنهاور بالرسائل يلح فيها عليه للموافقة عليها ، مركزاً فى ذلك على ضرورة التخلى عن سياسة الجبهة العريضة ، وتكثيف كل الجهود فيما أسماه « الضربة الواحدة » .

وبينما كان الأمير برنار ولى عهد بلجيكا يزوره ذات يوم أسر إليه قائلا : « إننى أخطط لعملية كبيرة محمولة جوًّا فى بلادكم ، تقوم بها قواتى » .

وقرر آيزنهاور أخيراً أن يذهب بنفسه إلى بروكسل يوم ١٠ من سبتمبر ؛ لكى يناقش مونتجومرى فى هذه الخطة . وكان الحديث بينهما عاصفاً : على الأقل فى بدايته . فقد ملك القائد الأمريكى أعصابه بعد فترة . وقال : « رويدك يامونتى . . . لا يمكن أن تحدثنى بهذه اللهجة . فأنا رئيسك ! »

لكن الجنرال البريطانى لم يتراجع أمام هذا الوعيد من رئيسه ، ومضى يعرض عليه خطته . فلما انتهى من ذلك — أجاب آيزنهاور فى عنف : « يبدو أنك فقدت صوابك ! »

ولانت حدة مونتجومرى ، وقال فى استعطاف : « أعطنى ما يلزمنى يا آيك . وسوف أصل إلى برلين فى نفس واحد !

أما ما كان يلزمه فقد جعل آيزنهاور يبهت مذهولاً لدى سماعه . ذلك أنه

طلب استخدام ثلاث فرق ونصف فرقة من القوات المحمولة جوًا ، هى مجموع مالدى الحلفاء من قوة صدام . إلا أن فكرة اجتياز نهر الراين واحتمال تحقيقها قد أثرت فى آيزنهاور وفتنته ، فظل يتأملها فى خياله فترة . ولم يلبث أن قال : « حسناً يامونتى ، سأعطيك ماتريد ، إلا أن عليك أولاً أن تقيم لنفسك رأس جسر . ومتى عبرت النهر فسوف تحدثنى عن باقى الخطة » .

والواقع أنه بينما كان آيزنهاور يعطى أمراً للقيام بعملية محدودة - كان مونتجومرى يرى أنه حصل على الضوء الأخضر الذى يتيح له الانطلاق ! لذلك لم يضيع دقيقة واحدة . واستغرق على الفور فى العمل .

* * *

لكى يحقق مونتجومرى خطته فإنه اعتمد أولاً على واحد من مواطنيه . هو الجنرال براوننج مساعد الجنرال بريرنتون الأمريكى قائد الجيش الأول المحمول جوًا للحلفاء . وبراوننج هذا المتزوج من الكاتبة الروائية دافنى دى موريية - يبدو كأنه خرج لتوه من أحد الرسوم العصرية . فهو بشاربه الرفيع . وعلاماته الحمراء . وحمالة سلاحه الجلدية . وقامته المعتدلة - كان يمثل الرجل البريطانى أصدق تمثيل . وفوق ذلك كان واحداً من قدامى جنود المظلات فى بلاده . وخاض تجارب كثيرة فى الحرب التى اعتادها أولئك الذين يعرفون باسم « الشياطين الحمر » .

وقال براوننج يسأل مونتجومرى بعد أن عرض عليه المهمة : « وكم من الوقت سوف ينقضى . قبل أن تلحق بنا الدبابات ؟ » . فأجابه قائلاً : « يومان » . فأردف هو : فى إمكاننا الصمود أربعة أيام » . ثم مالبث أن أضاف : « أخشى ألا نكون ذاهبين إلى جسر بعيد . . بعيد ! » .

وأصبح للعملية اسمها السرى . وهو يتكون من جزأين ، إذ كانت تتكون

من هجمتين تتمان معاً : أما الجزء الأول فسمى (السوق) ، ويرمز إلى المرحلة المحمولة جوًّا ، وأما الآخر فأطلق عليه اسم (الحديقة) ، وهو مرادف للعملية البرية . وقد تقرر أن تتم جميع الاستعدادات للقيام بالعملية ، وتحدد يوم الأحد ١٧ من سبتمبر موعداً للتنفيذ ، على أمل أن تكون الظروف الجوية فيه ملائمة .

وسمح فى الخطة بيومين للجنرال هورروكس الذى يتولى قيادة الفيلق الثلاثين التابع للجيش البريطانى الثانى ؛ لكى يصل خلالهما إلى الحدود البلجيكية الهولندية عند (آرنهيم) . وقد صدر إليه الأمر بأن ينطلق ناحية الشمال . بكل قوة محركاته فى الطريق الوحيد المتاح ، وأن يدمر كل ما يعترض سبيله .

أما الجزء الذى أطلق عليه اسم (الحديقة) فتعين أن يجرى تنفيذه على نمط حملات الفروسية . وكان (هورروكس) وهو ضابط نشيط محب للفكاهة ويتحدث بلهجة حادة النبرات – يعرف أنه ليس فى إمكانه أن ينجح فى عملية الاختراق الخيالية هذه إلا إذا أمكن القوات المحمولة جوًّا الأمريكية والبريطانية أن توفق فى الاستيلاء على جميع الجسور قبل أن يدمرها العدو . وتتمكن من الاحتفاظ بها برغم الهجمات المضادة التى سيقوم بها الألمان حتماً .

وورد على لسان أحد ضباط أركان حربه تعبير جميل . وهو يتحدث عن الجسور السبعة التى يتعين عبورها قبل الاتصال بقوات المظلات التى ستهبط فى آرنهيم ، إذ قال : « لسوف يكون الأمر كمحاولة لإدخال خيط واحد فى سبع إبر ! »

وساءل هورروكس نفسه : هـل سينجح فى فتح هذا الممر الطويل ، القائم على طريق محورى واحد ، والذى سوف يقتحمه بطول مائة كيلو متر ، داخل الخطوط الألمانية ؟ ثم وجد أنه يتعين عليه على أى حال أن يجتاز هذه الخطوط

أولاً . وبعد ذلك سوف يخطط لهجوم مدرعات الحرس الآيرلندى الذى يتولى قيادته الكولونل جو فاندلر .

* * *

بينما كان الفيلق الثلاثون يعد نفسه للهجوم الذى سيقوم به انطلاقاً من بلجيكا -- عقد مؤتمر لأركان الحرب ضم ضباط الجيش الأول المحمول جوًّا فى قيادتهم بالقرب من ميدان سباق (إسكوت) الشهير على بعد خمسين كيلو متر من لندن .

ووقف الجنرال بريريتون يقول : « أيها السادة ، إن أمامنا أسبوعاً بالضبط للاستعداد لأكبر عملية محمولة جوًّا فى التاريخ ! » .

والواقع أن العملية كانت تشمل فى البداية إلقاء خمسة وثلاثين ألفاً من جنود المظلات وقوات المشاة فى قلب المعركة : أى ضعف العدد الذى استخدم فى الهجوم على شواطئ نورماندى . وكانت الخطة تقضى بأن يكون الجنرال ماكسويل تايلر ، ومعه الفرقة ١٠١ الأمريكية أقرب مايكون من خطوط الحلفاء ، فقد كان سيقفز إلى الشمال من آيزنهاور بين قناة (فيلهماين) وقناة (زويد فيلم فارت) .

أما الجنرال جيمس م . جافن ، ومعه الفرقة الثانية والثمانون فقد كان عليه أن يطهر المنطقة التى بين (جريف) و (نيميج) ، ويؤمن العبور على نهر الموز ، وعلى قناة الموز عند (وال) ، وعلى نهر وال نفسه .

وأما الجنرال روى أوركوهارت فإنه يتولى قيادة الفرقة البريطانية المحمولة جوًّا ، التى ستلقى شمال النهر وغربى آرنهيم ؛ لكى يستولى على هذه المدينة وعلى جسرها المقام على نهر الراين السفلى .

ويبلغ عرض النهر فى هذا الموقع أربعمائة متر ، على حين أن الجسر المقام عليه

أطول من سمائة متر ، وكان من المقرر أن تجرى المعركة الفاصلة عند آرنهيم ؛ إذ إن الخطة التى وضعها مونتجومرى لن تبدأ تعطى ثمراتها إلا بعد اجتياز هذا النهر .

وقال الجنرال براوننج : « روى ، لقد ادخرت لك الجزء الأكبر من العملية » . ولم يبد قائد الفرقة البريطانية الأولى المحمولة جوًّا إلا حماساً نسبيًّا ، لقد كان رجلاً اسكتلنديًّا هائل الحجم ، يبلغ طوله ١,٨٠ من المتر ويزن تسعين كيلو جرام ويغطى جانبا كبيراً من وجهه شارب كث قاتم اللون .

ذلك أنه كان يفكر فى أن قيادة عشرة آلاف رجل لخوض عملية فى مثل هذه الجسارة لا تجعله حتى أن يبتسم ، وهو الذى لا يتوقف عن الفكاهة والابتسام .

قال : « من المتفق عليه بطبيعة الحال — أننى سأتلقى سريعا تعزيزاً من جانب لواء المظلات البولندى الذى يقوده الجنرال سوزابوفسكى ؟

والواقع أن هذه القوات كان يتعين إنزالها على الضفة الجنوبية لنهر الراين السفلى فى موقع يكاد يكون مواجهاً للمنطقة التى سيقاتل فيها روى أوركوهارت . وقد طمأنه الجنرال براوننج قائلاً : « طبعاً طبعاً . ولسوف نستخدم خمسة آلاف طائرة نصفها من الطائرات الهيكلية . وسوف تحصل فور هبوطك إلى الأرض على سيارات جيب ومدافع وهاونات ثقيلة ؛ كما أنك ستزود بالمؤن والذخيرة طوال العملية التى لن تستغرق سوى يومين على الأكثر » .

وقبل أن يختتم براوننج مؤتمره هذا أضاف فجأة كما لوكان ما سيقوله أمراً قليل الأهمية : « وبالمناسبة . . فإن العملية سوف تتم نهاراً » .

وشعر جميع الضباط بشىء من الذهول ، ولكن الجنرال راح يقول : « إن

سلاحنا الجوى له السيطرة المطلقة على الأجواء ، وعلى أية حال فإننا فى فترة لايظهر خلالها القمر ليلاً ، وليس فى إمكاننا إلا أن نعمل نهاراً » .

كان هذا الجنرال الذى اختير لكى يتولى تنفيذ عملية (السوق) براً يبدو واثقاً تمام الثقة من نفسه ، ولم يخف ارتياحه لأنه أزاح منافسه الجنرال ريدجواى عن القيام بهذا الدور . وأخذ يتفرس برهة قصيرة فى وجوه الحاضرين ، ثم قال معلناً انتهاء الاجتماع : « إننا سوف ننشر بساطاً من القوات المحمولة جواً ، وفوق هذا البساط سوف تتقدم قواتنا البرية » .

* * *

غير أن الواقع سرعان ماسوف يكذب هذه الرؤية المتفائلة . فلقد تبين أن النقص فى عدد الطائرات الهيكلية والطائرات كان كبيراً ، مما لم يتح إلا لنصف قوات براوننج فقط بأن يحملوا جوًّا فى يوم المعركة ؛ إذ إن مشروعاً يقضى بالقيام يوميًّا برحلتين ذهاباً وإياباً لم يمكن تنفيذه ؛ لأن النهار كان قصيراً . ثم إن هناك خمسمائة كيلو متر بين مطارات الانطلاق ، والمناطق التى تهبط فيها قوات المظلات .

وبينما كان يتعين إنزال رجال الفرقتين الأمريكيتين دفعة واحدة ، لأنه من غير المجدى الاستيلاء على جسر آرنهيم إذا لم يكن الأمريكيون قد نجحوا قبل ذلك فى احتلال الجسور المقامة على نهر الموز والوال – فإن القوات البريطانية سوف يتم إنزالها على يومين ، وخلال ثلاث طلعات متباعدة .

وكان ذلك بالنسبة لهم ينطوى على مجازفة واضحة ؛ فإن العدو يمكن أن يمتلك نفسه ، بعد وصول الموجة الأولى .

وشعر روى أوركوهارت بالقلق ، ولم يخف ذلك على الكولونل ماكنزى رئيس أركان حربه ؛ إذ قال له : « بساط من القوات . . هل سمعت قبل هذا

مثل هذا التعبير الغبى ؟ إننى أخشى أن يتحول إلى بساط من الجثث . . . ! »

إن هذا الأسكتلندى الذى عهد إليه بقيادة فرقة كاملة محمولة جواً لم يسبق له قط أن قفز بالمظلة قط ، وكان عليه أن يذهب إلى ميدان القتال فى طائرة هيكلية ، على حين يعانى من دوار الجو . إلا أن التجربة التى خاضها فى ليبيا وفى إيطاليا بدت له كافية لكى يصل بأولئك الذين عليهم الاستيلاء على آرنهيم إلى النجاح .

لقد كان يشعر بالغضب ؛ لأنهم لم يستخدموا فرقته فى معركة نورماندى ، على حين أن الفرقة المنافسة له وهى الفرقة السادسة المحمولة جوًّا – قد حققت الكثير من المجد . وقد أحس من جراء ذلك بالخوف من هبوط الروح المعنوية لدى رجاله ، إذا هم لم يخوضوا سريعاً القتال . وكان ذلك على وجه التحديد هو ماجعله لا يحتج بعنف على الاستخفاف الذى سوف تعمد القيادة العليا إلى استخدام فرقته به على بعد أكثر من مائة كيلو متر إلى الوراء من الجبهة .

وقد بقى عليه الآن أن يحدد نقطة رئيسية هى : أين يهبط ؟

إن الأراضى التى على حافتى جسر آرنهيم مباشرة يبدو أنها تتمتع بدفاعات ألمانية قوية ، فيجب والحالة هذه أن يستقر على اختيار بقع من الأرض البور التى بعضها على بعد ثلاثة عشر كيلو مترٍ من الجسر العتيد الذى يشكل الهدف الأساسى لفرقته ، إلا أن التجارب قد علمته أن الهبوط إلى جوار الهدف ميزة أكبر .

وبعد تفكير طويل قال روى أوركوهارت لرجاله : « هذه هى أوامرى : فى يوم الهجوم على اللواء الأول بقيادة الجنرال هيكس أن يحتل الأرض ، على حين أن اللواء الأول مظلات بقيادة الجنرال لاثبورى عليه أن يزحف نحو المدينة والجسر ، تتقدمه كتيبة الاستطلاع الميكانيكية بقيادة الميجور جوف سائرة وراء

الطائرات الهيكلية ، وفى يوم الهجوم + ١ تصل التعزيزات من اللواء الرابع مظلات بقيادة الجنرال هاكيت ، وفى يوم الهجوم + ٢ يصل اللواء البولندى بقيادة سوزابوفسكى ، وبما أننا سنكون عندئذ قد استولينا على المدينة فإن قوات المظلات يمكنها القفز فوق المنطقة الجنوبية من نهر الراين على بعد بضع مئات الكيلومترات من الجسر الذى سيكون عندئذ بين أيدينا » .

غير أن القائد البولندى بدا أكثر الحاضرين ارتياباً فيما قد يترتب على محاولة اجتياز الراين عند آرنهيم ، فصحبه أوركوهارت إلى الجنرال براوننج وتحدثا معه فى الموضوع ، لكن هذا أجابهما فى ثقة : « إن الشياطين الحمر يستطيعون أن يفعلوا أى شىء ! » .

* * *

راح الجنرال براوننج يؤكد – كغيره من الذين تقبلوا مسئولية هذه الخطة – أن القوات الألمانية التى سوف تعترض قوات الحلفاء المحمولة جوًّا لن تكون مكونة إلا من غلمان وكهول ! ولم يشأ أن يصدق إمكان رؤية وحدات مدربة على الحرب ، وقد انبثقت من الأرض .

وقد قدم إليه أحد ضباط المخابرات صوراً التقطتها دورية جوية استطلاعية ظهرت فيها بوضوح دبابات مخبأة تحت فروع الأشجار ، ولكن براوننج نحاها جانباً ، وقد بدا عليه الاحتقار وهو يقول : إنها قطعاً لاتستطيع التحرك من أماكنها ! » .

وقيل له : « ليس هناك ما يثبت ذلك ، ولكن المؤكد أن فيها مدافع » .

لم يستطع أحد أن يؤثر فى التفاؤل السائد فى قيادة الجنرال براوننج العامة . أما ضابط المخابرات الذى جاء بتلك الصورة فقد وضعوه ببساطة فى المستشفى على اعتبار أنه ضحية لانهيار عصبى مزعوم !

والأكثر خطورة من ذلك أن الجنرال سترونج رئيس مخابرات الحلفاء قد أبلغ آيزنهاور أن فرقتين مدرعتين تابعتين لقوات العاصفة شوهدتا فى القطاع ، حيث ستجرى عملية (السوق والحديقة) . ولكن (آيك) قد أعطى مونتى الضوء الأخضر ، ويخشى أن يثير غضب المارشال البريطانى إذا هو أدخل تعديلاً على الخطة ، أو ألغى العملية .

إن أحداً لم يشر قبل ذلك إلى هذا الفصل من تاريخ الحرب العالمية الثانية ، الذى أقدم فيه القائد الأعلى لقوات الحلفاء على هذه المجازفة الخطيرة ، لمجرد أن يتجنب إثارة حنق أحد مرءوسيه . فهل كان ذلك من قبيل الجبن ، أو من قبيل المفهوم الديمقراطى لدى القيادة العليا ؟

لقد اكتفى آيزنهاور بأن بعث الجنرال سميث إلى مونتجومرى ، وهناك وقع مشهد آخر كان بدوره مما لم تتناوله الكتب ، وفيه رئى مع ذلك بطل موقعة « العلمين » وهو يكرر بغير مبالاة : أن مدرعات الألمان لا تسبب له قلقاً على الإطلاق ! ثم قال : « إن عملية (السوق والحديقة) سوف تجرى على أحسن مايرام » .

وإذا كان المؤرخون قد أعفوا الحلفاء من ذكر الكثير من الأخطاء التى وقعوا فيها فإنهم قد صوروا الألمان فى صور كاريكاتيرية كثيرة : ومن ذلك مافعلوه بصورة المارشال (مودل) قائد مجموعة الجيوش ب الألمانية ، إذ جعلوا منه شخصية مضحكة ، على حين أنه كان من أبرز الشخصيات التى يخشى بأسها فى الحرب مع الرايخ الثالث ، وكان فى هذه الموقعة بالذات هو المهندس الأكبر للهجوم الألمانى المضاد الذى بدأ فور وصول القوات الأمريكية والبريطانية المحمولة جواً إلى الأرض .

* * *

لقد أقام المارشال مودل قيادته العامة فى فندق (هارتنشتاين) فى أوستربيك ، وهى قرية على بعد بضعة كيلو مترات إلى الغرب من آرنهم . وكان أول ما اعتنى به أن أنشأ لنفسه احتياطياً قوياً ، وبعث يطلب أن يرسلوا إليه فى هولندا اثنتين من أفضل الوحدات المدرعة فى قوات العاصفة ، هما الفرقة التاسعة والفرقة العاشرة اللتان كان عليهما أن ينسلخا تدريجاً من القتال ، ثم يتوجها شمالاً لإعادة تنظيمها ومدهما بالعتاد .

وتشكل هاتان الفرقتان اللتان اشتركتا فى معركة نورماندى حيث اختبرتا اختباراً عنيفاً فى إقليم كاين الفيلق الثانى المدرع التابع لقوات العاصفة التى يتولى قيادتها الجنرال فيلهلم بيتريش . وكان هذا طياراً قديماً فى حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، ثم انتقل إلى قوات العاصفة ، واعتبر من أفضل الجنرالات الشبان ، وتولى قيادة فرقة الفرسان « فلورمان جايير » . وقد عرف عنه أنه رجل اقتحام ، وتميز بالعنف والرقة معاً ، كما اعتاد أن يسخر من الأفكار السياسية الحديثة فى رئاسات قوات العاصفة التى لم يستطع أن يمنع نفسه من توجيه النقد إليها .

وقد ظل برغم كل شىء فارساً على أفضل ما يكون الفرسان ، ومع أنه أقام مقر قيادته فى (دويتنجن) فإنه لم يعد يقود سوى فيلق ظل ! ولم يقتصر الأمر على أنه لم يتلق أى تعزيز ، وإنما تلقى أمراً بإرسال « مجموعتى قتال » إلى الجبهة عند الحدود البلجيكية الهولندية ، بل إن هناك ما هو أكثر من ذلك ؛ إذ كان على الفرقة المدرعة التى لديه أن تركب القطار المتجه إلى ألمانيا ؛ لكى يعاد تنظيمها هناك .

وفى يوم ١٦ من سبتمبر لم تعد هذه الفرقة تضم سوى ألف وخمسمائة رجل فى حالة تمكنهم من الرحيل ، كان عليهم قبل مغادرة هولندا أن يحولوا عتادهم المدرع إلى فرقة أخرى لا تضم بدورها غير ثلاثة آلاف مقاتل .

ومن سوء طالع الحلفاء أن كان خمسة أو ستة الآلاف المحاربون من جنود العاصفة تحت قيادة الجنرال بيتريش مرابطين فى منطقة آرنهم – نيميج . فى النقطة الحيوية بالنسبة لعملية (السوق والحديقة) .

وفى يوم الهجوم الموافق الأحد ١٧ من سبتمبر ١٩٤٤ اتخذت أربعة آلاف وسبعمائة طريقها فى الجو منطلقة من اثنين وعشرين مطاراً فى بريطانيا . وقد تضمنت هذه الأرمادا الجديدة ثلاثة طوابير عرضها ستة عشر كيلومتر ، وطولها مائة وخمسون .

كان الوقت يوشك أن يكون الظهر على حين طار إلى الأهداف الثلاثة المحددة فى هولندا عشرون ألف جندى وخمسمائة سيارة ، وأكثر من ثلثمائة قطعة مدفعية ، ومايقرب من ستمائة طن من العتاد . وكان الطقس صحواً .

وطوال الصباح تولت القوات الجوية البريطانية والأمريكية « تمهيد » أرض المعركة . وقد استخدمت فى ذلك التكتيك الذى استخدم هو نفسه فى نورماندى ، برغم ما حمل من موت للمدنيين ! وقد أغفل المؤرخون أن يذكروا أن عملية « السوق والحديقة » كلفت الهولنديين عشرة آلاف مابين قتيل وجريح . . .

* * *

قفزت الفرقة ١٠١ المحمولة جوًّا التى يقودها الجنرال تايلور والتى تعرف باسم « النسور المنقضة » تماماً كما تفعل فى المناورات . وقد هبط رجال المظلات دونما متاعب ، ولكن سبع عشرة طائرة هيكلية قد فقدت من عددها الكلى وهو سبعون طائرة . ومع ذلك فإن هذا الهبوط قد اعتبر بعد كارثة القفز الليلى يوم ٦ من يونية ١٩٤٤ نجاحاً كبيراً .

وعندما شاهد أحد الخبراء فى هذا المجال وهو الجنرال كورت شتودنت الذى

أنشأ سلاح المظلات الألمانى – هذا الأسطول الجوى الضخم ماراً من فوقه حاملاً إلى شمالى (آيندهوفن) رجال الفرقة ١٠١ ، لم يفعل إلا أن قال فى شيء من الحسد : « آه ! لوكان تحت تصرفى مثل هذه الأدوات ، ولو ليوم واحد فحسب ! »

وفى حوالى الساعة ١٣,٣٠ هبطت إلى الأرض الفرقة الأولى المحمولة جوًّا التى يقودها البريطانى أوركو هارت ، فى منطقة (فولفهيز) على بعد حوالى عشرة كيلو مترات إلى الغرب من آرنهيم ، وكان هذا الهبوط فى أفضل الظروف ، فلم ينقص ذلك حتى النافخون فى القواقع ، وهم الذين جرت التقاليد على أن يكونوا مع قوات المظلات الهابطة من السماء ، ولكن الذى نقص ، هو مجرد عشرين سيارة جيب ، حُرِمَتْهَا كتيبة الاستطلاع التى سيقودها الميجور جوف .

وشرع جنود المظلات فى كتائب المشاة الثلاث التى يتكون منها لواء الجنرال لا ثبورى فى التقدم سيراً على الأقدام نحو آرنهيم ، ولكن الألمان ظلوا متوارين عن الأنظار ، فلم يكن لدى المارشال (مودل) سوى الوقت الكافى لكى ينقل مقر قيادته من فندق هارتنشتاين .

وراح البريطانيون يتقدمون نحو آرنهيم ، ولكن سرعان ما توقفت أجهزة الراديو فى وحدات الفرقة المحمولة جوًّا عن الاتصال ، وأعقب ذلك خطأ فى التردد ، فأصبح مستحيلاً على أوركو هارت أن ينادى سلاح الطيران الذى قد يستطيع أن يتيح له الاتصال بأركان الحرب المسئولة عن عملية « السوق والحديقة » . وقد وجد هذا الضابط الأسكتلندى أنه لا يستطيع لا قيادة قواته ولا حتى الإبلاغ عن أنبائه ! .

وفيما بين تايلور فى الجنوب وأوركو هارت فى الشمال – قفز الجنرال جافن مع الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جوًّا فى منطقة (نيميج) بالقرب من نتوء رايشفالد

عند الحدود الألمانية ، وهبط جنود فرقة (الكل أمريكيون) دون خسارة تذكر ، ونزلت بينهم الطائرات الهيكلية الأربعون التى جاءت بهيئة قيادة الجنرال براوننج كبير المسئولين عن هذه العملية .

وعلى الفور ، انشغل براوننج بالاتصالات اللاسلكية ، فوجد أنْ لاَ أمل فى سماعها . وكل ما استطاعه أن احتفظ بمجرد الاتصال بالفرقة الثانية والثمانين التى بالقرب منه ، ولكن من المستحيل أن يتصل بالفرقة ١٠١ فى آيندهوفن ، ولا بالفرقة البريطانية الأولى فى آرنهيم . وقد استحال عليه كذلك أن ينادى الفيلق الثلاثين الذى يقوده الجنرال هورروكس الذى كان يتعين أن يبدأ تحركه نحو الشمال .

كان براوننج يجهل أنه يكفى أن يرفع سماعة التليفون لكى يعوض أجهزة اللاسلكى إذ إن الشبكة كانت تعمل بدقة فى جميع أرجاء هولندا . وقد حاول بعض عملاء المقاومة إبلاغه ذلك ، ولكن لا أحد أصغى إليهم . ومنذ استولى الألمان على هولندا ووضعوا أيديهم على شبكة الاتصالات اللاسلكية الخاصة بالمقاومة فيها ، وتضليل المخابرات السرية للحلفاء عن طريقها شهوراً طويلة — أصبحت هذه المقاومة موضع الريبة والاشتباه ؛ فقد اكتشف بعد التحرير على سبيل المثال أن أحد كبار المشهورين فيها — وهو ليندمان الذى كان يعرف فى هذه الأوساط باسم « كنج كونج » — لم يتوقف لحظة عن خيانتها . غير أنهم لم يبلغوه على ما يبدو ، من عملية « السوق والحديقة » — إلا إسقاط المظليين فى (نيميج) .

وفضلاً عن ذلك فإن من المرجح أن الألمان قد وقفوا منذ اليوم المحدد للمعركة — على الخطة الكاملة للعملية داخل حقيبة أحد ضباط هيئة الأركان الذى أسقطت الطائرة الهيكلية التى كانت تُقله .

على أن هذه القصة ، كما يقول البعض لا تعدو أن تكون أسطورة ، ومهما يكن من أمر فإن الحلفاء قد أسدلوا أستار الكتمان حتى بعد انتهاء الحرب على هذه المسألة فلم يتحدثوا عنها قط .

* * *

هاجم الفيلق الثلاثون من قوات الحرس الآيرلندى منذ عصر يوم ١٧ من سبتمبر فى الاتجاه الشمالى انطلاقاً من عند الحدود البلجيكية الهولندية . وقد دكت ثلاثمائة وخمسون مدفعاً الأرض من كلا جانبى محور التقدم الوحيد ، ثم قامت المدفعية البريطانية بالتعامل مع هذا الممر على عمق ثمانية كيلو مترات . غير أن مدرعات الكولونل جو فاندلر ماكادت تجتاز الحدود الهولندية ، حتى واجهت مقاومة جادة .

وسرعان ما وجدت دبابات المقدمة نفسها وقد شلت حركتها مدرعات ألمانية ، ونتج عن ذلك انسداد الثغرة ، وتعين اللجوء إلى الطائرة القاذفة المقاتلة من طراز (تيفون) لفتحها من جديد ، لكن الألمان بدءوا يدافعون عن مواقعهم ، واشتبكوا هم والقوات المهاجمة .

ولم تكن القوات الألمانية هى الغلمان والكهول كما كان الحلفاء يتوقعون ! وإنما كانت تتكون من مقاتلين من قوات المظلات التابعة لفرق العاصفة . حتى جنود الجيش الألمانى القادمون لتوهم من (زيلند) الذين قالت عنهم مخابرات الحلفاء : إنهم فى حالة معنوية متدهورة – حاربوا أروع ما تكون الحرب !

وفى مساء يوم الهجوم لم تستطع دبابات البريطانيين الاستيلاء على آيندهوفن ؛ كما أن جسر (سون) المقام على قناة فيلهلمين والبالغ الحيوية بالنسبة للهجوم – فإنه قد نسف فى وجه المظليين الأمريكيين ؛ وبدا أن عملية « السوق والحديقة » تبدأ بداية سيئة .

وعلى بعد أكثر من مائة كيلو متر من الحدود الهولندية بدأ « الشياطين الحمر » الإنجليز تقدمهم نحو (آرنهم) وجسرها المقام على نهر الراين السفلى . لكن الجنرال روى أوركو هارت لم يكن على أى اتصال بالجنرال لاثبورى الذى يتولى قيادة الكتائب الثلاث المكلفة بالهجوم على المدينة ، ولذلك فإنه قرر الذهاب بنفسه إلى أرض المعركة مستخدماً فى ذلك إحدى سيارات الجيب . وقد شاهده أركان حربه ماكنزى وهو يختفى عن أنظاره فأحس بنوع من القلق .

كان الألمان قد تحولوا للهجوم المضاد بسرعة مذهلة ، ومع ذلك فلم يكن فى (آرنهم) سوى كتيبة تدريب من احتياطى قوات العاصفة تحت إمرة القومندان سيب كرافت الذى لم يكن لديه غير الدراجات التى استخدمت للذهاب إلى مواقع القتال . وبهؤلاء الرجال الثلاثمائة اضطر كرافت أن يواجه لواءين للحلفاء . وبرغم أن نسبة جنوده إلى جنود الحلفاء كانت واحداً إلى عشرة ، فإن هذه الحفنة من قوات العاصفة الألمانية كانت على استعداد تام لتطبيق التكتيك الذى درسوه فى الجيش الألمانى ، والذى يقول : « إن الأسلوب الوحيد لضرب عملية محمولة جوًّا هو الدخول مباشرة فى قلبها . . . »

وفى خلال دقائق معدودة واجه كرافت الموقف ، فأصدر أمراً إلى إحدى فصائله بالهجوم فى اتجاه غابة (وولف هيز) ، ووضع الفصيلتين الأخريين فى كمائن على طول الطرق المؤدية إلى قلب المدينة . وقد تمكن رجاله من محاصرة الكتيبة الثالثة للحلفاء التى يقودها الكولونل فيتش ، ثم الكتيبة الأولى التى يقودها الكولونل دوبى . أما الكتيبة الثانية بقيادة الكولونل فروست فإنها وحدها التى وصلت حتى الجسر فى المساء ، ولكنها عجزت عن عبوره ، ثم اكتفت بالوقوف عند مدخله الشمالى ، بعد أن تلقت المساعدة من قوات المهندسين التابعين للكابتن ماكاى .

وليس هناك من شك فى أن الرد الخاطف من جانب القومندان كرافت هو الذى أبقى (آرنهيم) فى الجانب الألمانى ، غير أن القتال استمر عنيفاً فى قرية (أوستربيك) غربى المدينة . وفى هذا الاضطراب وُجِد الجنرال كوسين الذى يتولى قيادة ميدان آرنهيم نفسه بعد الظهر فى قلب طابور بريطانى فكان أول ألمانى يقتل فى القتال .

والموقف نفسه تعرض له الجنرال أوركو هارت الذى فقد كل سيطرة له على الوضع لانعدام وسائل الاتصال اللاسلكى ، فانطلق بحثاً عن (جوف) و (لاثبورى) ، وقد توصل إلى العثور على قائد اللواء الأول مظلات ، واضطر الاثنان إلى خوض المعركة كما لو كانا اثنين من ضباط الصف ! أما (لاثبورى) فقد أصيب إصابة بليغة ، وأما أوركو هارت فقد حاصرته دورية ألمانية ، وبعد أن أردى بمسدسه أحد مطارديه ظل مختبئاً فى أحد الأجران ، عاجزاً عن إبداء أى إشارة تدل فرقته أنه على قيد الحياة ، فخاضت القتال بغير قائدها .

ومن الأمور التى لا تفسير لها – وهذا من الأسرار الغامضة لمعركة آرنهيم – أن القومندان (جرابنر) قائد كتيبة الاستطلاع التابعة لقوات العاصفة قد عبر جسر آرنهيم من الشمال إلى الجنوب قبل ساعة واحدة من وصول جنود المظلات البريطانيين إليه ، واستمر فى طريقه نحو (نيميج) بغير أن يتيقن أن الجسر وما يحيط به تحت السيطرة التامة للقوات الألمانية .

غير أن (جرابنر) استطاع فى نيميج أن يوقف المظليين الأمريكيين التابعين للفرقة الثانية والثمانين ، وسيطر رجاله بقوة على الجسر المقام على نهر الوال ، وحالوا دون قوات الحلفاء والاقتراب منه .

* * *

كان المارشال (مودل) قد حظر نسف الجسور ، وفى ذلك اليوم الموافق ١٧

من سبتمبر الذى بدأ فيه هجوم قوات الحلفاء لم يصدر إلا تعليمة واحدة هى إحباط هذا الهجوم ، وهى ما فسره القومندان (بيتّريتش) على أنه أمر مقتضب موجه إلى فرقة المدرعات الثانية التابعة لقوات العاصفة ؛ لكى تعمل هى والفرقة الأخرى على مهاجمة العدو مباشرة وتدميره .

وهكذا اتجه ألفان وخمسمائة ألمانى على عجل إلى آرنهم ، وليس فى حوزتهم سوى عشرين سيارة نقل ، فذهبوا إلى المعركة إما سيراً على الأقدام ، أو بالدراجات ، أو بعربات تشدها الجياد . لقد كانت فرقة ذات خليط غريب ؛إذ ضمت جنوداً من الجيش ومن قوات العاصفة ، ورجالاً من العاملين فى السكك الحديدية أو الخدمات العامة ، ومن الجرحى ذوى الإصابات الخفيفة الذين خرجوا خصيصاً لذلك من المستشفيات ، ومن الطيارين وكوادر شركة (تودت) ، ومن المتطوعين الهولنديين .

وقد ذهب جميع هؤلاء إلى القتال دون انتظار لأمر القيادة العليا الذى صدر بعد ذلك يقول : « على كل رجل أن يتخذ طريقه بأى وسيلة كانت نحو المنطقة التى هبطت فيها قوات المظلات المعادية ، وأن يشترك فى القتال . إن الجبهة تشمل كل مكان » .

ومنذ الساعة ١٥,٠٠ عين المارشال مودل القومندان بيتّريتش قائداً للعمليات فى قطاع (آرنهم — نيميج) . أما القوات التى كانت بالفعل تحت إمرته فإنها كانت قد أصبحت مقصورة على اللواء الذى يقوده الجنرال (هارزر) ولا يضم سوى ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل ، وما تبقى من فرقة فروندسبرج وهؤلاء لا يتعدون بدورهم ثلاثة آلاف مقاتل ، ويتولى قيادتهم الجنرال (هارمل) الذى كان عند وقوع هذه الأحداث فى مهمة فى برلين ، واستُدعى منها على عجل .

كان هذان القائدان قد تمرسا فى الحرب على الجبهة الشرقية ، وتشربا قبل ذلك أسلوب القتال فى قوات العاصفة الذى يتمثل فى مبادئ راسخة منها السرعة الخاطفة ، والشدة المتناهية ، وبصفة خاصة روح المبادأة التى تذهب إلى حد عدم إطاعة الأوامر إذا كانت سرعة حركة الموقف تجعلها غير ذات جدوى .

إن مؤرخى الغرب قد أغمطوا فى كتاباتهم حق هذين المحاربين ، وعرضوهما فى صورة باهتة للغاية فى خلال التحركات التى قاما بها فى هذه المعركة : الأول من الشمال والآخر من الجنوب ، فى تقدمهما نحو آرنهيم ونيميج مع أن مصير المعركة كله قد توقف عليهما وعلى رجالهما !

لقد جرت عملية الإسقاط الجوى للفرق الأمريكية والبريطانية الثلاث داخل خطوطها ، وكان ذلك مفاجأة للألمان ، غير أن مفاجأة أكبر منها كانت فى انتظار الحلفاء عندما رأوا السرعة التى واجههم بها الألمان فى هجومهم المضاد :

ففى فجر يوم الهجوم -- ١ ، (الاثنين) ١٨ من سبتمبر ١٩٤٤ - كانت الروح المعنوية لدى جنود المظلات من كتيبة (فروست) التى تسيطر على مدخل جسر آرنهيم لا تزال سليمة لم تمس ، وكانت وسائل الاتصال قد قطعت جميعها بينهم وبين رفاقهم ، ولكنهم لم يتعرضوا إلا لخسائر طفيفة ، ثم إنهم قد أصبحوا يحتلون جزءاً من الهدف المحدد لهم ، ولم يبق إلا أن ينتظروا مجىء العناصر المدرعة التى تتضمنها عملية « الحديقة » التى لا بد أنها موجودة وفقاً للخطة فيما بين آيندهوفن ونيميج .

غير أنه بدلاً من مجىء هذه العناصر إذا بالمدرعات الألمانية التى يقودها القومندان (جرابنر) قادمة من نيميج تظهر فى المدخل الجنوبى للجسر . وقد استقبلتهم على الفور نيران كأنها صادرة من الجحيم ، وظلت هياكلها المتفحمة

فى أماكنها أمام المواقع البريطانية طوال المعركة .

واستمرت معارك الشوارع التى استخدمت فيها مدافع الهاون ، وأخذ القتال يدور من بيت إلى بيت ، ومن قبو إلى قبو ، ومن جرن إلى جرن . وسرعان ما أصبحت الاشتباكات رجلاً إلى رجل موقعة جهنمية ، وصفها فيما بعد أحد جنود العاصفة الذى كان يقاتل لعزل الوحدات البريطانية بقوله : « لقد كانت هذه الموقعة أقسى من كل ما مر بى فى روسيا » .

وبدأت الهاونات الألمانية تدك المواقع التى احتلها جنود الحلفاء . ولما لم يستطيعوا طرد البريطانيين من المبانى التى تسيطر على الجسر فإنهم دمروها واحداً بعد الآخر ، فلجأ الذين نجوا إلى حطام البيوت التى تحولت إلى ما يشبه القلاع . وقد تكدس الجرحى منهم فى الأقبية ، على حين راح رفاقهم يحاربون من الأدوار العليا .

ولم تحل المعركة مع ذلك دون سكان ضواحى آرنهيم والذهاب إلى أعمالهم كالمعتاد ! والواقع أن الهولنديين قد أظهروا شجاعة متسمة بالهدوء أذهلت الجانبين المتحاربين على السواء . فقد راح الأطباء المدنيون يعالجون سكان الأحياء المنكوبة ، ومعهم جرحى البريطانيين والألمان .

وفى خلال ساعات أصبحت آرنهيم تعيد إلى الذاكرة ما جرى فى ستالنجراد ، مع أن المعركة الدائرة فيها لم تتعد يومها الثانى .

وفيما حول الأراضى التى تم فيها هبوط رجال المظلات أخذ رجال اللواء الذى يقوده (هيكس) يبذلون قصارى جهدهم ليظلوا مسيطرين على مناطق الهبوط . لكن قوات المشاة التى جمعها الجنرال الألمانى (تيتاو) على عجل بعد أن جاء مسرعاً من الغرب إلى آرنهيم راحت تصليهم ناراً حامية . فقدمت بذلك مساعة قيمة إلى المجموعات الصغيرة المحاربة من قوات العاصفة .

وفى الساعة العاشرة صباحاً من يوم الهجوم + ١ كان لا بد أن يتم إنزال الكتيبة الرابعة مظلات بقيادة (هاكيت) لكن الظروف الجوية ساءت فى بريطانيا ، فتأخرت العملية عدة ساعات . أما القوات التى كانت قد وصلت فى الليلة السابقة إلى آرنهيم فقد أحست أنها معزولة تماماً .

* * *

لم يكن أحد من الرجال الذين يحاربون هنا يعرف مع ذلك شيئاً عن حقيقة معينة أكثر رهبة وترويعاً ، هى أن العملية البرية التى رمز لها باسم « الحديقة » ، قد تأخرت فى مجموعها عن موعدها ثمانى عشرة ساعة .

كان الفرسان المدرعون التابعون للفيلق الثلاثين قد فرغوا لتوهم من الاتصال بجنود المظلات الأمريكيين وبالفرقة ١٠١ ، غير أن العشرين ألف رجل الذين يقودهم الجنرال (هوروكس) كانوا لا يزالون أمام جسر (سون) المتهدم ، وقد تجمدوا من هجمتهم نحو الشمال . لقد كان العبء الواقع عليهم قد ازداد .

وبينما أخذ سلاح المهندسين يحاول وضع أحد الكبارى المتنقلة كانوا قد جاءوا به على عجل من آيندهوفن أسقطت الكتيبة الرابعة التى يقودها (هاكيت) فوق آرنهيم ، فتلقفها الألمان ، ولكنهم لم يكونوا من الكثرة بحيث يحولون دون إتمام عملية الإسقاط .

وما إن هبط الجنرال هاكيت إلى الأرض حتى راح يسأل : « وأين أوركوهارت ؟ » فأجابه ماكنزى : « لا نعرف عنه شيئاً » .

– ولا ثبورى ؟

– اختفى هو الآخر .

– سأتولى القيادة إذن .

– كلا . . إن لدى أوامر صريحة ، هى أن يتولى الجنرال هيكس قيادة الفرقة فى حالة الضرورة .

– ولكنه ليس أقدم منى .

فقال رئيس الأركان : فى التقويم العسكرى فقط ، ولكنه فى أرض المعركة يقاتل منذ أربع وعشرين ساعة ، ويعرف الموقف جيداً .

وبينما هما يتناقشان أسقطت طائرات الحلفاء أول شحنة من المؤن والذخائر ، فوقعت بذلك كارثة . فنتيجة لنقص وسائل الاتصال ، وقع خمسة وسبعون طنًّا من العتاد من سبعة وثمانين طنًّا فى أيدى الألمان الذين كانوا يسيطرون على الجانب الأكبر من الأرض التى كانت قد اختيرت عند وضع العملية « السوق » ، فحصلوا هم على ما فيها من أسلحة وأطعمة وسيارات .

وأخذت الكتائب ، منذ الليلة السابقة يقاتل كل منها لحسابه الخاص ، وظل قائد الفرقة مختفياً لا يعثر له على أثر ، ثم جرى نقاش عنيف بين هيكس وهاكيت هدأ بعده الرجلان ، وانضوى القادم الجديد تحت إمرة الذى سبقه فى النزول إلى الأرض ، وقال له : « فليكن . . سأطيع أوامرك ، إذا هى بدت لى معقولة ! »

لقد كان المطلوب بأى ثمن هو تقديم العون إلى رجال كتيبة (فروست) الذين ما زالوا يسيطرون على الجسر . غير أن جميع العمليات التى انطلقت نحو الغرب فشلت ، إذ تمكنت قوات العاصفة بقيادة فالتر هارزر من وقف الهجمات كافة .

وذهبت كتيبتا (دوبى)و (فيتش) فقاتلتا طوال اليوم ، وطول ليلة التاسع عشر من سبتمبر ، ولكن بغير أن تتمكنا من التقدم نحو قلب المدينة برغم الخسائر الجسيمة التى نزلت بهما .

وقد قتل (فيتش) وهو يحاول الوصول إلى رفيقه (فروست) ، على حين جرح (دوبى) ووقع فى الأسر ، لكن هذه العملية أتاحت الوصول إلى البيت الذى كان الجنرال أوركو هارت دافناً نفسه فيه حوالى تسع وثلاثين ساعة يحيط به الألمان من كل جانب . وقد استعاد هذا الأسكتلندى زمام القيادة فى يديه لمن تبقى من فرقته . وعندما وصل إلى (أوستربيك) ودخل مقر القيادة العامة التى أقيمت فى فندق هارتنشتاين حيث كان المارشال مودل حتى ساعات قليلة مضت بدا كأنه شبح ثقيل يغطيه التراب !

* * *

وجد أوركو هارت قيادته فى أسوأ حال ، أما الفرقة فكانت على حافة الكارثة .

كان الطابور المدرع الذى عليه اللحاق بقوات المظلات فى آرنهيم لا يزال على بعد أربعة وسبعين كيلو متر . وفى الساعة ٨,٣٠ من يوم الأربعاء ١٩ من سبتمبر وصل هذا الطابور أخيراً إلى (جريف) التى فى أيدى رجال الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جوًّا ويتولى قيادتها الجنرال جافين . وكان الجنرال براوننج يعرف أن نجاح خطة مونتجومرى تتوقف الآن أكثر من أى وقت مضى على السرعة ، فقال : « إن علينا أن نستولى على جسر نيميج اليوم » .

لكن التى كانت فى نيميج هى المدرعات الألمانية التابعة لفرقة هاينز هارمل ، وعند قاعدة الممر فى منطقة (بست) يقف رجال الجيش الخامس عشر الألمانى بقيادة الجنرال فون زانجن الذى وصل من هولندا . وراح يهاجم بعنف . وقد اضطرت الفرقة ١٠١ الأمريكية أن تناضل فى ظروف صعبة ؛ لكى تتيح للوحدات البريطانية المدرعة التقدم فى اتجاه الشمال .

وقال الجنرال تايلور : « إننا نشبه الحاميات الصغيرة فى الغرب الأمريكى

التى يتعين عليها أن تقاتل الهنود بصورة دائمة ، لكى تحمى خط السكة الحديدية . . . !

وأبعد من ذلك ناحية الشمال – كان الألمان الذين يسيطرون على جسر نيميج على نهر الوال يوقفون كل شىء ، وعلى ذلك كان ينبغى عمل المستحيل من أجل عبوره بالقوة تحت وابل من نيران العدو وفى وضح النهار ، وقد عمد إلى القيام بهذه المهمة الانتحارية بعض المظليين من الفرقة الثانية والثمانين ، تحت إمرة الميجور (كوك) فى الساعة الثالثة من بعد ظهر الخميس الموافق ٢٠ من سبتمبر ، وكان ذلك من أروع اللحظات فى عملية « السوق والحديقة » .

ولما لم تكن هناك مجاذيف كافية فإن الرجال راحوا يجذفون ببنادقهم ، على حين انهمر عليهم رصاص المدافع الرشاشة وقذائف الدبابات الألمانية . إلا أنه بدا كأن شيئاً من ذلك لن يوقف تقدم تلك المجموعة من فرقة « الكل أمريكيون » . وعلى حين كان الكولونل هارمل يتابع العملية فى غيظ بنظارة الميدان ، إذا به يلمح طليعة المدرعات البريطانية تتخذ طريقها فوق الجسر الذى بدأ المظليون الأمريكيون يحتلونه من الناحية الأخرى ، وعند ذلك أصدر الأمر التالى : « انسفوا كل شىء ! »

لكن شحنات الديناميت لم تنفجر ! ربما من جراء عمل تخريبى قام به أحد رجال المقاومة الهولنديون . فأخذت الدبابات تهدر فى اتجاه آرنهيم على طول الجسر الذى يمتد ثمانمائة متر عبر النهر . وقد أصبح الجسر التالى هو الذى يعبر الراين فلا يبقى على المدينة سوى ثمانية عشر كيلو متر .

وعلى حين فجأة ساء الموقف ، وأصبح ميئوساً منه بالنسبة لجنود مظلات أوركو هارت : ذلك أن رجال الكولونل (فروست) تغلب عليهم جنود

العاصفة الذين يقودهم القومندان (كناوست) الذى فقد ساقاً عام ١٩٤١ فى الحرب أمام موسكو ومع ذلك استمر يقود كتيبته التى تقاتل الآن بدباباتها الثلاثين يقودها جنود كلهم من المشوهين ، وكأنما انطلقوا بها ومعها نيران الجحيم . !

وقال فروست لمساعده على حين كان الألمان يأسرون رجال المظلات الأمريكيين من حوله : «لقد فشلت العملية !» .

والواقع أن طرفى جسر آرنهيم قد أصبحا نتيجة لهذا الفشل فى أيدى الألمان .

* * *

أما المدرعات التابعة للحرس الآيرلندى التى كان لا بدأن تقتحم آرنهيم فإنها توقفت فى أماكنها نتيجة لخطأ وقعت فيه قوات المشاة التى كانت تصاحبها ؛ فلقد كان من المستحيل السير بالدبابات فى الطريق الضيق الذى يشرف من فوق سده العالى على الوادى الذى بين نيميج وآرنهيم . وعند ذلك رئى الانتظار ، وضياع الوقت ، والإحساس بالغيظ ، على حين راحت أجهزة اللاسلكى لدى الجنرال أوركو هارت ترسل رسالة حزينة تقول : «نطلب فوراً اتخاذ التدابير للإسراع بالتعزيزات . القتال عنيف . العدو يعترضنا بأقصى درجة من القوة . الوضع ليس طيباً !» .

لقد كان على قوات المظلات البولندية فى اللواء الأول الذى يقوده سوزابوفسكى أن يقفز يوم ١٩ من سبتمبر أى فى يوم الهجوم + ٢ على بعد بضعة كيلو مترات من آرنهيم ، وكان من المحتمل أن يتيح تدخلها الاستيلاء على المدخل الجنوبى ، وتخليص رجال (فروست) ، لكن سوء الأحوال الجوية أخر رحيلهم ، وجعلهم لا يقفزون إلا يوم ٢١ من سبتمبر قرب العصر . وكان قائدهم قد أعلن قبل أن يصعدوا إلى الطائرة لضابط الاتصال البريطانى : إنه

ما لم يحط علماً بالوضع الصحيح لقوات أوركو هارت حول آرنهيم فإن رجال لوائه لن يرحلوا .

غير أنهم طمأنوه بأنه ليس هناك سوى « نوع من الارتباك » . والواقع أن الجسر كان قد وقع فى أيدى الألمان ، ولم يعد المظليون البريطانيون يسيطرون إلا على خط دفاعى شمال نهر الراين ، هو عبارة عن « جيب » يضيق باستمرار ، برغم جهود هيكس على الجناح الغربى ، وجهود هاكيت على الجناح الشرقى .

كان الجميع قد وقعوا فريسة للإعياء والجوع والعطش ، وقد جرح أغلب المقاتلين ، وبعضهم أكثر من مرة ، وبدا كأنما هؤلاء الشياطين الحمر قد زجوا بأنفسهم فى نيران الجحيم .

ثم تمكن سوزابوفسكى ورجاله بعد عملية هبوط صعبة من إقامة جيب جديد على الضفة الجنوبية ، فى مواجهة قوات أوركو هارت . غير أنه كان لا يزال لا يوجد اتصال لا سلكى ، وتعين أن يعبر أحد الضباط نهر الراين سباحة ليمكن إقامة همزة وصل بين الفرقة المحاصرة ، واللواء الذى جاء لتعزيزها متاخراً أكثر مما يجب ، وبعيداً عنها بكثير.

وأخيراً تمكن أوركو هارت من إقامة اتصال لا سلكى مع براوننج الذى أصبح على بعد بضعة كيلو مترات من آرنهيم . ولم يقدم الأسكتلندى غير بعض الأنباء المروعة : فى خلال خمسة أيام فنى ثلثا رجال فرقته . ثم أصدر أمراً إلى رئيس أركان حربه ماكنزى بعبور الراين بقارب من المطاط فى محاولة للوصول إلى طليعة دبابات (هورروكس) . ولم يتم ذلك إلا يوم ٢٢ من سبتمبر فى الساعة الثامنة صباحاً وعند قرية (دريل) .

ولدى هذا الاتصال كانت المفاجأة وهى وضوح فشل عملية « السوق

والحديقة » إذ بدلاً من اليومين اللذين توقعها مونتجومرى فإن الطابور المدرع استغرق خمسة أيام للوصول إلى نهر الراين ، وعندما وصل كان فى حالة جعلته عاجزاً عن عبوره !

فلقد كان الطقس سيئاً ، وطائرات الحلفاء لا تستطيع الإقلاع . وقد أطلق على يوم ٢٢ من سبتمبر تعبير « يوم الجمعة الأسود » ، لأن جميع الأعمال التى جرت فيه انتهت بكارثة : لقد نجحت دروع المارشال مودل فى قطع ممر الدخول إلى آرنهيم ، فأصبح (هوروكس) بدوره مهدداً بالوقوع فى حصار ألمانى ، ولم يعد المظليون الأمريكيون فى الفرقتين ١٠١ و ٨٢ قادرين على الاحتفاظ بالمحور الذى أسموه (طريق الجحيم) مفتوحاً .

وبعد أن خسر الحلفاء معركة (آرنهيم أصبحوا على وشك أن يخسروا المعركة الدائرة فى فيجيل) ، فى منتصف الطريق من الحدود الهولندية ، وهى التى أطلقوا عليها اسم « معركة الممر » ، حيث اضطر الفيلق الثلاثون المدرع أن ينسحب متراجعاً أمام ضغط الألمان .

ولكى يساعد الجنرال سوزابوفسكى صديقه أوركو هارت فإنه لم يستطع أن يبعث إليه ، عن طريق قوارب صغيرة من المطاط تذهب وتجىء إلا بخمسين من رجال المظلات البولنديين ، ولم يدخل فى هذا العدد من قتل منهم أو أصيب خلال محاولة عبور النهر بفعل نيران العدو . وفى اليوم التالى تمكن من إرسال مائتى رجل ، وهذا كل شىء

ونجح ماكنتزى الذى أرسله أوركو هارت فى أن يتصل بالقرب من نيميج برئيس العمليات المحمولة جوًّا . وقد وجد براونتج لا يزال متفائلا برغم تعاقب الفشل طوال الأسبوع وإعلان فشل عملية « السوق والحديقة » . ذلك أن براونتج كان يعتقد أن فى الإمكان تعزيز رأس الجسر شمال نهر الراين ، غير أن

ماكنزى أوضح له خطورة الوضع فى أوستربيك قائلاً : « إن الفرقة محاصرة . وتنقصها الأطعمة والذخيرة والأدوية ، ولن يستطيع أوركو هارت أن يصمد طويلاً » . فقال براوننج : « لسوف نحاول نجدتكم ليلة ٢٣ من سبتمبر » .

ولم يصدق ماكنزى إمكان حدوث ذلك ، ولكنه قرر العودة إلى أوركو هارت وإبلاغه بوصول التعزيزات لرفع الروح المعنوية لدى الرجال الذين يحاربون إذ لم يكن أحد يريد بعد الاعتراف بأن تضحياتهم قد ذهبت سدى .

* * *

ووضح يوم ٢٣ من سبتمبر أن كل شىء قد انتهى فى آرنهيم إلا أنه ما كادت تنتهى الهدنة القصيرة التى تقررت بين الجانبين لجمع الجرحى والمصابين حتى استؤنف القتال ، فبعث أوركو هارت برسالة أخيرة إلى براوننج يقول فيها : « أرى من المستحيل أننا نستطيع الصمود . وفى حالة قيام العدو بهجوم فسوف نتجه نحو رأس الجسر ؛ لقد حاولنا القيام بكل ما فى جعبتنا ، وسنظل هكذا طالما أمكننا ذلك » .

لقد بات من المستحيل على الحلفاء اجتياز نهر الراين لنجدة القوات المحاصرة ، فلم يبق إلا صدور الأمر إليها لمحاولة الانسحاب إلى (كيسل) وهو ما فعلته ، ثم اضطرت إلى عبور النهر بأى وسيلة للحاق بالقوات التى تجمعت تمهيداً للانسحاب العام .

وقد أصدر مونتجومرى يوم ٢٥ من سبتمبر الأمر بذلك ، وبه كرس فشل خطته ، التى اختتمت بهذا الانسحاب العام الذى كان من سخرية الزمن أن أطلق عليه اسم « عملية برلين » . وكانت الأمطار تنهمر عندما بدأ جنود الحلفاء هذا الانسحاب . وفى مساء يوم الأحد راحوا يعبرون النهر فى قوارب من المطاط أو على أطواف بدائية أو سباحة .

أما الجرحى الذين عجزوا عن السير فظلوا فى مواقعهم ، واستمروا يطلقون النار لتغطية انسحاب رفاقهم . ومن بين ستة آلاف رجل حملتهم الطائرات إلى جسر آرنهيم لم يستطع سوى ألفين العودة منه .

وأما البريطانيون فقد قتل لهم فى العملية ثلاثة عشر ألف رجل ، وفقد الأمريكيون أربعة آلاف ، كما دفع الألمان ثمناً باهظاً لنجاحهم هذا .

وهكذا انتهت عملية « السوق والحديقة » التى كانت آخر نجاح للألمان فى الحرب العالمية الثانية ، كما كانت أكبر هزيمة للشياطين الحمر الذين عجزوا عن الاستيلاء على ذلك الجسر البعيد . البعيد . .

الفصل العشرون

معركة الأردين

فى اليوم السادس عشر من ديسمبر ١٩٤٤ قام الجيش الألمانى بأمر أصدره إليه الفوهرر بهجوم مفاجئ فى كل من بلجيكا ولكسمبورج اتسم بعنف لم يسبق له مثيل ، أخذ القوات الإنجلوساكسونية على غرة تماماً وهو الذى عرف بمعركة الأردين .

ولقد كان هتلر يعرف تماماً أنه يلعب ورقته الأخيرة عندما وضع كل ما لديه من قوة فى هذه المعركة التى دفع فيها نحو الميدان الغربى جموع رجاله ومعداته ؛ كما كان يعرف أن الميادين الأخرى التى يحارب فيها قد ضعفت بصورة خطيرة ، وأنها لن تنشط مرة أخرى أبداً بعد هذا القرار .

والواقع أن الألمان بدخولهم معركة الأردين إنما كانوا يخوضون أكبر وأضخم قتال لهم خلال هذه الحرب . فإذا هم انتصروا فيها فإن الحلفاء المقهورين قد يتخلون نهائيا عن مشروع الغزو ، ويتركون أوربا للقوات النازية . أما إذا هم خسروها فسيكون ذلك بمثابة احتضار الرايخ الثالث الذى أحاط به أعداؤه من كل جانب ، وشح فيه الرجال وأدوات الحرب ، وأصبحت الثقة فيه مزعزعة بأوهام هتلر . .

* * *

إن الخطة الجبارة الهائلة التى قامت عليها معركة الأردين – قد نبتت أساساً فى عقل الفوهرر نفسه . فلقد بلغ التأثر به أقصى درجاته عقب وقوع محاولة الاعتداء على حياته يوم ٢٠ من يوليو ١٩٤٤ ، واضطر إلى ملازمة فراشه .

فأتاحت له هذه الراحة الإجبارية وقتاً للتفكير والتأمل فى مجرى الحرب .

وكان قد انقضى على هبوط الحلفاء على الساحل الفرنسى خمسة وأربعون يوماً ، وأصبحت الجبهة الغربية هى الشغل الرئيسى الشاغل لهيئة أركان الجيش الألمانى ، وفى هذه الأوقات الحرجة راح هتلر يفكر فى رد هائل الحجم يطرد به العدو عن حدود ألمانيا .

وفى الأيام الأولى من سبتمبر ١٩٤٤ قال لمستشاريه العسكريين وهما المارشال كيتل والجنرال جودل عبارة مقتضبة حاسمة : « إن علينا أن نستعيد زمام المبادرة » .

بهذه العبارة الموجزة – تجسم الهجوم المضاد الذى اشتهر باسم معركة الأردين ، وهو ضربة الزهر الخيالية التى أوشكت أن تغير مجرى التاريخ ، إلا أن الجانب الأكبر والجوهرى من هذه المعركة كان ما زال يتعين اتخاذ العدة له . ألا وهو أن تخوضها ألمانيا ، وقد تهيأت لها أكبر فرص النجاح .

والواقع أن الظروف فى هذه الفترة كانت ملائمة لذلك : فقد توقفت الجيوش الروسية عن زحفها لالتقاط أنفاسها بعد الهجوم الصيفى الكبير ، على حين توقفت القوات الأمريكية عن تقدمها للمرة الأولى لنقص فى الوقود : الأمر الذى مكن هتلر من إعادة إنشاء جبهة متصلة ومتماسكة وراء خط سيجفريد . أما فى إيطاليا فكانت الجبهة قد استقرت إلى الأمام قليلاً من جبال الأبنين .

* * *

كان التضامن الوطنى بين الشعب الألمانى على أشد مايكون ، وهو يرى الأخطار المحدقة ببلاده ، فأعاد ذلك دفعة جديدة من الثقة إلى نفس هتلر . وكانت القلعة الصناعية الألمانية مازالت تعمل بحيويتها المذهلة برغم الغارات

الحوية المكثفة التى يشنها عليها الحلفاء ، بل إن هذه القلعة الرهيبة كانت على وشك أن تخرج أول طائرة مقاتلة نفاثة فى العالم كان من شأنها أن تزيل من سماء ألمانيا أى طائرات معادية .

وبعد أن أجرى هتلر دراسة جادة متعمقة للموقف – توصل إلى أن هجوماً مركزاً فى الميدان الغربى هو وحده الذى يمكن أن يحدث تأثيره الحاسم على مسيرة الحرب .

ولقد كان الألمان يعلمون جيداً أن لدى الأمريكيين خمسين فرقة فحسب ، وبناء على ذلك فإن هجوماً ألمانيًا مفاجئاً يوقع فى الشرك عشرين من هذه الفرق سوف يجبر الحلفاء على تغيير كل مخططاتهم ، بل وقد يتخلون عنها نهائيًا . وبرغم جميع المخاطر التى قد تتعرض لها هذه العملية فإن الفوهرر أبدى استعداده لحشد أفضل قواته لهذه المعركة الفاصلة ، وعلى رأس هذه القوات جنود العاصفة .

وإلى جانب ذلك كان يتعين ألا يتسرب أى شيء عن المعركة التى تم التخطيط لها ، وتحددت لها فى منتصف شهر سبتمبر نقطة الهجوم ، وهى الطرق المتفرعة من غابات لكسمبورج وبلجيكا ، حيث تمتد جبهة عرضها مائة وثلاثون كيلو متر لايحتلها سوى أربع فرق أمريكية ، فهنا ينبغى أن تجيء الضربة التى ستوقع فى الشرك مابين عشرين وثلاثين فرقة من القوات الإنجلوساكسونية !

* * *

إن الجنرال جودل هو الذى أعد بعد عمل مكثف – الخطة الأولية للهجوم : وفيها أن جيشين مدرعين تتولى حمايتهما من الشمال والجنوب مجموعة من فرق المشاة ومجموعة قوية من القوات المضادة للدبابات والدفاع الجوى – يقومان بالهجمة الأولى ، أما سلاح الطيران الألمانى فإن عليه أن يحشد للمعركة آخر طائراته ، ومنذ اليوم الثانى للهجوم يتعين أن يكون قد تم عبور نهر الموز ،

وبعد ذلك تهاجم العدو موجة (ثانية) من الفرق المدرعة ، ومن خلال الثغرة التى ستنفتح تندفع جميع القوات نحو مدينة أنفرس !

كانت كلمة السر هى : « رأساً إلى نهر الموز » ، وعلى بعد مائتى كيلو متر من نقطة الهجوم (أنفرس) التى هى الهدف الأول للعملية . وقد تحدد حينئذ يوم الهجوم فى الخامس والعشرين من نوفمبر مع ظهور الهلال الجديد ، عندما يتيح الظلام للقوات الألمانية أن يكون أثر المفاجأة كاملاً . والواقع أن هاهنا الفارق الرئيسى بين هذه المعركة وماسبقها من معارك ، كما أن سريتها هى الشرط الأول لنجاحها .

كان يتعين ألا يساور العدو أى شىء بشأنها ، وهذا هو السبب فى أن هتلر لم يطلع فى البداية أحداً على خطته سوى كيتل وجودل وحفنة من الضباط العظام من أركان حربه . وكلما دعت الحاجة إلى اطلاع ضابط جديد على هذه الخطة كان يوقع على قسم مكتوب بألا يكشف عن السر لمخلوق ، وإلا فإنه يعدم رمياً بالرصاص ! ومع ذلك فإن بعض القادة الرئيسيين الذين قاموا بالهجوم قد ظلوا حتى النهاية تقريباً لا يعلمون عن السر شيئاً ، ومن هؤلاء المارشال رونشتت القائد العام للجيوش الألمانية العاملة فى الغرب الذى قيل له : إن بعض التعزيزات قد احتشدت لمقاومة أى تقدم للحلفاء على نهر الراين .

وفضلا عن ذلك فإن الرمز الشفرى للعملية كان عبارة (حرس الراين) ، فمن الذى كان فى وسعه أن يشك فى أن وراء هذا الرمز الدفاعى أضخم هجوم مضاد مفاجئ يقع طوال الحرب ؟ وبفضل بعض الشائعات التى روج لها الألمان فى براعة فإن الأمريكيين لم يساورهم الريبة قط فى تلك التحركات الغامضة للقوات الألمانية التى لاحظوها فيما بعد .

* * *

وبدون أن يدرى الحلفاء شيئاً قليلاً أوكثيراً عن نوايا الفوهرر فإنهم قاموا فى شهر أكتوبر بهجوم على (إكس – لاشابيل) ووسط هولندا فأخروا بذلك إعداد الفرق الألمانية المدرعة المخصصة لمعركة الأردين .

وهكذا فإن هذه الفرق لم يتم إعادة تنظيمها إلا فى آخر الشهر ، وعلى حساب الميدان الشرقى . بيد أن جميع الضباط العظام فى الجيش الألمانى لم يشاركوا هتلر فى حماسه الجنونى ، واقترح رونشتت ومودل يوم ٣ من نوفمبر القيام بهجوم قوى ليس على مدينة (أنفرس) التى قالا : إنها بعيدة للغاية ؛ وإنما على (إكس – لاشابيل) ، ولكن هذا الاقتراح لم يلق آذانا مصغية ؛ إذ إن هتلر كان متمسكاً بفكرته فى إصرار غريب ، بل إنه رفض المهلة التى طالب بها جنرالاته للانتهاء من حشد الرجال والعتاد ، ورد عليهم قائلاً : « دمروا العدو شمال خط أنفرس – بروكسل – لكسمبورج . . ولاتناقشوا فى شىء ! »

غير أن مشكلتين أساسيتين ظلتا بدون حل : الأولى خاصة بالاستيلاء على الجسور المقامة على نهر الموز ، والأخرى الحيلولة دون وصول تعزيزات إلى الحلفاء من (إكس – لاشابيل) . فمن الذى يمكن أن ينجح فى هذه العملية الصدامية أفضل من رجل العاصفة الكولونل سكورزنى ، ذلك البطل الشهير الذى سبق له أن أطلق سراح موسولينى ، وهو الجندى الذى يلقى حظوة لدى هتلر ؟

وهنا طفرت فى الأذهان حيلة أكبر . هى أن يدخل الألمان فى خطوط الأعداء عدداً من الرجال يقومون بدور طابور أمريكى يحارب متراجعاً أمام القوات الألمانية . وخلال حالة الفوضى التى تسود ذلك فإن هؤلاء الرجال الذين تحولوا إلى مايشبه حصان طرواده سوف يصلون إلى نهر الموز ، ومن ثم يستولون على ثلاثة من جسوره !

ولم يكن على الكولونل سكورزنى إلا أن يجمع عدداً من الرجال الذين يتحدثون الإنجليزية ، والذين سوف يدربون على لغة (الأرجو) ، وكذلك على استخدام الأسلحة الأمريكية ، ومن أجل التشويش على جميع المجالات فإن سكورزنى راح ينشر شائعة تقول : إن الأمر يتعلق بعملية نشر الفوضى فى حالة وقوع هجوم للقوات المتحالفة على نهر الراين ، وقد حدث بالفعل أن ابتلع الإنجلو ساكسون هذه الخدعة !

أما فيما يتعلق بتعزيزات الحلفاء من (إكس - لاشابيل) فإن الجنرال فون دير هايت تعين عليه أن يقطع عليها الطريق ، وذلك بأن يطلق عليها مجموعة من رجال المظلات التابعين له . غير أن اجتماعاً على مستوى القمة عقد قبل يومين من يوم الهجوم تقرر فيه تأجيله إلى يوم ١٠ من ديسمبر ، واستبدل رمزه الشفرى من (حرس الراين) إلى (ضبابة خريف) .

* * *

وفى تلك اللحظات الأخيرة التى سبقت الهجوم الكبير استمر بعض الجنرالات فى العكوف على ذلك (الحل الصغير) الذى يتلخص فى الاستدارة نحو (إكس - لاشابيل) ، ويستعدون على نحوٍ ما سرًّا لمتابعة خطتهم الخاصة . وقد تخلى رونشتت تماماً عن تضامنه مع العملية ، بل ولم يشترك فى آخر مؤتمر على مستوى القمة الذى ضم يوم ٢ من ديسمبر حول الفوهرر كلاً من مودل وجودل وكيتل ومانتيوفل ، بالإضافة إلى سب ديتريش وفستيفال - لتسوية تفاصيل الساعة الأخيرة .

وراح مودل ومانتيوفل يدافعان للمرة الأخيرة عن (الحل الصغير) ، الأمر الذى أطلق العنان لثورة هتلر ، وكل ما حصلا عليه هو أن يقع الهجوم قبل الفجر ، وأن يكون أول ستار من المدفعية قبل الانقضاض موجزاً وعنيفاً ،

وذلك لعدم إتاحة الوقت للعدو لاستعادة هدوئه .

ومرة أخرى تسببت الظروف الجوية فى آخر ساعة فى تأجيل يوم الهجوم ، الذى تقرر عندئذ فى الخامس عشر من ديسمبر . وفى سرية تامة أخذت الجيوش الألمانية المختلفة تتحرك ليلاً انتظاراً للهجوم ، ولم يسمح لها بالوصول إلى مواقعها التى ستنطلق منها إلا عشية اليوم الموعود .

أما الإنجلو ساكسون الذين تلقوا أنباء غير معتادة فإن هذه المناورات بالنسبة لهم كانت مجرد عملية عامة لاستبدال القوات الألمانية التى كانت فى الواقع على أهبة الاستعداد : فلقد اتجه جميع الرجال وكل العتاد وجميع وسائل الإمداد والتموين نحو الغرب ، على حين تمت إعادة تنظيم القوات المدرعة ، وأصبحت الطائرات جاهزة للإقلاع بحمولاتها من رجال المظلات .

وبدأت مسيرة الاقتراب الأخيرة يوم ١٥ من ديسمبر ، وعند ذلك فقط علم الرجال فى حماس شديد بالنبأ : « لسوف ننتقل الآن إلى الهجوم . . فانطلقوا رأساً إلى نهر الموز ! » .

وكان هتلر قد انتقل منذ اليوم الحادى عشر من ديسمبر إلى مقر القيادة العامة فى (زيجنبرج) على الجبهة الغربية . وفى اليوم الثانى عشر ألقى خطاباً وطنياً ملتهباً مستفيضاً أبلغ فيه قادة الجيوش أنهم سيخوضون معركة الأردين . ثم هتف فى نهايته قائلاً : « إلى الأمام نحو نهر الموز ! » وهنا تأجل الهجوم إلى اليوم السادس عشر ، وفيه استمع الألمان إلى الإذاعة وهى تعلن : « إن قواتنا قد استأنفت تقدمها إلى الأمام . . ولسوف نقدم مدينة أنفرس هدية إلى الفوهرر يوم عيد الميلاد ! »

* * *

وخلال ذلك كان نقص الإمدادات فى جانب القوات الإنجلوسكسونية

منذ أواخر الصيف - قد اضطر الجنرال آيزنهاور إلى تأخير ماأسماه (الضربة القاضية) التى أعدها لألمانيا . وبرغم رأى جنرالاته فقد قرر القيام بالهجوم الكبير غرب نهر الراين ، وذلك عندما يعاد تنظيم إدارات إمداداته . وانتظاراً لذلك فإنه أمر بعدم إحداث أى ثغرة منعزلة ؛ لأنها سوف تكون فى مصلحة العدو .

وابتداء من نهاية شهر سبتمبر إلى شهر نوفمبر اقتصر نشاط القوات الإنجلوساكسونية إذن على إعادة تموين نفسها ، وعلى استقدام التعزيزات . وكان المتوقع أن يجرى الهجوم الرئيسى الحليف يوم ١٠ من نوفمبر ، أو بمجرد أن يسمح الطقس بالقيام بالقصف الجوى المقرر .

وقام الحلفاء بهجومهم أخيراً يوم ١٦ من نوفمبر ، واستولوا به على مدينتى (ميتز) وستراسبورج ، ووصلوا به إلى نهر الراين . غير أن سوء الأحوال الجوية ،، ومقاومة الألمان الشرسة الذين أصبحوا يدافعون الآن عن أرض الوطن - حولا الانتصارات الأولى إلى صراع دامٍ عنيف . وكان الألمان قد أقاموا عدداً من السدود الترابية ليستطيعوا السيطرة بها على مياه نهر الروير ، وبصعوبة بالغة استولت عليها القوات الإنجلوساكسونية فى هجمة قامت بها يوم ١٣ من ديسمبر .

وأخيراً تحدد موعد الهجوم الحاسم يوم ١٩ من ديسمبر ، وفيه تقرر أن تقوم ثلاثة آلاف طائرة بفتح ثغرة تتدفق منها ثلاث مجموعات جيوش ، فتسحق خط سيجفريد ، وتصل إلى نهر الراين .

ولم يكن يدور فى خلد أحد أن هتلر بدوره قد استعد ليلعب بورقته الأخيرة ، وأنه قد عبأ جميع الرجال الصالحين للحرب من الشعب الألمانى ، فيما بين السادسة عشرة والستين من أعمارهم الذين هبوا فى انطلاقة وطنية واحدة .

ولكى ينجز الفوهرر هذه الخطة الجبارة – فإنه رأى أن يلجأ إلى بعض أنصاره المتعصبين من قوات العاصفة بدلاً من العسكريين المحترفين الذين فقد ثقته بهم منذ مؤامرة ٢٠ من يوليو. وهكذا فإنه استدعى سب ديتريش وعهد إليه بأفضل مالديه من قوات أخيرة، وكلف هذه القوات الدورَ الرئيسى.

ولسوف يتضح لن هذا الاختيار قد قوبل بالاستياء فى ألمانيا ؛ نظراً إلى أن سب ديتريش الجلاد القديم والعنيف المغرور الذى لم يرتق إلى القمة إلا بتعصبه الوحشى – كان بعيداً كل البعد عن التخصص فى المجال العسكرى، وإذ جمع ما بين الأخطاء التكتيكية وعدم الإدراك الإستراتيجى فإنه سوف يقود رجاله وهم خيرة جنود العاصفة . . إلى الهزيمة . !

* * *

كانت القوات البريطانية التى استقرت فى غابة الأردين منذ شهر سبتمبر بعيدة كل البعد عن توقع ماكان يدبر لها ؛ فهذا القطاع فى نظرها هو أكثر القطاعات هدوءاً. والواقع أن القوات الأمريكية هى التى كانت فى وضع شاق عسير، وهى واقفة على تلك الجبهة العريضة المترامية.

وسرعان ماتمكنت الدوريات الألمانية من التسلل إلى هذه الخطوط، ووقفت على ما فيها من ضعف. والواقع أن جبهة الأردن لم تكن تعدو سوى سلسلة من النقط الحصينة التى قامت بينها فراغات واسعة خالية تماماً من أى تحصينات. وبرغم ذلك فإن التفاؤل الذى كان يسود بين القوات الإنجلوساكسونية لا حدود له : فمن الذى يمكنه إذن وقف جيوشهم، تلك الجيوش الظافرة المنتصرة منذ وطئت أقدامها ساحل نورماندى ؟

وليس هناك من شك فى أن بعض التحركات التى قام بها الألمان قد رصدت، وأن الشائعات قد انتشرت، ولكن هذه الشائعات كانت مشوشة

ومتضاربة ، بحيث لم تحدث أى تأثير فى جانب الحلفاء . والمقطوع به أنهم قد علموا فى شهر نوفمبر بنبأ تلك (المجموعة الإنجليزية) التى قام بتشكيلها الكولونل سكورزنى ، وأصبحوا يخشون احتمال حدوث عملية فدائية خلف جبهة الأردين ، غير أنهم لم يتوصلوا إلى أى تفسير ينبئ بأن الأمر يتعلق بعملية هجومية ذات أهمية تذكر .

وعندما وقع يوم ١٤ من ديسمبر فى أيدى القوات الإنجلوساكسونية أسيران ألمانيان ، وكشفا خلال استجوابهما عن أن الجيش الألمانى يستعد للعودة إلى الهجوم فإن هذا النبأ بدا غير معقول فى نظر الحلفاء ، إلى درجة أنهم عدلوا فى نص التقرير الذى وضع عن الاستجواب ، فجعلوا النص يقول : إن الألمان يتوقعون هجوماً أمريكيًّا !

حتى إذا كان هناك احتمال فى أن يكون الخبراء قد فكروا فى إمكان وقوع رد ألمانى له بعض القيمة فإن القوات الإنجلوساكسونية لم تتخيل قط – وعلى أى مستوى فيها – أن فى استطاعة الألمان أن يضربوا فى هذه النقطة المحددة فى جبهة الأردين ، وهى النقطة التى يعلمون بأمر ضعفها .

وهكذا نجحت عملية تغطية خطة (حراس الراين) نجاحاً كاملاً ؛ إذ كانت العملية (الوحيدة) التى فكر فيها العدو هى الدفاع المستميت عن (إكس – لاشابيل) .

* * *

وكما قلنا من قبل – فإن وراء خطة (حراس الراين) – كانت الاستعدادات تجرى على قدم وساق للانتهاء من وضع تفاصيل العملية الحقيقية التى أطلق عليها اسم « ضبابة خريف » ، والتى استغل فيها سوء الأحوال الجوية ، لإحداث المفاجأة الكاملة لدى الأمريكيين .

وبينما كان المعتقد أن عدد الفرق الباقية لدى الألمان قد تناقص إلى النصف ، وأن هذه الفرق قد استنزفت تماما ، وأصبحت بغير دبابات ولامدافع ولاوقود – إذا بهم يبدون فى كامل قوتهم ، وقد تزودوا بأقوى عتاد ، وعلى أهبة الاستعداد للمقامرة بكل شيء مقابل كل شيء ، أما ثقة الحلفاء المبالغ فيها والتفاؤل الذى لا حد له لدى الأمريكيين وسوء الأحوال الجوية التى حالت دون القيام بأى استطلاع جوى خلال الأيام القليلة التى سبقت الهجوم الألمانى – فإنها جميعا قد تكفلت بالباقى :

فعندما بدأ الألمان هجومهم فجر اليوم السادس عشر من ديسمبر ١٩٤٤ ، كانت المفاجأة التى أحدثوها كاملة شاملة نزلت على الحلفاء كالصاعقة ، مما جعلهم يصابون بالشلل التام ، ولولا الضعف الذى طرأ على الجيش الألمانى بعد خمس سنوات من الحرب – لكان هذا الهجوم الكاسح قد وضع بكل تأكيد نهاية لها لمصلحة ألمانيا !

وفى مساء اليوم السابق للهجوم – كان الجنود فى المعسكر الأمريكى نائمين فى هدوء ، وفى الناحية المواجهة كانت الاستعدادات الأخيرة قد انتهت : فالهجوم سيكون على ثلاث موجات ، بين كل منها والأخرى يومان . وفى الشمال ، فيمابين (مونشاو) و (ماندرفلد) – تقوم أربع فرق مشاة وفرقة من جنود المظلات تابعة للجيش المدرع السادس الذى يقوده سب ديتريش بفتح ثغرة تنطلق منها الفرقتان التابعتان للمجموعة الأولى المدرعة من قوات العاصفة .

اما الفرقة الثانية عشرة من القوات الهتلرية فسيكون عليها أن تصل شمالاً إلى نقطة رئيسية ، هى مرتفعات (إلسنبورن) ، وأما الفرقة المدرعة الأولى من قوات العاصفة فإنها ستتوغل جنوبا وتجتاز نهر (أمبليف) فى اتجاه نهر الموز .

وكما يبدو فإن قوات العاصفة هى التى وقع عليها العبء الأكبر ؛ إذ كلفت القيام بمهمة رأس الحربة فى هذا الهجوم .

وسيكون على فرق المشاة أن تتابع الثغرة ، ثم تعود وتصعد شمالاً لكى تقطع ثلاثة طرق رئيسية ، أما اللواء الخاص الذى يقوده الكولونل سكورزنى فإن عليه ومعه طوابير المقدمة بقيادة ريـتريش أن ينطلق إلى الأمام ، لكى يبذر الفوضى فى كل مكان ؛ حتى يصل إلى نهر الموز .

وفى الجنوب تقوم الفرقة الخامسة المدرعة بقيادة (مانتيوفل) بدفع دباباتها فى المعركة منذ الساعات الأولى ، على حين تستولى اثنتان من فرق الجيش السادس والستين على (سان فيث) ، وهى نقطة تقاطع عدة طرق حديدية فى شمال الأردين ، أما مجموعتا الجيوش الثامنة والخمسون والسابعة والعشرون فإنهما تخترقان الفرقة الأمريكية الثامنة والعشرين وتعزلان مدينة (باستون) .

وقد حددت الجحافل الألمانية لنفسها ثلاثة أهداف رئيسية هى : مرتفعات (إلسنبورن) ، ومدينة (شنى إيفل) ، ورافد نهرى (سور) و (أور) .

الفصل الحادى والعشرون

كيف دارت المعركة ؟

فى حلكة الظلام التى سبقت فجر اليوم السادس عشر من ديسمبر ١٩٤٤ قفز الأمريكيون مذعورين من نومهم على زئير المدافع ، ولقد ظل الذهول مستولياً عليهم حتى ماقبل الساعة السادسة صباحاً بقليل عندما علموا أن قوات المشاة الألمانية تزحف عليهم ، ومن ورائها جموع الدروع الصاخبة ، وكان بعض الضباط الأمريكيين مازالوا حتى هذه الساعة يعتقدون أن الأمر مجرد مناورة لتغيير مواقع بعض القوات . . !

على أن الجنرال سب ديتريش واجه فى الشمال بعض الصعاب ، إذ صادف فى طريقه فرقتين أمريكيتين لم يكن يتوقعهما كانتا فى طريقهما إلى سدود نهر الرور . وسرعان مانشب القتال فيما حول مرتفعات (إلسنبورن) بعنف شديد ، لأن الجنرال (جيرو) الأمريكى فطن إلى اتساع نطاق الهجوم الألمانى فأراد أن يحتل هذه النقطة الإستراتيجية قبل أن يحتلها الألمان . وقد استولت عليها قواته بالفعل فجر يوم ١٩ من ديسمبر ، واستطاع منذ ذلك اليوم أن يصد جميع الهجمات التى شنها عليه الجنرال سب ديتريش .

وعلى مبعدة فى اتجاه الجنوب – فيما بين (إلسنبورن) و (شنى إيفل) – أخذ الأمريكيون فى المجموعة الرابعة عشرة من قوات الفرسان على غرة ، فتراجعوا على عجل تاركين الطريق مفتوحاً أمام فرقة (أدولف هتلر) وهى أفضل فرق العاصفة على الإطلاق ، وأمام غيرها من الوحدات الألمانية التى استمرت فى اندفاعها داخل الثغرة .

وطلب الجنرال الأمريكى (هودجز) لنجدة المدافعين عن مرتفعات إلسنبورن الجيش الأول الذى كان رجاله حينئذ فى راحة ، بل إن بعضهم كان يقضيها فى باريس . ومع ذلك فإن هذه الجبهة السيئة التكوين استطاعت الصمود فى وجه الهجمات المتكررة التى قامت بها قوات العاصفة التى قدر لها أن تصادف فيها أول فشل للهجوم على الأردين .

غير أن الألمان تمكنوا أبعد قليلاً من ذلك ناحية الجنوب من تحقيق هدفهم فى (شنى إيفل) على وجه السرعة ، فتقهقر الأمريكيون إلى الوراء ، وراحوا ينظمون بشق النفس الدفاع عن (سان فيث) . وفى هذا السباق اليائس وقعت البطارية (ب) التابعة للكتيبة ٢٨٥ مراقبة مدفعية فى كمين نصبته لها الفرقة المدرعة الأولى التى يقودها سب ديتريش ، فأبيد رجالها جميعاً فى مكان يدعى (ماليدى) .

أما فى سان فيث فقد سادت الفوضى الشاملة . فى الوقت الذى تم فيه سحق الكتيبة الأمريكية ١١٠ مشاة ، على أيدى اللواء الألمانى السابع والأربعين ، أما الكتيبة الأمريكية ١١٢ فقد تمكنت برغم الخسائر الثقيلة التى حاقت بها من اللحاق بالقوات المرابطة فى سان فيث .

لقد كانت المفاجأة تامة وساحقة ، فكانت الوحدات الأمريكية المختلفة تحارب دون أى إعداد نفسى لهذا الهجوم ، وبغير أن تتلقى أى معلومات عن الأهداف الألمانية ، ومن أجل ذلك ظلت طوال الساعات الأولى من الهجوم الألمانى عرضة للمخاوف والقلق .

وعندما حان مساء اليوم السابع عشر من ديسمبر فتح الألمان ثغرتين كبيرتين فى جبهة الأردين ، ومن ثم أخذت قواتهم تتقدم نحو الغرب ، وفى هذه الساعات العامرة بالتوتر فى كلا الجانبين عادت البسمة إلى هتلر وإلى الشعب

الألمانى ، كما عادت إليهم الثقة .

أما فى فرنسا فإن القوم هناك استعادوا فجأة ذكريات موقعة سيدان ، فاستغرق الشعب الفرنسى فى حزن عميق . .

* * *

كان رد الفعل فى جانب الحلفاء فى غاية البطء : ذلك أنه مامن أحد فطن فى البداية إلى مدى اتساع المخطط الألمانى الذى تصور البعض أن أى هجوم محلى مضاد يمكن أن يقضى عليه ، ولم يتكشف الضباب إلا بعد أربع وعشرين ساعة ، فأدرك الحلفاء الضرورة الملحة لتعزيز القوات الأمريكية التى تتعرض للهجوم .

غير أنه فى اليوم السابع عشر من ديسمبر لم تكن هيئة الأركان تملك سوى فرقتين محمولتين جوًّا استدعتهما على الفور للذهاب إلى مدينة (باستون) ، التى رئى أنها جوهرية من وجهة النظر الإستراتيجية .

وفى يوم ١٨ من ديسمبر قرر الجنرال آيزنهاور – على عكس توقعات هتلر – إلغاء هجوم الحلفاء الكبير على خط سيجفريد ، وهو الهجوم الذى كان مقرراً أن يبدأ فى اليوم التالى ؛ كما قرر تجميع قواته لتضييق نطاق الثغرة التى أحدثها العدو .

وفى هذا الوقت نفسه ، شن الألمان حرب أعصاب كان من شأنها أن تضاعف شعور القلق لدى الحلفاء ، وعُقِد فى (فردان) يوم ١٩ من ديسمبر اجتماع إستراتيجى كبير حضره المسئولون العسكريون الإنجلوساكسونيون الكبار ، ومع ذلك تقررت فيه خطة قتالية قللت إلى حد خطير من ضخامة الهجوم النازى . وكان السبب فى ذلك انعدام الأنباء القادمة من الجبهة ، الأمر الذى حمل الجنرال الأمريكى هودجز على أن يقول : « إن وضعنا ليس حرجاً .

فهناك تعزيزات تصل بدون انقطاع ، وموقفنا يتحسن يوماً بعد يوم » .

لكن هذا التفاؤل أخذ يتناقص مع ورود الأنباء السيئة . وعندما بلغ الجنرال آيزنهاور أن مدينة (سبا) مهددة ، وأن الجيش الأمريكى الأول قد أخلاها – أدرك أخيراً أبعاد الهجوم الألمانى المضاد ، وعلى الفور تحددت أربعة أهداف أكبر . الدفاع عن ميناء أنفرس الذى تصل منه جميع الإمدادات . وعن القواعد البريطانية فى بروكسل وأنفرس ، وعن مدينة (لييج) . وعن خط المواصلات بين أنفرس – لوفان . . وأنفرس – لييج .

وبعد ذلك اتخذ القائد العام للقوات المتحالفة وحده قراراً بتوزيع جميع قواته على ناحيتى خط الموز وخط سيجفريد ، واقتسم كل من الجنرالين مونتجومرى وبرادلى القيادتين الشمالية والجنوبية . وابتداء من يوم ٢٣ من ديسمبر عندما فرغ الألمان من قطع أسلاك الاتصال – أصبح ميدان المعركة كما لو كان قد قطع إلى نصفين فى كل جانب من هذا الخط .

* * *

ويمكن هنا القول إنه فى الساعات الاولى للهجوم كانت القوة الرئيسية للألمان قوة سيكولوجية : ذلك أن المفاجأة التى أحدثها القصف المدفعى فجر يوم ١٦ من ديسمبر نتج عنها نوع من الفزع الجنونى وانتشار الفوضى استغلتهما أحسن استغلال الفرق غير النظامية المكلفة بعملية إذاعة البلبلة .

أما اللواء المدرع الخمسون الذى يقوده الكولونل سكورزنى فإنه بتجهيزاته الكاملة وبالثياب الأمريكية والبريطانية التى ارتداها أفراده – قد أنجز دوره بكل دقة وبصورة تثير الإعجاب . ومنذ بداية الهجوم راحت مجموعات صغيرة من الكوماندوز تتسلل إلى ماوراء خطوط الحلفاء ، فتنشر الرعب والفوضى وتربك

حركة النقل بتغيير (اللوحات) المرشدة وعلامات الطرق ، وتجمع المعلومات عن مواقع العدو .

وهبت على القوات الإنجلو ساكسونية رياح ذعر أخرى يوم ١٦ من ديسمبر عند منتصف الليل ، وذلك عندما قفز ثمانمائة رجل من جنود المظلات الذين يقودهم فون هيت بالقرب من (مالميدى) .

وإذا أضيف إلى ذلك الأنباء السيئة التى تجىء من كل ناحية – أصبح للهجوم الألمانى وقع نفسى شديد الوطاة : فقد كان الحلفاء يتصورون أنهم يـرون جنود العاصفة يهبطون بالمظلات فى كل مكان . ولكى يضاعف الألمان من هذا الوقع على الحلفاء – فإنهم أخذوا يلقون العرائس التى وضعوا عليها ثياب الجنود من الطائرات ، فيتحول خوف الجنود إلى فزع جنونى .

ثم عمد الألمان فضلاً عن ذلك إلى إشاعة أن جميع أسرى الحرب الألمان قد فروا من السجون والمعتقلات ، وبرغم عدم ثبوت أى مصدر لهذه الشائعة فإن الرعب قد انتشر بين قيادات الحلفاء ، وخاصة عندما ينادون وحدة من وحداتهم فلا تجيب ، فيعتقدون أن هؤلاء الأسرى قد أجهزوا عليها !

وللمرة الأولى منذ نزول الجنود الأمريكيين فى القارة الأوربية استقر فى روعهم أن الهزيمة الشاملة أصبحت منهم قاب قوسين أو أدنى ! .

* * *

غير أنه ما كادت تنقضى على ذلك بضعة أيام حتى زالت آثار المفاجأة ، وعاودت الحلفاء تلك الرغبة الوحشية فى أن ينتصروا فى هذه الحرب .

أما الألمان الذين رأوا وحدات كاملة من جنود الحلفاء تستسلم لهم ، والذين اقتنعوا بنذالة الجندى الأمريكى وجبنه – فراحوا يشهدون بدورهم ولكن فى غير دهشة هذا التحول النفسى . ونتيجة لذلك فإن الأيام التى بين الثامن عشر

والسادس والعشرين من ديسمبر كانت أسبوعاً رهيباً بالنسبة لكلا الجانبين :

ذلك أن الألمان بعد أن تحول الحظ معهم عندما حاولوا دون جدوى طوال ستة أيام الاستيلاء على مرتفعات (إلسنبورن) ، وبعد أن رأوا دباباتهم تنغرس فى الوحل – إذا بهم يتوقفون فى زحفهم على قطاع (أمبليف) : فنى هذا القطاع مدينتان رئيسيتان يدافع عنهما الأمريكيون هما : مالميدى حيث تركزت المدفعية وسلاح المهندسين ، و (ستافلوت) هاتان النقطتان اللتان تدافعان بدورهما عن المستودعات الضخمة لوقود الجيش الأمريكى الأول .

وقد حاول الكولونل (بايبر) على رأس الفرقة الأولى من قوات العاصفة اجتياز هذا القطاع . فنى فجر يوم ١٨ من ديسمبر هاجم مدينة (ستافلوت) ، واستولى على جبل يطل على (أمبليف) ، إلا أن دباباته اضطرت للتوقف على طريق (سبا) أمام فيضان هائل من اللهيب دفعه إلى الوراء ، فقد أشعل الأمريكيون النار فى خمسمائة ألف لتر من البنزين من مخزونهم .

وبينما كان بايبر يبحث عن ممر آخر – إذا بالفيلق الحادى والخمسين من قوات المهندسين يوقفه ، وذلك بأن نسف جسور نهر الموز . واستمر القائد الألمانى فى طريقه متوغلاً ناحية الشمال ، فإذا بمقاتلات العدو القاذفة ترصد دباباته ، وتنزل به خسائر فادحة ، مما جعل الثغرة الألمانية تزداد خطورة .

وأخيراً اضطر الجنرال بايبر إلى التخلى عن مهمته على حين صُدَّت جميع الهجمات الأخرى التى قامت بها قوات ألمانية أخرى بعد قتال رهيب كان الرجال يسقطون فيه بالعشرات . وفى ليلة ٢٤ من ديسمبر تمكن بايبر من الوصول إلى بقية فرقته على الضفة اليسرى لنهر (أمبليف) ، ولكنه لم يكن قد بقى معه سوى ثمانمائة رجل ، واضطر إلى أن يترك للأمريكيين مائة وأربعين مركبة ، وتسعة وثلاثين دبابة جديدة .

والغريب أن القوة التي أحبطت هذه الثغرة التي كان يمكن أن تقرر مصير الهجوم الألماني – كانت مكونة من حوالى مائة أمريكي مصممين على القتال حتى النهاية .

* * *

بيد أن جولة عسيرة كانت تجرى فى سان فيث : ذلك أن الكتيبة السابعة الأمريكية التي استقرت بهدوء فى هولندا استدعيت للتعزيزات ، واشتبكت يوم ١٧ من ديسمبر والألمان على الطرق المؤدية إلى سان فيث . وفى فجر يوم ١٨ من ديسمبر قام الألمان بهجومين على المدينة ، فخاض رجال الكتيبة الأمريكية السابعة قتالاً مريراً رهيباً ، هم الذين كانوا حتى الأمس لايفكرون إلا فى المكان الذى يقضون فيه إجازاتهم ! وقد فوجئ الجنرال مانتيوفل من الجانب الألمانى بهذه المقاومة غير المتوقعة ، ماستقدم مزيداً من التعزيزات للقيام بالهجوم الكبير المحدد له يوم ١٩ من ديسمبر .

لكن مقاومة عنيدة نظمت حول سان فيث ، فكانت ستاراً صَدَم مانتيوفل ، فقرر الاستعانة بوحدة مختارة من قوات العاصفة يقودها الجنرال ريمير . وقد هاجمت هذه القوات يوم ٢١ من ديسمبر مدينة سان فيث فقضت على حاميتها ، وأخذت الكثير من الأسرى .

وفى اليوم التالى نجح جنود العاصفة الذين انتشوا بانتصار الأمس فى فتح ثغرة جديدة أدت إلى إخراج الكتيبة الأمريكية السابعة من مواقعها ، وفى صباح يوم ٢٣ من ديسمبر تلقت القوات الإنجلوساكسونية أخيراً أمراً بالانسحاب ، فبدأت عملية تقهقر غريبة بين الهجمات الألمانية المتتابعة .

غير أن الحلفاء لم يكتفوا بالجلاء عن المدينة ، فما إن خرجوا منها ، حتى جاءت مجموعات كبيرة من سلاح الطيران الملكى البريطانى ، فألقت عليها ألفا

ومائتين وسبعين طنا من القنابل محتها من الوجود : وهكذا لم يستطع الألمان استخدام هذه النقطة الإستراتيجية والانتفاع بها .

* * *

كان هدف الحلفاء هو شطر القوات الألمانية عن مؤخرتها ، وأول ما اهتم به الجنرال الأمريكي هودجز هو أن يسد ثغرتى (أمبليف) ، ومن أجل ذلك وجه إلى هذه الجبهة جميع الوحدات التى فى حوزته ، وهو ينوى أن يشن من هناك هجوماً مضادا لاقتحام جناح العدو ؛ إلا أن هذه الخطة لم تتحقق قط على إثر سلسلة من الضربات الألمانية غير المتوقعة .

وعلى ذلك بدأت يوم ٢٠ من ديسمبر العملية التى وضعت لإقامة خط دفاعى ثابت فى (مالميدى) ويمتد حتى (فبيلسام) و (هوفاليز) عبر الأردين . غير أنه حدث فى هذا الوقت نفسه أن اندفعت قوات العاصفة من الثغرة المفتوحة بين (باستون) وسان فيث متقدمة فى اتجاه نهر الموز ، فوقع صدام بين الجيشين كان من أكثر المعارك الرهيبة التى وقعت حتى الآن .

ولم يترك الألمان للحلفاء أى فترة يلتقطون فيها أنفاسهم ، فعمد الجنرال مانتيوفل إلى التقدم بدوره من (باستون) التى لم يخلف وراءه فيها سوى قوة بسيطة للتغطية متجها نحو نهر الموز . وعلى ذلك بدأ سباق بينه وبين القوات البريطانية والفيلق الأمريكى الثانى ، وهى القوات التى كانت تهدف إلى وقف فيلق ألمانى ظهر فجأة إلى مشارف النهر ، فى اليوم السابق على عيد الميلاد .

وبفضل تحسن الجو راح طيران الحلفاء يدك مؤخرة العدو ، فلم يلبث الفيلق الألمانى أن انشطر إلى قسمين ، ووقع بذلك فى شرك الحصار ، فلما كان يوم عيد الميلاد فَقَدَ لواء كاملاً ، وهكذا فإن الألمان لم يقدموا مدينة (أنفرس) هدية إلى الفوهرر فى هذا اليوم ؛ كما أن تهديدهم لنهر الموز قد انتهى !

* * *

أما فى الشرق فإن النصر فى الجولة التى كانت دائرة فيه كان بعيداً كل البعد عن أيدى الحلفاء :

ذلك أنه بعد سقوط سان فيث فى أيدى الألمان هاجم لواء سكورزنى المدرع مدينة (ماليدى) يوم ٢١ من ديسمبر ، غير أن عدداً كبيراً من الجنود الألمان الذين تخفوا فى ثياب أمريكية قد اعتقلوا وأعدموا رمياً بالرصاص ، فاضطر الكولونل سكورزنى إلى التراجع . وقد استدعى إلى ألمانيا يوم ٢٩ من ديسمبر ، وبعد ذلك صدر أمر بحل الوحدة التى يقودها .

وخلال ذلك فإن الكتيبة الثانية من قوات العاصفة التى استدارت حول سان فيث قد تمكنت من الوصول إلى (باستون) ، حيث انضمت إليها الفرقة ٥٦٠ التى يقودها سب ديتريش ، فأبادا معاً فصيلة كاملة من الجنود الأمريكيين المحمولين جوًّا والتابعين للفرقة الثانية والثمانين .

وأخيراً قرر المارشال البريطانى مونتجومرى الذى عين قائداً عامًّا لجميع قوات الحلفاء العاملة فى الشمال سحب الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جوًّا بعد أن ضُرِبَ حولها حصارٌ ألمـانى من الاتجاهات كافة وخلال الفوضى التى عمت هذا الانسحاب إذا بالكتيبة الأمريكية السابعة تجد نفسها وجهاً لوجه أمام بعض القوات الألمانية ! وقبل أن تتمكن هذه الكتيبة من معرفة مايحدث لها فإن طليعتها أبيدت عن آخرها ، وبعدها فصيلة أخرى أزيلت بدورها من الوجود !

وقد صمدت القوات الأمريكية فى هذه الجبهة ثلاثة أيام أمام الألمان ، وهى فريسة للإرهاق واليأس ، فلما كان يوم ٢٦ من ديسمبر تمكنت بعد قتال شرس من إعادة تقويم خطوطها ، وسدت بذلك الثغرة الألمانية .

* * *

وابتداء من هذه اللحظة فإن مصير معركة الأردين أخذ يتقرر فى الجنوب ،

فيما حول مدينة (باستون) . فلقد ظلت هذه المدينة البلجيكية الصغيرة التى هى ملتقى هام للطرق ، ولكن لايقطنها سوى بضعة آلاف من السكان – رمزاً لهذا الصراع المرير الذى يخوضه الأمريكيون ضد القوات النازية :

فنى يوم ١٩ من ديسمبر استدعيت الفرقة الأمريكية ١٠١ المحمولة جوًّا من مدينة (ريمز) لكى تتولى الدفاع عن (باستون) ، ومعها مجموعة قتال تتكون من عناصر من الكتيبة العاشرة وعدة وحدات يقودها الجنرال ميدلتون .

أما الألمان الذين وصلوا فى الوقت نفسه تقريباً إلى مشارف هذه المدينة فإنهم كانوا ينوون الاستيلاء عليها قبل أن تتحول إلى قلعة منيعة ، وأما الدبابات الألمانية فإنها استمرت فى الاتجاه صوب نهر الموز مباشرة ، تبعاً للأمر الذى أصدره الفوهرر .

وأسرع الجنرال الأمريكى ميدلتون بتوزيع قواته ، وحدد لها مهمتها وهى الصمود فى مواقعها مهما كلفها ذلك .

وفى ليلة ١٩ من ديسمبر طلب الجنرال الألمانى (لوتفيتز) قائد الفيلق المدرع السابع والستين التصريح له بانتزاع المدينة بالقوة برغم الأوامر التى لديه بالاتجاه نحو النهر . وقد حصل على تصريح بالقيام بهجوم محدود .

ولكن التعزيزات الأمريكية وصلت خلال ذلك فانتظم الدفاع عن المدينة . وفى يوم ٢٠ من ديسمبر أصبح الأمريكون ثمانية عشر ألف رجل فى مواجهة خمسة وأربعين ألفا من الألمان الذين أخذوا يتقدمون زاحفين على مدينة (باستون) من ثلاث جهات .

ومع ذلك وبالرغم من عنف الهجوم الألمانى – فإن القوات النازية لم تستطع التقدم إلا بصعوبة بالغة . فلما كان صباح يوم ٢٢ من ديسمبر وأصبحت المدينة محاصرة حصاراً كاملاً – جاء أربعة من البرلمانيين الألمان يعرضون على الجنرال

(ماك أوليف) الذى حل محل ميدلتون أن يستسلم . وكما فعل من قبل الجنرال (ويلنجتون) مساء معركة ووترلو التاريخية فإن القائد الأمريكى رد على الاقتراح بكلمة واحدة هى : لا !

* * *

وخرج الجنرال الألمانى على أوامر هتلر ، فقرر الاستيلاء على المدينة : فما دام العدو لايريد أن يستسلم – فعليه أن يخوض المعركة .

وعلى ذلك استمر الحصار حتى يوم ٢٦ من ديسمبر ، فلما بلغ هتلر أمر المقاومة الأمريكية غضب وثار ، وقرر وهو آسف أن ينتزع من قواته الاحتياطية الفرقة الخامسة عشرة المدرعة المشاة ، ولكن ذلك جاء بعد فوات الأوان ، لأن الإمدادات أصبحت الآن تصل إلى القوات الأمريكية المحاصرة بطريق الجو ، فلما كان بعد ظهر يوم ٢٦ من ديسمبر إذا بتعزيزات غير منتظرة بعث بها الجنرال الأمريكى (باتون) فتخترق الخط الألمانى ، وتدخل المدينة .

وقد استقبلها المحاصرون بحماس هستيرى ، وأمكن بذلك فك الحصار عن المدينة .

وأصيب الألمان بخيبة أمل نتيجة لتقليلهم من قيمة العدو . والواقع أن مرونة الحركة لدى القوات الأمريكية قد بعثت على الذهول : فى أسبوع واحد استطاع الجيش الأول أن ينقل من مكان إلى مكان ربع مليون رجل ، وثمانية وأربعين ألفاً وسبعمائة سيارة ، وقد عانت قوات العاصفة التى كان لها دور ضخم فى هذه المعركة من الصعاب التى واجهتها فى الإمدادات والتموين .

وإذ ألقى الحلفاء فى المعركة بكل قواتهم الجوية فإنهم بذلك قد أنزلوا الارتباك بعمليات تموين الألمان ، وقطعوا خطوط مواصلاتهم ، ودمروا لهم الطرق البرية والحديدية والجسور .

وبرغم أن الهزيمة بدأت تلوح للقوات الألمانية – فإن هتلر لم يشأ التراجع عن خطته . وبعد تردد طويل وافق على أن يقوم الجيش الألمانى قبل أن يحاول اجتياز نهر الموز – أن يدخل أولاً فى معركة مع القوات المتحالفة التى تجمعت شرق هذا النهر . وسرعان ما أعيد تنظيم جنود العاصفة تمهيداً لدخول المعارك الجديدة التى كان أول أهدافها الاستيلاء على (باستون) التى دار من حولها أشرس قتال فى التاريخ العسكرى .

وحاولت قوات العاصفة ببسالة منقطعة النظير دون جدوى عزل القوة المدافعة عن المدينة عن بقية القوات الأمريكية ، فلما كان مساء الأول من يناير ١٩٤٥ أخذت ثمانى فرق ألمانية تستعد لتوجيه الضربة القاضية إلى القوات المحاصرة .

وفى يوم ٣ من يناير قام الألمان بالهجوم الأخير على هذه القلعة ، ولكن كل محاولاتهم باءت بالفشل ، لقد صمدت مدينة (باستون) ، ولكنها دفعت مقابل ذلك ثمناً باهظاً !

* * *

فى هذه الأثناء كان الجنرال مونتجومرى قد فرغ يوم ٢٧ من ديسمبر من الاستعداد للقيام بالهجوم ، وبالفعل انطلقت يوم ٣ من يناير وحدات الفيلق الأمريكى السابع فى هجوم عام هدفه القضاء على سن الحربة الألمانية .

حتى هذا الوقت كان الألمان مع اعترافهم بصعوبة اجتياز نهر الموز – يرون أنهم نجحوا على الأقل فى احتواء تقدم الحلفاء نحو الراين ، ومن أجل إنزال الاضطراب فى صفوف العدو – قرر هتلر توجيه سلسلة من الهجمات المفاجئة المحلية التى قصد بها تدمير أسلحة الحلفاء واحداً واحداً .

وكان أولى هذه الهجمات هى عملية (نور ويند) التى جرت فى الأول من

يناير ضد ستراسبورج ، ولكن إذا كان الألمان قد تمكنوا من عبور نهر الراين فإنهم لم ينجحوا فى الاستيلاء على عاصمة الألزاس .

وفى هذا اليوم نفسه قام سلاح الجو الألمانى بمعركة أكبر دمر خلالها للعدو الأنجلوساكسونى مائتين وستين طائرة ، ولكن فى مقابل مائتين من طائراته وهكذا بدأ هتلر يرى أحلامه وهى تتبدد الواحد وراء الآخر !

وهكذا بدأ هجوم الحلفاء يوم ٣ من يناير وسط جو قارس البرودة ، مما جعله هجوماً شاقاً .

وراح الجيش الأول يتقدم برغم كل شىء فى الغرب عبر الحقول والغابات التى غطاها الجليد . وفى الشرق عاد الروس فجأة للهجوم يوم ١٢ من يناير ؛ مما اضطر هتلر لسحب عدد كبير من قواته العاملة فى الجبهة الغربية . وهنا لم يعد أمام الألمان إلا أن ينسحبوا فى انتظام من الأردين ؛ لكى يعودوا إلى التحصن وراء خط سيجفريد .

وهكذا أزيلت الثغرة الكبرى ، أو الجيب الذى أحدثه الألمان فى الأردين ، وإثر ذلك أخذ الجيشان الأمريكيان الأول والثالث يهاجمان الخط الألمانى الحصين .

كانت آخر المعارك الكبرى فى الجبهة الغربية توشك أن تنتهى . وخلال مايقرب من الشهر تواجهت تسع وثلاثون فرقة ألمانية فى عنف واثنتان وثلاثون فرقة للحلفاء . وبعد أن ألقى الألمان بآخر ورقة فى جعبتهم أدركوا أنهم خسروا كل شىء !

وهكذا فإنه ابتداء من الأول من فبراير ١٩٤٥ أخذ الجيش الأمريكى الثالث يندفع نحو نهر الراين ، وفى يوم ٧ من مارس اجتازه الجيش الأول ، ولم يمض على ذلك سوى ستة أسابيع حتى كان الأمريكيون والروس عند نهر

(إلبا) . وفى هذا اليوم وقع الجنرال جودل ، وهو الرجل الذى أعد مع الفوهرر خطة معركة الأردين – على اتفاقية استسلام جميع قوات الرايخ الثالث .

* * *

لقد خسر الألمان معركة الأردين ، غير أن كلا الجانبين المتحاربين كانت خسائرهما فوق طاقة البشر : ففى جانب الحلفاء كان عدد القتلى سبعة وسبعين ألف رجل ، وأكثر من ثمانين ألفاً لدى الألمان .

هذا إلى جانب مئات الدبابات والمدافع والطائرات التى دمرت . وإذا كان مايؤخذ على الألمان فى هذا الصدد أنهم قللوا إلى حد خطير من تقييمهم لإمكانات الرد فى الجانب الأمريكى فإن الحلفاء بدورهم لم يقدر لهم أن يخرجوا منتصرين من هذه المعركة إلا بفضل الفيض الهائل من العتاد والرجال الذى جاء من الولايات المتحدة .

غير أن الهزيمة الكبرى التى حاقت بألمانيا فى ذلك الشتاء من عام ٤٤ – ١٩٤٥ إنما كانت هزيمة معنوية : ذلك أنها أدركت أخيراً عدم جدوى تطلعاتها وواقع هزيمتها . وهى بعد أن زجت فى الأردين بكل ما كان باقياً لديها ، فإن جميع الجبهات الأخرى أخذت تضعف وتذوى الواحدة بعد الأخرى . . فلقد أصيبت آلة الحرب الألمانية بالجرح القاتل الذى أصبح لاقبل لها بالحياة من بعده !

رقم الإيداع		١٩٨١/٤٥٠٩
الترقيم الدولى	٩٧٧-٧٣٥١-٤٦-١	ISBN

١/٧٩/٢٢٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هــذا الكتاب

معركة نورماندى من أشهر المعارك التى جرت على الأراضى الفرنسية وهى الحلقة الأخيرة والفاصلة فى الحرب العالمية الثانية ، وضعت البداية الحقيقية لهزيمة ألمانيا والقضاء على أخطار النازية .

وهذا الكتاب يتناول بالتفصيل خبايا هذه المعركة الفاصلة ، ويركز بصفة خاصة على فترة الاستعداد والتحضير ، وعلى دور المقاومة الفرنسية السرية فى مساعدة الحلفاء ، ونجاح عملية الهبوط ، وبعدها معركة تحرير فرنسا ، كما يتناول الدروس المستفادة من هذه المعركة ..